أحمد الدبش

عورة نوح

ولعنة كنعان وتلفيق الأصول



2007

عورة نوح

ولعنة كنعان وتلفيق الأصول

- **عورة نوح ولعنة كنعان وتلفيق الأصول**
- **تأليف** : أحمد الدبش
- **الطبعة الأولى** 2007
- **عدد النسخ** 1000 نسخة

- **الناشر** :



خطوات للنشر والتوزيع

- **الغلاف والإخراج الفني** : مناف نفاع

الإهداء

إلى عرائس فلسطين الشهيدات: وفاء إدريس التي أعادت إلى أذهاننا فدائيات الأمس، يوم فجرت جسدها الطاهر في بني صهيون فوق ربا أرضنا الحبيبة انتقاماً لدماء شعبنا!

آيات الأخرس التي استدارت إلى دنياها، ورفضت أن تزف إلى عريسها بفستان الزفاف الأبيض، وارتدت بدلاً منه بدلة الجندية والكوفية الفلسطينية، وتزينت بالدم الأحمر القاني!

دارين أبو عيشة التي أوصتنا بأن المرأة الفلسطينية لن يقتصر دورها على البكاء ... بل ستتحول إلى استشهادية!

إلى كل القابضين على الجمر، الذين يولدون كل يوم في حقول الدماء: لكم وحدكم فحسب إكليل الغار.

أحمد الدبش

المقدمة

إذا كان يجب أن نموت
فلنمت في نبل
حتى لا ينزف دمنا سدى
وحين يحدث ذلك
فإن المارد الذي نتحداه
سيضطر إلى احترامنا
بعد موتنا

الشاعر "كلود مكاي"
من قصيدته «إذا كان يجب أن نموت»

من رحم المسخ التوراتي ولد في التاريخ الحديث مصطلح اسمه [السامية]. هيمن ولا يزال يهيمن على أفكار أجيال من الدارسين والباحثين. فلم يلبث مصطلح [السامية] أن لاقى تقبلاً من المختصين بالاستشراق، فشاع استعماله على نطاق واسع، وبقي متداولاً إلى يومنا هذا بين المعنيين بتاريخ اللغات والحضارة.

لقد أسهم مفكرونا ومؤرخونا عن جهل، سواء كان جهلاً حقيقاً أم مصطنعاً، بريئاً كان أم ذا مرام، في انتشار مصطلح السامية لغة وحضارة وتاريخاً وآثاراً. وأصبح عندهم علماً لمجموعة من الشعوب المزعومة، وانشؤوا في جامعتنا أقساماً للغات السامية، والدراسات السامية، والحضارة السامية، دون أن يجشموا أنفسهم عناء النقاش أو السجال حول صحة هذا المصطلح، واخترق وعي الإنسان العادي بمفاهيم أقل ما يقال عنها أنها غير علمية.

لا ريب في أن الكثير من الشعوب والقبائل والفصائل الإنسانية عاشت في مختلف أرجاء العالم على مدى التاريخ وخلال العصور الموغلة في القدم، وكان لكل منهم اللغة والثقافة والاسم. لكننا لم نعثر في النقوش الأثرية ولا في الوثائق التاريخية على قوم يحملون اسم "السامية". ويتحدث العهد القديم عن قوم ينتسبون إلى سام دون أن يطلق عليهم اسم «الساميين».

وعلى ضوء هذا الكلام، يطرح السؤال التالي نفسه: كيف يمكن أن يتخذ من الانتساب إلى قوم ما ملاكاً ومعياراً لتحديد الهوية التاريخية والقومية والثقافية، دون أن يكون لأولئك القوم وجود بهذا الاسم وتلك المواصفات؟[1]

وكان من الآثار الخطيرة التي ترتبت على اعتناق مصطلح السامية أن فريقاً كبيراً من المشتغلين بالثقافة والأديان قد انقادوا وراء هذا المصطلح، وأخذ البعض يتولى، نيابة عن المستشرقين، تعميمه بين أروقة النظام العربي، بل والأدهى من ذلك أنهم جعلوا أنفسهم وكلاء عن المستشرقين في توزيع أفكارهم والدعوة إلى تبني آرائهم في تاريخ العرب قبل الإسلام وقضاياه.

فقد عمد حراس وأصحاب الفكر الآسن العربي إلى تشويه تاريخنا العربي القديم العريق وتقزيمه وتزويره، بحجة أنه تراث وثني، وصار تاريخنا العربي القديم يبدأ بما يسمي زوراً بـ(الجاهلية) مما رتب آثاراً جدّ فادحة، فقد صارت كلمة (عربي) مرادفة لكلمة (بدوي). وانطلق مؤرخونا الأفاضل!! إلى القول أن العرب كانوا قبل الإسلام بدواً رحلاً ليس إلا عاشوا متنقلين في البوادي وأطراف الصحارى، لم يعرفوا إلا القبلية المتخلفة نظاماً لهم، وأنهم انطلقوا ـ كموجة سامية ـ بدافع الفقر والجوع من شبه الجزيرة العربية بدواً مسلمين، فاحتلوا مناطق بلاد الشام والعراق.

لقد نتج عن هذا المصطلح اعتبار العرب شعباً لا قيمة له في التاريخ القديم، وليس له أي وزن سياسي أو حضاري، تاريخهم غامض مجهول. كما جاء

---

(1) (اللواساني) شابور، تفنيد النظرية القومية الآرية والسامية والتركية، ترجمة: عبد الرحمن العلوي، ط 1، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2005، ص 98.

عنهم في دائرة المعارف الإسلامية إذ تقول: "إن عهود العرب الأولى في التاريخ غامضة جداً، إننا لا نعرف من أين أتوا ولا ما هو وجودهم البدائي"[1].

وللأسف الشديد لم يزل هذا التصور مخيماً حتى الآن على أفكار كثير من كتاب التاريخ العربي ونقلوه أيضاً من خلال مؤلفاتهم إلى الأوساط المثقفة العربية الأخرى. وشكل هذا التصور في أقطارنا العربية تربة خصبة لظهور النزاعات الإقليمية وتدعيمها من خلال تفسير التاريخ العربي تفسيراً يقوي انفصال الشعوب العربية بعضها عن البعض الآخر. ويفتت أصول وحدتها في القديم ويدحض دواعي هذه الوحدة في الحاضر.

فجرى تغيب الهوية العربية عن كل المكتشفات الآثارية، وصار كل مكتشف أثري ينسب لشعب جديد، وحضارة جديدة، ولغة جديدة، وفرض علينا قسرياً تسميات ساذجة من التوراة، لترسيخ فكرة الطابع البدوي لشعبنا العربي.

أليس هذا "هوسنا المحب للخصام الذي بدأ تفريقه شعباً إلى شعوب أقرباء كالمؤابين والمؤدنين أو العموريين، والكنعانيين، والآراميين، والسوريين الخ .... ولماذا؟ لأننا نعنى أن نميز فيهم خصومات عرقية أو طائفية تجبرنا على أن نضع بينهما العبرانيين، وذلك لكي نقدم الدليل بكل ثمن على صحة العهد القديم"[2].

قد يكون مفيداً هنا أن نذكر رواية المسخ لكافكا، التي تتحدث عن ذلك الإنسان البائس الذي يستيقظ يوماً ليجد نفسه قد تحول إلى صرصار. وينتهي مصيره بسحقه تحت الأقدام. يمكننا دون مغالاة، مقارنة حال مفكرينا ومؤرخينا وفقهائنا وسياسيينا، مع حال ذلك المسخ.

من النقاط السالفة نفهم لماذا يجب علينا أن نعيد صياغة تاريخنا على أساس دراساتنا العلمية الدقيقة، لا على أساس هذا الدجل المؤسس على أساطير يرويها

---

(1) (بيير روسي)، مدينة إيزيس ـ التاريخ الحقيقي للعرب، ترجمة: فريد جحا، ط 1، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1996، ص 18.

(2) مدينة إيزيس ـ التاريخ الحقيقي للعرب، مصدر سبق ذكره، ص 69.

ما يسمى بالكتاب المقدس!؟ أليس من الغباء قبول نظرية الأعراق التوراتية؟ أليس من السخرية أن ندرس في جامعتنا أننا من صلب رجل أسطوري هو سام؟ انطلاقاً من وثائق لا وجود لها، أو مشكوك فيها، أو لا معنى لها!؟ فما هو المراد بالدم السامي؟ وممّ يتركب هذا الدم؟ وكيف يمكن إقامة الصلة بين الدم والثقافة!؟ إن تفكيك بُنى السرد التوراتي هذه، سوف يؤدي بنا إلى إعادة الاعتبار لتاريخنا القديم.

إننا للأسف الشديد لم ندرك إلى الآن أهمية دراسة تاريخنا بشكل علمي وواضح، بعيداً عن الأفكار التوراتية المسبقة، لقد أصبحت الكتب المدرسية والجامعية في دولنا العربية مثالاً واضحاً للتخلف والجهل والغباء، حين تتحدث عن شعوب الشرق الأدنى القديم، عبر تسميات (الساميون)!! ولكن، على أية أسس منهجية!؟ أو بأي إثباتات وثائقية!؟ والكثير من هذه الكتب تذهب إلى إدانة الحضارات القديمة باعتبارها وثنية جبّها الإسلام.

أما الكتب العربية المؤلفة خارج إطار الكتب التعليمية فهي تنحو نحواً يتقيد بخطاب الدراسات التوراتية، ولا تفعل أكثر من أن تنقل نقلاً مباشراً تلك الروايات التوراتية لتصوغها كما يصوغ التلميذ آراء معلمه.

وفي ذلك يقول العلاّمة "بيير روسي" في سفره الرائع «مدينة إيزيس: التاريخ الحقيقي للعرب» ما يلي: فبأية غفلة لا تغتفر تقدمت مدرستنا العلمية في ميدان ليس فيه شيء من الثبات والصحة. ذلك أنه لا يكفي الإنسان أن يتكلم، بل عليه أن يتكلم ما هو صحيح. فمن فرط تعلقنا بأن نكون خالقي كلمات، أصبح بعضنا خالقي كلمات. وإنه لمن المؤكد أن جميع العلماء لم يرددوا تلك الكلمات معاً، وأنه كانت هنا وهناك أصوات معارضة، نشاز، وأن هناك نقاداً وقفوا ضد هذه الادعاءات الشاذة للنظريات المعترف بها، ولكنه من المتعارف عليه أن الجامعة جسم يحمي أعضاءه المؤمنين به من جهة، ويقسو على معارضيه من جهة ثانية. لذلك سكت النقاد عندما لم يسكتهم معارضوهم قسراً. إن كثيراً من المعلمين والمفسرين، قد فضلوا، وهم الخائفون من مضايقة الأساتذة الذين

تتلمذوا عليهم، أن يأخذوا دورهم، دائنين بذلك أنفسهم، وموزعين نعيم تعليم لم يكونوا مؤمنين به أبداً، ومخلدين وهماً لم يكن من خلقهم، ثم منقلبين بعد ذلك بالإجمال، ومخطئين على الرغم منهم. وليس أقل من ذلك صحة كون العرب أنفسهم، وهم المعتقدون بنجاحهم العالمي في الأخذ بيد الغرب، قد وافقوا على التعريف بأنفسهم من قبل مراقبين أجانب، لقد صدقوا بسهولة وعن طواعية، الأحكام الجسورة المتهورة لمستشرقينا..... إن الضلالات التي يقودنا إليها السكوت أخطر من تلك التي يقودنا إليها الجهل[1].

كل ما يمكن قوله، في النهاية، أنه لو اجتهد مفكرونا ومؤرخونا في معالجة هذا الموضوع، بعيداً عن خطاب الدراسات التوراتية، والتزموا المنهج العلمي وكل ما يفرضه العقل والمنطق، لوجدوا أن الأدلة العلمية والتاريخية تشير إلى أنه لا وجود لرجل يسمى سام. وما من باحث جاد في هذا المجال وصادق، إلاّ ويدرك هذا الأمر.

وكتابنا هذا قد يثير حنق بعض الأكاديميين من أصحاب وحراس الفكر الآسن العربي، وهذا يعود إلى أن أكاديميينا ومثقفينا وفقهائنا يستسيغون ويستمرئون عبوديتهم لأساتذتهم في الغرب.ولكن متى كانت إعادة صياغة تاريخنا، وتحريره من قبضة الدراسات التوراتية، وقفاً على الأكاديميين وحدهم!؟

أحمد الدبش

القاهرة في 1/ 4/ 2006

(1) مدينة إيزيس ـ التاريخ الحقيقي للعرب، مصدر سبق ذكره، ص (20-21).

الفصل الأول

قضية نوح

يظهر نوح، في سفر التكوين، أكثر ما يكون بطلاً لقصة الطوفان، **ولكن من هو نوح الذي يقرنه الكثيرون بالطوفان!؟** هناك حقيقة مهمة هي أنه ليس لدينا حالياً أية وثائق تاريخية عن نوح معاصرة له يمكن أن ترسم له شخصية تاريخية.

يتحدث سفر التكوين (5: 1–31)، بأن نوح من سلالة آدم، ويشكل في شجرة الخليقة الجيل التاسع من نسل آدم. "هذا كتاب مواليد آدم، يوم خلق الله الإنسان. على شبه الله عمله. ذكراً وأنثى خلقه، وباركه ودعا اسمه آدم يوم خلق. وعاش آدم مئة وثلاثين سنة، وولد ولداً على شبهة كصورته ودعا اسمه شيثاً. وكانت أيام آدم بعد ما ولد شيثاً ثماني مئة سنة، وولد بنين وبناتٍ. فكانت كل أيام آدم التي عاشها تسع مئة وثلاثين سنة، ومات. وعاش شيث مئة وخمس سنين، وولد أنوش. وعاش شيث بعد ما ولد أنوش ثماني مئة وسبع سنين، وولد بنين وبناتٍ. فكانت كل أيام شيث تسع مئة واثنتي عشرة سنة، ومات. وعاش أنوش تسعين سنة، وولد قينان. وعاش أنوش بعد ما ولد قينان ثماني مئة وخمس عشرة سنة، وولد بنين وبناتٍ. فكانت كل أيام أنوش تسع مئة وخمس سنين، ومات. وعاش قينان سبعين سنة، وولد مهللئيل. وعاش قينان بعد ما ولد مهللئيل ثماني مئة وأربعين سنة، وولد بنين وبناتٍ. فكانت كل أيام قينان تسع مئة وعشر سنين، ومات. وعاش مهللئيل خمساً وستين سنة، وولد يارد. وعاش مهللئيل بعد ما ولد يارد ثماني مئة وثلاثين سنة، وولد بنين وبناتٍ. فكانت كل

أيام مهللئيل ثماني مئة وخمساً وتسعين سنة، ومات. وعاش يارد مئة واثنتين وستين سنة، وولد أخنوخ. وعاش يارد بعد ما ولد أخنوخ ثماني مئة وسنة، وولد بنين وبناتٍ. فكانت كل أيام يارد تسع مئة واثنتين وستين سنة، ومات. وعاش أخنوخ خمساً وستين سنة، وولد متوشالح. وسار أخنوخ مع الله بعد ما ولد متوشالح ثلاث مئة سنة، وولد بنين وبناتٍ. فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مئة وخمساً وستين سنة. وسار أخنوخ مع الله، ولم يوجد لأن الله أخذه. وعاش متوشالح مئة وسبعاً وثمانين سنة، وولد لامك. وعاش متوشالح بعد ما ولد لامك سبع مئة واثنتين وثمانين سنة، وولد بنين وبناتٍ. فكانت كل أيام متوشالح تسع مئة وتسعاً وستين سنة، ومات. وعاش لامك مئة واثنتين وثمانين سنة، وولد ابناً. ودعا اسمه نوحاً، قائلاً: هذا يُعزينا عن عملنا وتعب أيدينا من قبل الأرض التي لعنها الرب. وعاش لامك بعد ما ولد نوحاً خمس مئة وخمساً وتسعين سنة، وولد بنين وبناتٍ. فكانت كل أيام لامك سبع مئة وسبعاً وسبعين سنة، ومات".

وقد فسر عالم الآثار "إدوار كيرا" هذه الظاهرة بقوله: "إن مؤرخي اليهود حاولوا ملء الفراغ الواقع بين ما اعتقدوا أنه التاريخ الصحيح لخلق العالم، والفترات التاريخية التي اعتمدوا في تعيينها على ما عندهم من تدوينات موثوق بها بعض الثقة، فوجدوا عندهم عدداً محدوداً من الأسماء ليستعينوا بها في ملء هذا الفراغ، وبدلاً من أن يبتكروا أسماءً جديدة، مددوا في حياة الأشخاص الذين عندهم ليسدوا هذا الفراغ في السنين"[1].

ولتفسير ذلك ينبغي لنا الرجوع إلى المصادر السومرية المبكرة التي عرفها محررو أساطير ما يُزعم بالكتاب المقدس. وهي تقدم بعض الملامح لقائمة الملوك كما نعرفها اليوم، فقد ابتدع السومريون الأوائل طريقة في تدوين مدد حكم ملوكهم.فقائمة الملوك تعرض لنا أسماء ثمانية من الحكام شبة الأسطوريين قبل

---

(1) (كيرا) ادوارد، كتبوا على الطين: رقم الطين البابلية تتحدث اليوم، ترجمة:د. محمود حسين الأمين، مكتبة المتنبي، بغداد، 1964، ص (120-121).

الطوفان وأسماء المدن التي ارتبطت أسماؤهم بها: "لقد هبطت لأول مرة الملوكية من السماء وحلت في مدينة أريدو وأصبح "آ ـ لو ـ ليم" ملكاً وحكم 28800 سنة، وجاء من بعده "آ ـ لال ـ كار" وحكم 36000 سنة، ثم جاء من بعده ملكان وحكما لمدة 64800 سنة. ثم انتقلت الملوكية إلى مدينة بادتيبرا فحكم فيها "أين ـ مين ـ كال ـ أنا" مدة 28800، وتلاه الراعي دموزي وحكم 36000 سنة، وبعد دموزي حكم ثلاثة ملوك لمدة 108000 سنة، وبعد ذلك انتقلت الملوكية إلى مدينة لاراك فحكم فيها "أين ـ مين ـ دور ـ أنا" لمدة 21000 سنة، وجاء من بعده ملك أخر وحكم لمدة 21000 سنة، وبعد ذلك انتقلت الملوكية إلى مدينة نفر وحكم فيها "أوبار ـ توتو" لمدة 18600 سنة، وحكم من بعده ملك أخر لمدة 18600 سنة، وبعد ذلك حل الطوفان ومن بعد الطوفان نزلت الملوكية مجدداً من السماء وحلت في مدينة كيش[1].

وفي تعليقه على قائمة الملوك السومرية يشير "د. توفيق سليمان" إلى أن إنسان العصور القديمة قد بالغ في تحديد أعمار ملوكه الأوائل أو في تثبيت عدد سنوات حكمهم. ولدينا أمثلة على ذلك في بعض النصوص القديمة التي تعود إلى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، وخاصة في النص المنقوش على رقيم طيني من العصر البابلي القديم يحمل الرقم WB444 في متحف الاشموليان في أكسفورد.

لقد وضع كاتب (أو كتاب) الرقيم قائمة بأسماء الملوك الذين اعتقد أنهم حكموا بلاد ما بين النهرين منذ أن هبطت الملكية من السماء في مدينة أريدو في جنوب بلاد ما بين النهرين ـ على حد زعمه ـ وحدد فيها عدد سنوات حكمهم بأرقام خيالية. ثم أنقص هذه الأرقام باضطراد كلما جعل عهود أصحاب الملوك تقترب من المراحل التاريخية، إلى أن بدأت تدخل إطار المعقول مع بداية الكتابة والتدوين. وأخيراً ثبتها خلال العصور القريبة من عصره في أرقام عادية لحكام معروفين لدينا مع مدد حكمهم من مصادر تاريخية موثقة.

---

(1) (رشيد) د. فوزي، الفكر عبر التاريخ، ط1، الأهالي سينا النشر، القاهرة، 1995، ص (146-147).

لقد دون الكاتب أرقاماً لسني حكم الملوك الأوائل في العمـود الأول مـن نص الرقيم تراوحت بين 43200 و 960 عاماً. وفي العمود الثـاني حـدد سـني حكم معظمهم ما بين 960 و140 عاماً، لأنـه اعتقـد أن ملوكـه قـد عاشـوا في حقبة لاحقة لحقبة الملوك في العمود الأول، ولم يجعـل إلا الـبعض القليـل مـنهم يحكم مدة تزيد على 1650 عاماً.

وأما في العمود الثالث فصارت مدد العهود عادية باستثناء عدد قليل منها تتراوح بين 200 و100 عام، ولا يوجد بين الحكـام إلا واحـد ذكـر أنـه حكـم 1200 عاماً.

وبخصوص بقية الأعمدة من الرابع وحتى الثامن فلم نعثر إلا قليلاً عـلى أرقام تفوق المعقول مثل الرقم 400، لأن الكاتب جعل معظم ملوكـه يحكمـون مدد تراوحت أطوالها بين العام الواحد والسبعين[1].

وفي تعليقه على العلاقة بين قوائم الملوك السومريين وقائمة النـسب في سـفر التكـوين (5: 1-30). يـذهب "صـموئيل هنـري هـووك" في كتابـه «منعطف المخيلة البشرية» إلى أن "أولاً، لدينا في كل حالة قائمـة مـن عـشرة أسماء قبل الطوفان؛ ثانياً، هناك إطالة غير عادية للحياة المنسوبة إلى الأفراد في كل قائمة؛ ثالثاً، الشخص السابع يعدّ ملكاً لحكمه خاصة في المسائل المتصلة بالآلهة، ولأنه أول من يمارس الألوهية مـن أبنـاء البـشر. الإلـه الـسابع هـو أنوش ويوصف (بأنه سار مع الله) وقيل في عرف يهودي لاحق بأنه صعد إلى السماء من غير موت.

ويصعب على المرء تفادي القول بـأن الكاتـب الكـاهن قـدم عرضـه للطوفـان بقائمة من عشرة أحبار بأعمار غير عادية، لأن هذا العنصر من الميثولوجيا البابليـة كـان ذائباً في أعراف شعبه لحظة قيامه بالكتابة.

---

(1) (سليمان) د. توفيـق، نقـد النظريـة الـسامية، الجـزء الأول، أسـطورة النظريـة الـسامية ولادتهـا وتطويرها - حقيقتها في التوراة - أسباب وضعها، ط1، دار دمـشق للطباعـة والنـشر، دمـشق، 1982، ص (120-121).

ولقد ساد حدس بأن أعداداً كبيرة من قوائم الملـوك الـسومريين كانـت نتاجـاً لتأملات فلكية، وهي سمة غائبة كلياً عـن الفكـر العـبري ـ حتـى نـصل إلى الأدب القيامي المتأخر. لكن السبب المحتمل لإدخال مثل هذه الأعداد في النسب الكهنـوتي هو أن تتوافق مع التسلسل التاريخي الكهنوتي الذي حاز عدداً من السنوات بدءاً مـن الخلق حتى تأسيس هيكل سليمان، وقسم هذه الفترة إلى أحقـاب ضـمّ أولهـا 1656 سنة من الخلق وحتى الطوفان[1].

ويبدو أن كتّاب "سفر التكوين" قد أطلقوا العنان لخيالهم في مسألة تحديد أعمار أبطال رواياتهم، فنسوا ما يمكن أن ينتج عـن ذلـك مـن فجـوات في تربـة شجرة الأصل، فجوات تعرى جذورها وتسبب لجذوعها الضمور ولأغـصانها الجفاف ولأوراقها السقوط، حتى تيبس وتعـود بالتـالي كـما كانـت أسـطورة لا أساس لها من الصحة[2].

ويذكر "الطبري" في تفسيره «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» "بين آدم ونوح وهم عشرة قرون كلهم كانوا على شريعة من الحـق فـاختلفوا بعـد ذلـك. ذكر من قال ذلك حدثنا محمد بن بشار قال ثنا أبو داود قال ثنا همام بن منبه عـن عكرمة عن ابن عباس قال كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة مـن الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين"[3].

ونتساءل هاهنا: هل السنوات المـذكورة في سـفر التكـوين (5: 1-31)، هي أعمار أفراد وأشخاص؟ أم أنها إن صحت أعمار قبائل وعشائر!؟

لا شك أن أسلاف نوح التسعة الذين تسمّيهم التوراة، وتبالغ في أعمارهم مبالغتها في عمره، كانوا هم بدورهم قبائل، لا أشخاصاً أفراداً. لـذلك نجـد أن

(1) (هـووك) صـموئيل هنـري، منعطـف المخيلـة البـشرية: بحـث في الأسـاطير، ترجمـة: صـبحي الحديدي، ط3، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 2004، ص (154-155).

(2) نقد النظرية السامية، الجزء الأول، أسطورة النظريـة الـسامية ولادتهـا وتطويرهـا - حقيقتهـا في التوراة - أسباب وضعها، مصدر سبق ذكره، ص 121.

(3) (الطبري) محمد بن جرير أبو جعفر، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الجزء الثاني، دار الفكـر، بيروت، 1405 هـ، ص 334.

أعمارهم تتعدى مئات الأعوام، وهو عمر بقاء العشيرة قبل تحللهـا. ويمكننـا أن نحدد أن أسماء هذه العشائر التي مازالت لها بقية في اليمن:

آدم: (ءدم) فهي ترمز بلا شك إلى منطقـة يمنيـة، فــ(أَدِم): بفـتح الهمـزة وكسر الدال. جبل من يَحْصُب العِلْو في جنوب يَرِيم. قال القاضي محمد بن عـلي الأكوع: هو الجبل الناتئ المُطِلّ على قرية سمارة. و(أَدِم): قرية في جبـل الـسُوْدَان من مركز حَلْيَان وأعمال مديرية مُذَيْخِره. و(آدِم): ـ بالمد ـ مـن قُـرَى البَرَوِيَّـه في بني مَطَر، غربي صَنْعَاء.و(آدم): قرية في صحراء الرَيَّان، بالشرق من وادي خَـبّ وأعمال محافظة الجَوْف[1].

شيث: (ثات) فهي بطن من حُجْر رُعَيْن الحميريَّة، يُنْـسبون إلى القيـل ذي ثاث بن عُرَيْب بن أَيْمَن بن الحـارث بـن زيـد بـن يَـرِيْم ذي رُعَـيْن. منـازلهم في الوادي الذي يحمل اسمهم (وادي ثات) الواقع بالغرب الشمالي من مدينـة رَدَاع بمسافة نحو 6 أكيال[2].

أنوش:أي النواش: حصن في قفلة عذر من بلاد حاشد، والنواش: حـصن في عزلة التُوَيتي من مخلاف الشعر وأعمال النادرة[3].

قينان: فأعتقد أنها تشير إلى موقعين أولهما (قين) فَعْل بفتح الفـاء وسـكون العين، القَيْنُ الحداد وجمعه قُيُون.

قال أسعد تبع:

بكـــل حـــسام أحكـــم القَـــيْن صَـــقْلَه

وســـهمٍ مَـــرِيْشٍ يَفْتُـــقُ الـــدّرْعَ دَاخِـــلاَ

---

(1) (المقحفي) إبراهيم أحمد، معجم البلـدان والقبائـل اليمنيـة، الجـزء الأول، دار الكلمـة للطباعـة والنشر والتوزيع ـ صنعاء والمؤسسة الجامعية للدراسات للطباعة والنـشر والتوزيـع ـ بـيروت، 2002، ص 47.

(2) المصدر نفسه، ص 250.

(3) (الحجري اليماني) محمد بن أحمد، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، المجلد الثاني، الجزء الرابـع، ط3، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 2004، ص 744.

ويقال أيضاً لكل صانع قَيْن، والقين حي من قُضاعة قال جميل:

وَجَمْــع مِـــنَ القَـــيْنِ بـــن جَـــسْرٍ كأنـــه

جَــرَاد يُبــارى وجْهَـــةَ الـــرَّيْح مُـــسْنِف[1]

أو الأرجح (قَيْنَان) قرية في أسفل نقيل صيد المعروف اليـوم باسـم نقيـل سُمَارة؛ سميت نسبة إلى ذو قينان بن إل شرح بن يَحْصب. وتُعْـرف اليـوم باسـم المنارة كما تقع بالقرب من رَفُود في بلاد المَخَادِر[2].

مهللئيل: لابد أن مهللئيل (مهلل ءل، أي مهلّل الله) هو الـشكل الأصـلي لاسم مُهَلْهِل، وهو اسم مازال يطلق على عدة قري يمنية. فـ(مُهَلْهِـل): حـصن مشهور يُطِلّ على مدينة خَمِر في حَاشِـد. وبنـو مُهَلْهِـل: مـن قُـرى بنـي الحـسام، مديرية شَرْعَب الرَّوْنَه وأعمال محافظة تَعِز. وبنو مُهَلْهِل: مركز إداري من مديرية الحيمة الداخليـة، محافظـة صـنعاء. وهـو في جبـل شـاهق أعـلاه قلعـة خاربـة، والصعود إليه صَعْب المُرْتَقي ولا يخلو من آثار[3].

يارد: فلابد أن يارد هـي ورد، ومـازال هـذا الاسـم موجـوداً في الـيمن، فـ(بنو الوَرْد): قبيل معروف من آل ذِي أَقْيَان بن سبأ. مـنهم بيـوت في ثـلا، وفي المَحْويت، وفي الحَيمة الخارجيه، وفي أرْحَب، وغيرها[4].

أخنوخ: فما هو إلا (حنوك)، حناك، الحَنَاك: قرية في منطقة بني دَعْقَين من مديرية وَضْرَه، وأعمال محافظة حَجَّه. والحَنَاك ـ أيضاً ـ موضع جـوار قريـة "دار الحَنَش" من قُرى "جبل الدار" في عَنْس[5].

---

(1) (الحميري) نشوان بن سعيد، منتخبات في أخبار اليمن مـن كتـاب شـمس العلـوم ودواء كـلام العرب من الكلام، ط2، مصورة، دار الفكر، دمشق، 1981، ص 89.

(2) (المقحفي) إبراهيم أحمد، معجـم البلـدان والقبائـل اليمنيـة،الجزء الثـاني، دار الكلمـة للطباعـة والنشر والتوزيع ـ صنعاء والمؤسسة الجامعية للدراسات للطباعة والنـشر والتوزيـع ـ بـيروت، 2002، ص 1312.

(3)معجم البلدان والقبائل اليمنية،الجزء الثاني، مصدر سبق ذكره، ص 1677.

(4)المصدر نفسه، ص 1862.

(5) معجم البلدان والقبائل اليمنية،الجزء الأول، مصدر سبق ذكره، ص 518.

متوشالح: هي المَشَالِحِة، قبيلة ومركز إداري من مديرية المَخَا وأعمال محافظة تَعِز. من محلاته: الحَدَبه، الزُقَيريِّه، جَاعِمه، جبل عكي[1].

لامك: فما هي إلا مالك بالإبدال، فـ(بنو مالك): بطن من سحار بن خولان بن عمرو بن الحاف في بلاد صعدة.وبنو مالك أيضاً: تسيع من بني صريم في بلاد حاشد. وبنو مالك: ثمين من ناحية بني حشيش[2].

ولكن نطرح التساؤل التالي: **هل ذكر القرآن الكريم هذه الأنساب!؟ وهل ذكر اسم والدي نوح!؟** بالطبع لا. فقد أشار القرآن الكريم إشارة واحدة إلى والدي نوح، بقوله تعالى: ﴿ **رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨** ﴾[سورة نوح: 28].

بعد هذا العرض الموجز للأسماء التسعة التي سلفت نوح، والتي تبين لنا أنها أسماء عشائر مازالت لها بقية في اليمن، هنا نأتي لمسألة نوح، إذ يشير القرآن الكريم إلى المدة التي قضاها نوح يدعو قومه لعبادة الله الواحد الأحد، بقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤** ﴾[سورة العنكبوت: 14].

وقد عقب "سيد قطب" على ذلك في كتابه (في ظلال القرآن) الجزء الخامس، بقوله: "وهو عمر طويل مديد، يبدو لنا الآن غير طبيعي ولا مألوف في أعمار الأفراد ولكننا نتلقاه من أصدق مصدر في هذا الوجود ـ وهذا وحده برهان صدقه ـ فإذا أردنا تفسيراً فإننا نستطيع أن نقول: إن عدد البشرية يومذاك كان قليلاً ومحدوداً، فليس ببعيد أن يعوض الله هذه الأجيال عن كثرة العدد طول العمر. لعمارة الأرض وامتداد الحياة. حتى إذا تكاثر الناس وعمرت الأرض لم يعد هناك داع لطول الأعمار. وهذه الظاهرة ملحوظة في أعمار كثير من الأحياء. فكلما قل العدد وقل النسل طالت الأعمار كما في النسور وبعض الزواحف كالسلحفاة حتى ليبلغ عمر

---

(1) المصدر نفسه، ص 1532.

(2)مجموع بلدان اليمن وقبائلها، المجلد الثاني، الجزء الرابع، مصدر سبق ذكره، ص687.

بعضها مئات الأعوام. بينما الذباب الذي يتوالد بالملايين لا تعيش الواحدة أكثر من أسبوعين"[1].

ولكن هذه الآية سلطت الضوء على قضية غريبة وهي طول المدة التي مكثها نوح يدعو قومه لعبادة الله. فمن الجدير ذكره، أن البحوث العلمية التي قام بها العلماء، قد أشارت إلى استحالة وصول أعمار البشر إلى هذا العدد من الأعوام.

هنا نطرح فرضية قد تكون جديرة بالدراسة: لماذا لا يكون عمر نوح المذكور قرآنياً. هو عمر قبيلته المشخصة بجدّ أعلى أو ببطل أطلق عليه اسمها. وأن المدة المذكورة قرآنياً هي مدة استمرار القبيلة في الوجود، وليس مدّة حياة جدّها؟

ونظراً إلى كون الأسماء التسعة التي سلفت نوح، والتي تبين لنا أنها أسماء عشائر مازالت لها بقية في اليمن. كما سبق وأن ذكرنا، فلابد من أن قبيلة نوح كانت بدورها، في الأصل، من قبائل اليمن.

نتساءل هاهنا: هل وجد اسم نوح في اليمن!؟ الإجابة نعم. فـ(نُوَّح): تعد من كبريات قبائل البادية في حضرموت، ويتصل نسبها بِحِمْيَر، وهي تتفرّع إلى أفخاذ[2].

---

(1) (قطب) سيد، في ظلال القرآن، الجزء الخامس، دار الشرق، بيروت، 1985، ص 2727.

(2) (البكرى) صلاح، تاريخ حضرموت السياسي، الجزء الثاني، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2001، ص 105.

الفصل الثاني

الطوفان في المدونات العراقية القديمة

بعد فترة، ليست بالطويلة، من خلق العالم وظهور الحياة. تكشف الآلهة أن الإنسان لم يحقق تماماً الغاية التي من أجلها قد خلق. وأنه قد عاث في الأرض التي استخلف فيها فساداً وسفك الدماء. فتقرر إفناء الحياة على الأرض، وغسلها بطوفان شامل، تبدأ بعده تاريخاً جديداً. ولكن الإنسان خلال عهده القصير على الأرض، قد حقق بعض غاياته، وترك منجزات حضارية وثقافية لا يستهان بها. ولذا لابد من الحفاظ على ذلك الجزء الصالح ونقله للعالم الجديد ليكون أساس البناء الثاني. ولن يتسنى ذلك إلا بإنقاذ مجموعة صغيرة من البشر، تحمل معها منجزات العمل الإنساني لتبدأ منها عهداً ثانياً، على أرض تطهرت من فساد الأجيال السالفة. ويقود ملحمة النجاة هذه، رجل حكيم صالح تختاره الآلهة لهذه المهمة الفريدة، وتوكل إليه مهمة بناء سفينة هائلة، يحمل فيها أهله والمقربين إليه من الصالحين ومن كل زوجين من الحيوانات اثنين. فيقلع بها عند اندياح الطوفان، وقد حمل فيها من المؤن ما يكفي. وعند جفاف المياه يطلق حيواناته للجهات فتملأ الأرض مرة ثانية، ويؤسس بمن تبقي من البشر مدينة جديدة [1].

وقد أكد "أليكساندر كوندراتوف" الذي ناقش موضوع الطوفان ـ أن قصص الطوفان ليست مقصورة على شعب من الشعوب، فهي متداولة بين

---

(1) (السواح) فراس، مغامرة العقل الأولى: دراسة في الأسطورة سورية وبلاد الرافدين، ط11، دار علاء الدين، دمشق، 1996، ص 153.

سكان الجزر الشرقية في أوقيانوسيا (المحيط الهادي) واليابانيين، والصينيين والبورميين والهنود الحمر فضلاً عن شعوب البحر المتوسط. وهناك طوفانات موضعية تحصل لسبب أو آخر نتيجة ذوبان مفاجئ وسريع للثلوج أو أعاصير مصحوبة بالمطر أو اجتياح موجي ناجم عن اضطرابات أو اهتزازات في قاع البحر أو زلازل الأرض والبحر أو انفجارات بركانية. وفي حدود عمر الإنسان المتحضر لم تحصل كارثة ذات بعد مدمر على صعيد كوني، فلماذا يقول كوندراتوف تتواتر حكايات الشعوب عن كوارث فيضانية مدمرة على صعيد كوني كما تزعم؟ ويمكن الإجابة عن ذلك على ضوء الحقيقة الآتية: إن أفق العالم المحيط بأي شعب من الشعوب القديمة محدود بالرقعة التي يوجد فيها أو أوسع منها إلى هذا الحد أو ذاك فبالقياس إلى ساكن الجزيرة فإن العالم يقتصر على جزيرته فقط أو مجموعة من الجزر المحيطة به وبالنسبة لسكان وادٍ من الوديان لا يتجاوز العالم حدود الجبال المحيطة به، وهكذا فإن حدوث كارثة موضعية سيترك انطباعاً عندما تطالهم الكارثة. بأن أركان العالم تتهاوى على أبنائه لأنهم لا يعرفون شيئاً عن الأصقاع الأخرى[1].

على الرغم من ذيوع أسطورة الطوفان في العالم كله، إلا أن الحفائر الآثارية لم تستخرج وثائق تتعلق بالطوفان في منطقة الشرق الأدنى القديم، سوى في بلاد النهرين التي تقدم عدداً من النماذج المتعلقة بهذه الأسطورة.

إن الكلمتين: السومرية (uru - ma - ura)، والبابلية (abubu) تعنيان "الطوفان" أي ارتفاع وطغيان المياه، وهو حادث تصوره الأقدمون أنه وقع في عصر موغل في القدم وكان كونياً (Cosmic) أي لم يقتصر على وادي الرافدين فقط وإنما شمل العالم القديم. وبمرور الزمن توسع المدلول اللفظي لكلمة (a - ma - ura) ومرادفتها (abubu) واشتق منها معاني جانبية لها علاقة

---

(1) (الشوك) علي، الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة، دار لام، لندن، 1987، ص (109-110).

بشكل أو بآخر بإحدى صفات الطوفان. وقد أصبح الطوفان لهوله وسعة رقعته وشدته شبحاً مخيفاً في ذاكرة البشرية على مر العصور. ولذلك صارت كلمة (abubu) في الأكدية مرادفة لمعنى الدمار والبأس والضراوة. وبالمثل ولأن الطوفان كان في معتقدات الأقدمين حادثة بعيدة في زمن وقوعها، فإن الكلمة صارت عند البابليين نقطة لتاريخ الحوادث القديمة. فنحن نقرأ مثلاً عن البطل كلكامش (في حدود 2700 ق.م) إنه "جاء بأخبار تعود إلى ما قبل الطوفان"، وعن آشور بانيبال (668-631 ق.م) قوله: "وأمعنت النظر في كتابته على حجر تعود إلى ما قبل الطوفان".

وأخيراً لهول الطوفان وما سببه من دمار للبشرية صارت كلمة (abubu) تدل على "شيطان" أو "عفريت" أسطوري أسبغ عليه الأقدمون صفات وخصائص جسدية مخيفة[1].

وتعتبر قائمة الملوك السومرية من الوثائق التاريخية الشهيرة التي أوردت ذكر الطوفان. وهي تقدم بعض الملامح لقائمة الملوك كما نعرفها اليوم، وهي تعرض لنا أسماء ثمانية من الحكام شبة الأسطوريين قبل الطوفان وأسماء المدن التي ارتبطت أسماؤهم بها: "لقد هبطت لأول مرة الملوكية من السماء وحلت في مدينة أريدو وأصبح "آ ـ لو ـ ليم" ملكاً وحكم 28800 سنة، وجاء من بعده "آ ـ لال ـ كار" وحكم 36000 سنة، ثم جاء من بعده ملكان وحكما لمدة 64800 سنة. ثم انتقلت الملوكية إلى مدينة بادتيبرا فحكم فيها "أين ـ مين ـ كال ـ أنا" مدة 28800، وتلاه الراعي دموزى وحكم 36000 سنة، وبعد دموزى حكم ثلاثة ملوك لمدة 108000 سنة، وبعد ذلك انتقلت الملوكية إلى مدينة لاراك فحكم فيها "أين ـ مين ـ دور ـ أنا" لمدة 21000 سنة، وجاء من بعده ملك أخر وحكم لمدة 21000 سنة، وبعد ذلك انتقلت الملوكية إلى مدينة نفر وحكم فيها "أوبار ـ توتو" لمدة 18600 سنة، وحكم من بعده ملك أخر لمدة 18600 سنة،

---

(1) (علي) د. فاضل عبد الواحد، الطوفان في المراجع السماوية، ط1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، 1999، ص 17.

وبعد ذلك حل الطوفان ومن بعد الطوفان نزلت الملوكية مجدداً من السماء وحلت في مدينة كيش[1].

ويتضح من هذا كله أن الطوفان كان من الحوادث التي أعارها المؤرخون الأقدمون في بلادنا العراق أهمية بارزة بحيث أنهم صنفوا سلالتهم إلى سلالات حكمت قبل الطوفان، وسلالات حكمت بعده[2].

لقد عرفت ثلاث ملاحم أو قصص عن الطوفان في العراق لحد الآن، الأولى مدونة باللغة السومرية أما الاثنتين الأخريين فإنهما مدونتان بالبابلية والقصص الثلاث تتشابه في خطوطها العامة، وفي كثير من تفاصيلها.

الطوفان السومري

أول تلك الروايات نسخة مُدَوَّنة بالسومرية، والبطل فيها يسمي "زيوسدرا" (Ziusudra)، وهي الشخصية المرادفة مع الفارق لنوح في الكتب المقدسة.

ومما يؤسف له أنه لم يصل إلينا من قصة الطوفان السومرية غير لوح واحد كان قد اكتشف في مدينة نفر. ولم يبق إلا الثلث الأخير منه فقط، وعلى الرغم من أن هذا اللوح دون في الجزء الأخير من العصر البابلي القديم [في حدود 1600 ق.م]. إلا أننا لا نشك في أنه يمثل نسخة من تأليف سومري يعود إلى زمن أقدم من هذا التاريخ بقرون عديدة، خاصة أن الإشارة إلى الطوفان قد وردت فعلاً في نصوص أدبية ـ دينية تتعلق بالملك "اشمي ـ دكان" (1953 – 1935 ق.م) من سلالة أيسن. ويأتي في السطر الخامس والأربعين بعد المائة من النص ذكر "زيوسدرا" (Ziusudra) "ذو الحياة الطويلة" بطل قصة الطوفان السومرية[3] غير أن "هـ. و. هيلبرخت" يرى

(1) (رشيد) د. فوزي، الفكر عبر التاريخ، ط1، الأهالي سينا النشر، القاهرة، 1995، ص (146–147).
(2) الطوفان في المراجع السماوية، مصدر سبق ذكره، ص 19.
(3) (علي) د. فاضل عبد الواحد، سومر أسطورة وملحمة، ط1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1999، ص (164–165).

أن هذه الرواية دونت في تاريخ لا يتعدى عام 2100 ق. م، مرتكزاً في ذلك على أسلوب كتابة الرواية، وعلى المكان الذي عثر عليها فيه[1].

تخلف من قصة الطوفان السومرية أقلها ويصور هذا القليل زمناً بعيداً خلق فيه آن وإنليل وإنكي ونينهورساج البشر " أصحاب الرؤوس السود"، والنباتات والحيوانات، وتكاثر الخلق والكائنات ونزلت الملكية من السماء إلى الأرض حيث بدأ العمران في خمس مدن أشرف الإله آن (أو إنليل) على إنشائها في مواضع طاهرة وسماها بأسمائها، وهي: إريدو وبادتبرا ولارك وسيبار وشوروباك، وخصصها لعبادة خمسة من الأرباب أو الربات.

يتشوه النص ويغيب معناه. وعندما يبدأ اللوح، نجد الآلهة وقد قررت إفناء البشر بواسطة طوفان يغمر الأرض [أنني على قناعة أن المقصود بالأرض هنا -حسب النص السومري- سومر] إلا أن بعض الآلهة تظهر عدم رضاءها عن ذلك القرار. فدب الذعر في قلوبهم لاسيما ننتور وإنانا، وقلوب الملوك المقدسين، وكان أشدهم اهتماماً به المعبود إنكي الحكيم رب مياه الأعماق، وملك صالح يدعي "زيوسدرا". وأراد إنكي أن يخبر "زيوسدرا" باليوم الموعود بطريق غير مباشر، فأوحى إليه بأن يقف بجوار جدار مقدس وأن يستمع منه إلى صوته، وأتاه الصوت قائلاً: "سوف ألقي إليك كلمتي، فأستمع لأمري. بقضائنا سوف [يكتسح] الفيضان [الطوفان] مراكز العبادة ويقضي على سلالة البشر. ذاك قرار مجلس الأرباب، وقضاء آن وإنليل...[2].

وقد أشار النص إلى استماع "زيوسدرا" إلى تعليمات الآلهة الخاصة بضرورة بنائه لسفينة تنقذ من الهلاك الناتج عن الطوفان. ويقول "كريمر"

---

(1) (فريزر) جيمس، الفولكلور في العهد القديم، الجزء الأول، ترجمة: د. نبيلة إبراهيم، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص (172-173).

(2) (صالح) د. عبد العزيز، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر والعراق، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، بلا تاريخ، ص 439.

(Kramer) أن النص السومري لم يشر بـصورة مبـاشرة إلى وجـود مجموعـة مـن الناس مع "زيوسدرا" في تلك السفينة. ولكن يظهر السطر رقم 211 من النص أنه أخذ معه عدداً من الحيوانات[1].

وفي اليـوم الموعـود هبـت الأعاصـير هبـة عنيفـة، وأطاحـت بالعواصـم ومراكز العبادة وصحبها فيضان كاسح، واستمر ذلك سـبعة أيـام وسـبع ليـال، اكتسح الفيضان [الطوفان] الأرض فيها، ودفع السفينة قدماً:

وفي نفس الوقت اكتسح الطوفان مراكز العبادات
واستمر سبعة أيام وسبع ليال
وانتشر الطوفان في الأرض [وفق قناعاتي سومر]
وقذفت الزوابع السفينة الضخمة وهي على المياه العظيمة
وبزغ أوتو [الإله الشمس] الذي ينشر ضوءه في السماء والأرض
وفتح زيوسدرا نافذة في السفينة الضخمة
وأدخل أوتو أشعته إلى السفينة الضخمة
وألقى زيوسدرا الملك بنفسه [مظهراً للولاء] لأوتو
وقتل الملك ثوراً ونحر شاة [قرباناً منه للآلهة][2]

ويخبرنا الـنص بالإنعـام عـلى بطـل الطوفـان بالحيـاة الـسرمدية في الجنـة المفقودة أرض دلمون:

الملك زيوسدار
سجد أمام آن وإنليل
واصطفى آن وإنليل زيوسدار
ووهباه الحياة مثل إله

---

(1) (الناضوري) د. رشيد، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتـاريخ الحـضاري والـسياسي في جنوب غـربي آسـيا وشـمال أفريقيـا، الكتـاب الأول، مرحلـة التكـوين والتـشكيل الحـضاري والسياسي من العصر الحجري الحديث حتى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، دار مكتبـة الجامعـة العربية، بيروت، 1968، ص 296.

(2) المصدر نفسه، ص 297.

زيوسدار
الملك الذي حافظ على الزرع
والذي صان ذرية البشر [وفق قناعاتي سومر]
وفي أرض العبور في أرض دلمون
الموضوع الذي تشرق منه الشمس
أسكناه هناك[1]

ويتضح هنا أن الإنسان الفاني الوحيد الذي عرف بنجاته من الموت ونـال الخلود، هو "زيوسدرا" بطل الطوفان السومري، والذي وصـف في الأسـطورة بكونه ملكاً صالحاً تقياً يخشى الآلهة، وكان يتلهف شـوقاً إلى الاتـصال بـالوحي الإلهي في الأحلام وفي تلاوة التعاويذ والأدعية[2].

إن الأمر الأكثر إثارة للدهشة أن "زيوسدرا" لم يرد له ذكـر ضـمن قائمـة الملوك بينما ظهر الاسم الأخير قبـل الفيـضان [الطوفـان] وهـو "اوبـار توتـو" (Ubartutu) حاكم شوروباك. وفي نسخة أخرى من قصة الفيـضان [الطوفـان] أعطى البطل اسم "زيوسدرا" (Ziusudra) الذي أثبتت قطعة من النص أنه ابـن اوبارتوتو[3].

ويحتمل من سياق من لوح صغير أن "زيوسدرا" كان قـد تلقـى الحكمـة عن أبيه "شوروباك" أحد ملوك الطوفان، وورد في وصاياه أنـه "شـوروباك بـن دبرتوتو"، وكان من قوله لولده: نصيحة أقدمها لـك فتقبـل نـصيحتي، وكلمـة أقولها لك، فأعرها سمعك، لا تهمل وصيتي ولا تتعد كلمتي. وقوله: لا ينبغـي اقتناء حمار مزعج النهيق، ولا ينبغي زراعة حقل على الطريق[4].

---

(1) (كريمر) صموئيل نوح، من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، مكتبة المثني، بغداد، بلا تاريخ، ص 258.
(2) المصدر نفسه، ص 255.
(3) (لويد) سيتون، آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتى الغزو الفارسي، ترجمة: محمد طلب، ط1، دار دمشق، دمشق، 1993، ص 127.
(4) الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر والعراق، مصدر سبق ذكره، ص440.

الطوفان البابلي

وتنحصر أساطير الطوفان البابلية في ثلاثة مصادر، هي "اللوح الحادي عشر من ملحمة كلكامش"، و"ملحمة أتراخاسيس"، و" قصة الطوفان التي كتبها بيروسيس باللغة اليونانية".

قصة الطوفان في ملحمة كلكامش

إن أشهر القصص والملاحم البابلية التي تذكر الطوفان هي قصة كلكامش. "والتي يصح أن نسميها أوديسة العراق القديم، إذ يضعها الباحثون ومؤرخو الأدب المحدثون بين الشوامخ من الأدب العالمي. ولعلني لا أبالغ إذا قلت إنه لو لم يأتنا من حضارة وادي الرافدين من منجزاتها وعلومها وفنونها شيء سوى هذه الملحمة لكانت تلك الحضارة جديرة بأن تتبوأ مكانة سامية بين الحضارات العالمية القديمة"[1].

هذا النتاج الأدبي الرفيع الذي ضم أسطورة الطوفان، كما سنرى، هو حالة وسيطة بين الأسطورة والمأثرة الشعبية البطولية. كان العمل بالغ الشيوع ويحظى بقبول شعبي واسع وقد انتشر على نطاق عريض في الشرق الأدنى.

لقد عثر على مقاطع من ترجمة حثية في ملفات بوغاز كوى، وعلى طبعة حديثة أيضاً. كما عثر على مقطع من الطبعة الأكادية خلال التنقيب الأمريكي في مجدو.

ويجدر هنا الاستشهاد بكلمات البروفيسور "سبايسر" عن ملحمة كلكامش: "للمرة الأولى في تاريخ العالم تجد تجربة عميقة على هذه الدرجة من البطولة تعبيرها في أسلوب رفيع. إن أفق الملحمة العريض وشمولها وطاقتها الشعرية الآسرة تمحضها جاذبية أدبية. ولا عجب أن تنتشر الملحمة في الأزمنة الغابرة لتشمل مختلف الثقافات واللغات"[2].

---

(1) (باقر) د. طه، ملحمة كلكامش، منشورات وزارة الإعلام، بغداد، 1975، ص20.

(2) (هووك) صموئيل هنري، منعطف المخيلة البشرية بحث في الأساطير، ترجمة: صبحي حديدي، ط3، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 2004، ص 55.

وفي ذلك يقول العالم "كريمر" إن نص الطوفان هو أول ما تم اكتشافه من ملحمة كلكامش في عام 1862 من قبل "جورج سميث" من مكتبه أشور بانيبال، ولم يمض زمن طويل حتى أدرك " سميث" أن أسطورة الطوفان ما هي إلا جزء من قصيدة طويلة بعنوان "مجموعة كلكامش" تتألف من أثني عشر فصلاً، تغطي أسطورة الطوفان معظم اللوح الحادي عشر منها[1].

ورغم أن قصة الطوفان تبدو للوهلة الأولى وقد أقحمت على أحداث الملحمة إلا أنها في الواقع، قد جاءت في انسجام تام مع الإيقاع الماسأوي للملحمة، وأضافت إليها أبعاداً ومعاني خاصة، مؤكدة أن الخلود سراب لم ينله أحد من البشر[2].

ويلتقي رأي "ساندرز" مع رأي "كريمر" في كون قصة الطوفان قصيدة قائمة بذاتها أقحمت في هيكل الملحمة، لكنها، شأنها شأن الأحداث الأخرى ذات المغزى المستفاد ـ تميل إلى أن تقر في نفس كلكامش عدم جدوى بحثه.

أو أن حادثة الطوفان السومرية هي جزء من قصيدة خصصت أصلاً لتخليد "زيوسدرا" وقد استعارها الشعراء البابليون واستعملوها استعمالاً ماهراً لأغراضهم الأدبية، فإنه حين يصل كلكامش إلى "أوتونبشتم" ويسأله عن سر الحياة الأبدية، لم يشأ الشعراء البابليون أن يجيبوه جواباً قصيراً، بل إنهم استغلوا تلك الثغرة في القصة ليدخلوا روايتهم الخاصة بقصة الطوفان.

وترى الباحثة "وداد الجوراني" أنه سواء كانت قصة الطوفان جزءاً لا يتجزأ من ألواح ملحمة كلكامش الاثني عشر، أو أنها أقحمت على هيكلها، فإنها في كل الأحوال جاءت لتبلغ رسالة الآلهة إلى البشر بأن "الحياة الخالدة متعذرة الوصول"، "وإخباره بأن الموت، وليس الخلود، هو النصيب المقدر للإنسان"[3].

---

(1) من ألواح سومر، مصدر سبق ذكره، ص (303-304).

(2) مغامرة العقل الأولي: دراسة في الأسطورة سورية وبلاد الرافدين، مصدر سبق ذكره، ص (161-162).

(3) (الجوراني) وداد، الرحلة إلى الفردوس والجحيم في أساطير العراق القديم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1998، ص 84.

وتدور قصة الطوفان في ملحمة كلكامش في مدينة شروباك التي قامت فيها أخر سلالة حاكمة قبل حدوث الطوفان. وبطل هذه القصة هو "أوتنابشتم" (Utnapishtim) الذي قصده كلكامش ليسأله عن سر خلوده الأبدي[1]. وهذا الاسم البابلي ["أوتنابشتم" (Utnapishtim)] يتكون من الفعل "وجدت" (من الجذر atu وجد) ثم من (napishtim) بمعنى "النفس، الحياة". ولذلك يكون معنى الاسم"لقد وجدت الحياة" كناية بالطبع عن حصوله على الحياة الأبدية. ومن الجدير بالذكر أن الأقدمين أنفسهم طابقوا بين "أوتنابشتم" "لقد وجدت الحياة" في ملحمة كلكامش وبين زيوسدرا "الذي جعل الحياة طويلة" في قصة الطوفان السومرية، فقد وردت الصيغة السومرية(؟) Zi-sud-da مرادفة للصيغة البابلية Ut- napish- te في أحد النصوص المسمارية. وإضافة إلى هذا فقد ورد في الرقيم التاسع من ملحمة كلكامش أن أوتنابشتم كان ابناً لأوبار ـ توتو من سلالة شروباك، وهذا ينطبق على زيوسدرا الذي تجعله إحدى الروايات السومرية خليفة مباشراً لهذا الملك باعتباره ابناً له[2].

وقد روى "أوتنابشتم" من خلال الحوار الذي دار بينه وبين كلكامش أنه كان يعيش في مدينة شروباك، وأن الإله أيا كشف له النقاب عن قرار الآلهة بإحداث الطوفان قائلاً له:

يا كلكامش سأفتح لك عن سر خفي محجوب
سأطلعك على سر من أقدر الآلهة
شروباك، المدينة التي تعرفها أنت
الواقعة على شاطئ نهر الفرات
إن تلك المدينة قد عتقت مكان الآلهة فيها
إن الآلهة العظام قد حملتهم قلوبهم [آنذاك] على إحداث الطوفان
وكان معهم أبوهم "آنو"

---

(1) الطوفان في المراجع السماوية، مصدر سبق ذكره، ص 25.
(2) المصدر نفسه، ص 33.

و"انليل"، البطل، مستشارهم
و"ننورتا"، مساعدهم
و"أنوكي"، حاجبهم والموكل بالري والمياه
وكان حاضراً معهم "نن ـ إيكي ـ كو"، أي "أيا"
فنقل هذا كلامهم إلى كوخ القصب وخاطبه!
يا كوخ! يا كوخ القصب! يا جدار! يا جدار!
اسمع يا كوخ القصب وافهم يا حائط
أيها الرجل (الشروباكي) يا ابن "أوبار ـ توتو"
قوض البيت وابن لك فلكاً [سفينة]
تخل عن مالك وانشد النجاة
انبذ الملك وخلص حياتك
واحمل في السفينة بذرة كل ذي حياة
والسفينة التي ستبنى
عليك أن تضبط مقاسها
ليكن عرضها مساوياً لطولها
واختمها جاعلاً إياها مثل مياه الـ "أبسو" [العمق][1]

وبعد أن انتهى "أوتنابشتم" من بناء سفينته، جاء: إن الإله أيا أمر رجل الطوفان أن يحمل معه في السفينة بذره كل المخلوقات الحية، وفي ذلك يقول "أوتنابشتم" ما نصه:

وحملت فيها كل ما أملك
وكل ما عندي من فضة حملته فيها
وحملت فيها كل ما أملك من ذهب

---

(1) ملحمة كلكامش، مصدر سبق ذكره، ص (150-151).

أركبت في السفينة جميع أهلي وذوي قرباني
وحملت فيها كل ما كان عندي من المخلوقات الحية
أركبت فيها حيوان الحقل وحيوان البر
وجميع الصناع أركبتهم فيها[1]

فقد صور الكاتب البابلي بمنتهى البراعة تفاصيل تلك الكارثة المروعة، قائلاً:

حينما ينزل الموكل بالعواصف في المساء مطر الهلاك
فادخل في السفينة وأغلق بابك
وحل أجل الموعد المعين
وفي الليل أنزل الموكل بالعاصفة مطراً مهلكاً
وتطلعت إلى حالة الجو فكان مكفهراً مخيفاً للنظر
فولجت في السفينة وأغلقت بابي.....
ولما ظهرت أنوار السحر
علت من الأفق البعيد (من أسس السماء) غمامة ظلماء
وفي داخلها أرعد الإله (أَدَدْ)
وكان يسير أمامه "شُلاَّت" و"خانيش"
وهما ينذران أمامه في الجبال والسهول
ونزع الإله "إيراكال" الأعمدة
ثم أعقبه الإله "ننورتا" الذي فتق السدود
ورفع الـ"أنوناكي" المشاعل
وجعلوا الأرض تلتهب بوهج أنوارها
وبلغت رعود الآلهة "أدد" عنان السماء

---

(1) ملحمة كلكامش، مصدر سبق ذكره، ص 151.

وبلغ الخوف من الإله أدد إلى السموات
فأحالت كل نور إلى ظلمة
وتحطمت البلاد الفسيحة كما تتحطم الجرة
وظلت زوابع الريح الجنوبية تهب يوماً كاملاً
وازدادت شدة في مهبها حتى غطت الجبال
وفتكت بالناس كأنها الحرب العوان
وصار الأخ لا يبصر أخاه
ولا الناس يميزون في السماء
وحتى الآلهة ذعروا من عباب الطوفان
فهربوا وعرجوا إلى سماء آنو
لقد استكان الآلهة وربضوا كالكلاب حذاء الجدار[1].

واستمرت الحال على هذا المنوال سبعة أيام (أو ستة أيام وست ليال) حسب ملحمة كلكامش، وفي ذلك يقول الكاتب البابلي:

ومضت ستة أيام وست أمسيات
ولم تزل زوابع الطوفان تعصف وقد غطت الزوابع الجنوبية البلاد
ولما حلّ اليوم السابع خفت وطأة زوابع الطوفان في شدتها
وقد كانت تفتك كالجيش في الحرب العوان
ثم هدأ البحر وسكنت العاصفة وغيض عباب الطوفان[2].

وكانت السفينة تتقاذفها الأمواج العالية وسط الرياح العاتية والظلام الدامس، وفجأة:

ظهر جبل (جزيرة)
واستقر الفلك على جبل "نصير"[1].

(1) ملحمة كلكامش، مصدر سبق ذكره، ص 157.
(2) ملحمة كلكامش، مصدر سبق ذكره، ص 158.

وهكذا أصبح أكيداً لـ"أوتنابشتم" أن السفينة بلغت مستقرها الأخير، وفي اليوم السابع من استقرارها على جبل (نصير) أخرج "أوتنابشتم" حمامة وأطلقها:

طارت الحمامة ولكنها عادت
رجعت لأنها لم تجد موضعاً تحط فيه
وأخرجت السنونو وأطلقته
ذهب السنونو وعاد لأنه لم يجد موضعاً يحط فيه
ثم أخرجت غراباً وأطلقته
فذهب الغراب، ولما رأى المياه قد قرت وانحسرت
أكل وحام وحط ولم يعد[2].

حينئذ كان بامكان "أوتنابشتم" أن يطلق كل شيء من الفلك، واستعد هو نفسه أن يقدم الأضحيات إلى الآلهة على قمة الجبل:

فتجمع الآلهة على صاحب القربان كأنهم الذباب[3].

ونقرأ في ختام الملحمة أن إنليل يرفع "أوتنابشتم"، وزوجته إلى مراتب الألوهية

لم يكن أوتنابشتم قبل الآن سوى بشر
ولكن منذ الآن سيكون أوتنابشتم وزوجته مثلنا نحن الآلهة
وسيعيش أوتنابشتم بعيداً عند (فم الأنهار)[4].

---

(1) المصدر نفسه، ص 158.
(2) المصدر السابق نفسه، ص 158.
(3) ملحمة كلكامش، مصدر سبق ذكره، ص 159.
(4) المصدر نفسه، ص 161.

قصة الطوفان "أتراخاسيس"

وصل إلينا عدد لا بأس به من رقم الطين التي تحتوي على أجزاء من قصة الطوفان البابلية التي اصطلح المختصون في المسماريات على تسميتها بقصة أتراخاسيس (Atrahasis) نسبة إلى بطلها الذي يقابل اوتنابشتم في ملحمة كلكامش. وأقدم هذه الرقم يعود إلى العصر البابلي القديم وقد استنسخ زمن الملك البابلي أمي صدوقا (Amisaduqa) (1646– 1626 ق.م)، كما أن أغلبها جاء من مدينة سبار. وهناك نصان من هذه القصة البابلية يعودان إلى العصر البابلي الوسيط. وجدير بالذكر أن واحداً منهما كان قد عثر عليه في أوغاريت (رأس شمرة). وهناك ما لا يقل عن أربعة عشر رقيماً من القصة تعود إلى العصر الآشوري الحديث لأنها وجدت في مكتبة آشور بانيبال في مدينة نينوى.

وجدير بالملاحظة أن معظم هذه الرقم وصلتنا مهشمة وإن أحسنها حفظاً ثلاثة تعود إلى العصر البابلي القديم كتبت بخط ناسخ اسمه كو ـ أيا (Ku- Aya) في زمن آمي صدوقا.

ومن أهم ما يذكر بخصوص هذه الرقم أنها جاءت مذيلة ومؤرخة بخط الناسخ. يقول الناسخ كو ـ أيا في التذييل على الرقيم الأول أنه كتب في اليوم الحادي والعشرين من شهر نيسان في السنة التي (صنع فيها) الملك آمي صدوقا تمثالاً لنفسه (يمثله) وهو يحمل جدياً على صدره وأن تمثاله..... منتصراً(؟).

أما الرقيم الثاني فقد استنسخ في اليوم الثامن والعشرين من شهر شباط في السنة التي أنشأ فيها الملك آمي صدوقا دور (حصن) آمي صدوقا عند فوهة قناة سبار. ويقول الناسخ عن الرقيم الثالث بأنه انتهى من استنساخه في اليوم الثامن والعشرين من شهر أيار في السنة التي (صنع فيها) الملك آمي صدوقا تمثالاً لنفسه.

واستناداً إلى قوائم الحوادث التاريخية يكون كو ـ أيا قد انتهى من كتابه الرقيم الأول في حدود سنة 1634 قبل الميلاد.

ولم يكتف الناسخ كو ـ أيا بذكر تاريخ كتابته للرقم الثلاثة وإنما أحصى عدد أسطر كل رقيم منها (وكانت على التوالي 439، 416، 390 سطراً) وأعطى مجموع أسطر الرقم الثلاثة الذي بلغ 1245 سطراً على حد قوله. وأخيراً فإنه ذيل الرقيم الأول بالعبارة التالية: الرقيم الأول عندما كانت الآلهة مثل البشر عدد أسطره 439، بخط كو ـ أيا، صغير النساخ[1].

وهذه الملحمة أكمل من بعض الوجوه من قصة الطوفان في ملحمة كلكامش، فهي توضح بواعث قرار إنليل بتدمير البشرية كاملاً، وأن مقارنة قصة أتراخاسيس مع ملحمة كلكامش تشير إلى أن الأولى كانت أحد المصادر المستخدمة من قبل مؤلف الثانية[2].

أما قصة الطوفان " اتراخاسيس" فتتناول ثلاثة مواضيع رئيسية:

خلق الإنسان من أجل أن يحل محل الآلهة في تحمل مشقة العمل لإصلاح الأرض وإعمارها وزرعها. فبعد أربعين عاماً من العمل المتواصل أعلن الآلهة الثورة على كبير الآلهة إنليل وحاصروا معبده وطالبوه بأن يجد بديلاً عنهم لاستصلاح الأرض وإعمارها فتم خلق الإنسان ليحمل النير عن الآلهة - على حد تعبير النص البابلي.

تكاثر الناس وازدياد ضجيجهم في الأرض مما سبب المتاعب للآلهة وحرمها من الراحة والنوم، فقرر إنليل إنزال الوباء ومن ثم المجاعة لإنقاص عددهم.

وعندما لم تنفع تلك الإجراءات للحد من تزايد عدد الناس أرسل إنليل الطوفان عليهم لإبادتهم[3].

ويتكون اسم بطل القصة أتراخاسيس (Atrahasis) من مقطعين atra بمعنى "كثر، زائد" (من الفعل atra كثر، زاد) وhasis بمعنى "الحس والفهم

---

(1) الطوفان في المراجع السماوية، مصدر سبق ذكره، ص (23-25).

(2) (ساكز) د. هاري، عظمة بابل: موجز حضارة وادي دجلة والفرات القديمة، ترجمة وتعليق: د. عامر سليمان، دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد، 1979، ص 406.

(3) سومر أسطورة وملحمة، مصدر سبق ذكره، ص (165-166).

والحكمة (من الفعل hasasu أحس، أصغى، فهم). وبتعبير آخر فإن المقصود من الاسم الدلالة على سعة الفهم والحكمة، ولـذلك فـإن ترجمته إلى "الواسـع في الحكمة" ربما تكون أقرب إلى مدلول الاسم في البابليـة [1] وهـذا يعنـي أن اسـم أتراخاسيس يحمل معنى الرجل الكثير الإحساس والعاطفة[2].

لقد كان سبب قرار إنليل إرسال الطوفان، ومن قبله الطواعين والأوبئـة، فيتضح أنه "ذلك الضجيج الذي أحدثه البشر"

صارت البلاد واسعة و(صار) الناس كثيرين،

وحزن الإله من صخبهم

سمع إنليل ضجيجهم

وقال للآلهة العظام

لقد صار ضجيج البشر ثقيل الوطأة

لقد منعوا بصخبهم النوم[3].

ونظراً لخطورة الموقف فإننا نجد أن الإله ايا هو الذي يأخذ بزمام المبـادرة في هذه المرة / فيحذر أتراخاسيس من الخطر المحدق الذي يهدد البشرية قائلاً:

ففتح إنكي (أيا) فاه

وقال مخاطباً عبده (أتراخاسيس):

قد قلت: "ماذا عليّ أن أفعل أفعل؟"

فعليك الانتباه إلى الخبر الذي سأقوله لك

يا جدار استمع إلي،

يا جدار القصب انتبه إلى كلماتي

---

(1) الطوفان في المراجع السماوية، مصدر سبق ذكره، ص 32.

(2) (الكيلاني) د. رعد شمس الدين، الأنبياء في العراق دراسة مقارنة بين القرآن والتـوراة والآثـار، ط1، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، 2001، ص 169.

(3) (عزيز) د.كارم محمود، أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القـديم، ط1،دار الحـصاد للنشر والتوزيع والطباعة، دمشق، 1999، ص 204.

هدم بيتك وابن سفينة
انبذ المال وأنقذ النفس[1].

ويحث الإله أيا رجل الطوفان أتراخاسيس على الإسراع في بناء سفينة النجاة قائلاً:

ابن سفينة كبيرة....
وليكن بناؤها كلياً بالقصب
واجعلها سفينة "ماكور كور" (Magurgur) [يقصد السفينة الضخمة]
وسمها "منقذة الحياة"[2].

وبعد أن انتهى رجل الطوفان اتراخاسيس من بناء السفينة جاء دور تحميلها بالمؤن والبشر والحيوانات حسب تعليمات الإله ايا. إذ جاء على لسان الإله ايا وهو يخاطب رجل الطوفان قوله:

ترقب الوقت المحدد الذي سوف أخبرك به
ثم ادخل السفينة وأغلق بابها
احمل فيها شعيرك وأمتعتك وأموالك
وزوجتك وصاحبك وقريبك والعمال الماهرين
وإني سأرسل إليك حيوان السهل وكل حيوان وحشي
يأكل العشب في السهل
وإنها سوف تنتظر عند بابك[3].

ثم جاء الطوفان. لقد صور الكاتب البابلي تفاصيل هذا الكارثة المهولة: رعد يشق عنان السماء، أعاصير مدمرة تعصف وتزمجر "مثل نهيق الحمار

---

(1) الطوفان في المراجع السماوية، مصدر سبق ذكره، ص 59.
(2) المصدر نفسه، ص (61-62).
(3) الطوفان في المراجع السماوية، مصدر سبق ذكره، ص (66-67).

الوحشي"، فيضان عارم تخور مياهه مثلما "يخور الثور"، ظلام حالـك ودمـار في كل مكان حتى أن الآلهة نفسها تراجعت مذعورة إلى أقصى السماوات.

واستمرت الحال على هذا المنوال سبعة أيام وسبع ليال حتى جاء الطوفان على كل من بشر ما عدا من كان في السفينة. ويصف الأديب البـابلي المـوتى مـن الناس فيقول:

كانوا يملؤون النهر وكأنهم فراشات
وقد تحاشدوا كالاكلاك عند حافة النهر[1].

حينئذ استعد اتراخاسيس أن يقدم الأضحيات إلى الآلهة يقول الكاتب البابلي:

وشم الآلهة الرائحة
فتهافتوا كالذباب فوق القربان[2].

أمـا عـن خلـود بطـل الطوفـان اتراخاسـيس، فـلا نـشك في أن اتراخاسيس قد حظي بالخلود، وإن كانت خاتمة الرقيم الثالـث والأخـير مهشمة وإن أكثر مـن عـشرة أسـطر مفقـودة مـن نهايـة الحـوار بـين أيـا وإنليل[3]، وفي ذلك يقول "هاري ساكز": يُفترض أن بقية الرقيم المفقودة حالياً تضم رواية تأليه اتراخاسيس[4].

قصة الطوفان في رواية بيروسيس

دوّن المؤرخ البابلي الأصل "بيروسيس"، تاريخ بـلاده في النـصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد، وكان يكتب مؤلفاته باللغة اليونانية، عـلى أن هـذه

---

(1) المصدر نفسه، ص 70.
(2) المصدر السابق نفسه، ص 76.
(3) الطوفان في المراجع السماوية، مصدر سبق ذكره، ص 80.
(4) عظمة بابل: موجز حضارة وادي دجلة والفرات القديمة، مصدر سبق ذكره، ص 462.

المؤلفات لم تصلنا كاملة، بل وصلتنا مقتطفات منها حفظها لنا المؤرخون الإغريق المتأخرون. ولحسن الحظ أن هذه المقتطفات تحتوي على حكاية الطوفان التي تجرى على النحو التالي:

لقد حدث الطوفان في عهد الملك أكسيسوثروس، الملك العاشر الذي حكم بابل. فقد ظهر له الإله كرونوس في رؤياه، وحذره من أن طوفاناً سيغمر الأرض ويهلك الناس جميعاً، ولهذا حثه الإله على أن يكتب تاريخ العالم منذ بداية الخلق، وأن يدفن ما يكتبه في سيبار، بلد الشمس، حتى يظل في مأمن من الطوفان، كما طلب منه أن يبني فلكاً يأوي إليه هو وأقرباؤه وأصحابه وأن يختزن فيه زاداً من اللحم والشراب، كما يأخذ معه فيه الكائنات الحية من الطيور وذوات الأربع. فإذا ما فرغ من إعداد كل شيء، كان عليه أن يبحر بفلكه. عند ذاك سأل الملك أكسيسوثروس الإله قائلاً: ولكن إلى أين أبحر بالفلك؟ فأجابه الإله: إلى الآلهة، ولكن بعد أن تصلي من أجل خير الناس. فأطاع الملك أمر الإله، وابتنى فلكاً طوله مائة وألف ياردة، وعرضه أربعمائة وأربعون ياردة. وبعد أن جمع كل ما يحتاج إليه، اختزنه في الفلك، ثم جعل أولاده وأصدقاءه يركبون فيه. وبعد أن أغرق الطوفان الأرض ثم انحسر عنها فور ذلك، أطلق أكسيسوثروس سراح بعض الطيور. ولكن الطيور لم تجد طعاماً تأكله أو مكاناً تستقر فوقه، فعادت إلى الفلك. وبعد بضعة أيام، أطلق سراحها مرة أخرى، فعادت هذه المرة إلى الفلك وأرجلها ملوثة بالطين. فلما أطلقها للمرة الثالثة طارت بعيداً ولم تعد إلى الفلك. عند ذاك عرف الملك أن الماء قد انحسر عن الأرض، فرفع من الفلك بعض ألواحه الخشبية، ونظر من الفتحة فأبصر الشاطئ. عند ذاك سار بالفلك حتى استقر عند جبل، فنزل منه هو وزوجته وابنته وقائد الدفة، وسجد للأرض وابتنى مذبحاً. وبعد أن فرغ من تقديم الضحية للآلهة، اختفى هو ومن معه. فلما رأى الذين كانوا لا يزالون داخل الفلك أن الملك ومن كانوا في رفقته لم يرجعوا إليهم، نزلوا من الفلك كذلك وأخذوا يبحثون عنهم وينادون الملك باسمه، ولكنه لم يكن ليرى في أي مكان.

غير أنهم سمعوا صوتاً يدوى في الهواء ويطلب منهم أن يخشوا الآلهة، ويكفوا عن البحث عن الملك لأن الآلهة قد اختارته لكي يسكن إلى جوارها، كما شاركته زوجته وابنته وقائد الدفة هذا الشرف. ثم أمرهم الصوت أن يعودوا إلى بابل ويستخرجوا الكتابات التي كانوا قد دفنوها هناك ويوزعوها فيما بينهم. وكذلك أخبرهم الصوت أن الأرض التي يقفون عليها هي أرمينيا.وبعد أن سمع ركاب الفلك كل هذا الحديث قدموا الضحية للآلهة، ورجعوا راجلين إلى بابل. أما الفلك الذي استقر عند جبال أرمينيا فلا يزال جزء منه مطروحاً على هذه الجبال حتى اليوم، ومازال بعض الناس يزيلون عنه القار ويستخدمونه في تعاويذهم. أما ركاب الفلك فقد عادوا إلى بابل واستخرجوا الكتابات المدفونة في سيبار، وشيدوا مدناً كثيرة، وأعادوا بناء الأماكن المقدسة وعمروا بابل بنسلهم[1].

(1) الفولكلور في العهد القديم، الجزء الأول، مصدر سبق ذكره، ص (162-164).

الفصل الثالث

الطوفان التوراتي

يروي لنا الإصحاح السادس والإصحاح السابع والإصحاح الثامن من سفر التكوين قصة الطوفان. ونحن لا نجد في الحقيقة قصة واحدة للطوفان بل نجد قصتين، لم توضع إحداهما بعد إتمام الأخرى، ولكن تباعدت وتداخلت أجزاء إحداهما في الأخرى مع محاولة مكشوفة لمحاولة التنسيق بين الأحداث المختلفة. وفي حقيقة الأمر نجد في الإصحاحات الثلاثة تناقضات واضحة كبيرة. ومع ذلك فقد مزج المؤلف بينهما بطريقة فجة للغاية، بحيث لا يفوت القارئ ما فيهما من تكرار وتناقض، حتى وإن كان القارئ غير مدقق في قراءته.

وإحدى روايتي الطوفان اللتين جمع بينهما المؤلف بطريقة مصطنعة هي مستقاة مما يطلق عليه نقاد العهد القديم المصدر الكهنوتي، أما الرواية الثانية فمستقاة مما يطلقون عليه المصدر الياهوي.

ولو أننا نظرنا إلى قصة الطوفان ككل لوجدناها تمضي على هذا النحو، يبدأ سفر التكوين بحذر شديد في وصفه تفاصيل الجرائم والآثام التي اقترفها أحفاد آدم على الأرض في أثناء معاشرة الملائكة نساء البشر. فهو يقول (6:5-8): "ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه. فقال الرب: امحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم. وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب".

لقد جاء يهوه زائراً أبونا نوح محذراً إياه مـن الكارثـة الوشـيكة الحـدوث، وليمنحه فرصة للخلاص. "فقال الله لنوح: نهاية كل البشر قد أتت أمـامي، لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم. فها أنا مهلكهم مع الأرض. اصنع لنفسك فلكاً من خشب جُفر. تجعل الفُلك مساكن، وتطليه من داخل ومن خارج بالقار. وهكذا تصنعه: ثلاث مئة ذراع يكون طول الفلـك، وخمسين ذراعـاً عرضـه، وثلاثـين ذراعاً ارتفاعه. وتصنع كوًّا للفُلك، وتُكمله إلى حد ذراع من فوق. وتضع بـاب الفلك في جانبه. مساكن سُفليَّة ومتوسطة وعلوية تجعله. فها أنا آتٍ بطوفان الماء على الأرض لأُهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل مـا في الأرض يموت. ولكن أُقيم عهدي معك، فتدخل الفُلك أنت وبنـوك وامرأتـك ونـساء بنيك معك. ومن كل حي من كل ذي جسدٍ، اثنـين مـن كـل تُـدخل إلى الفلـك لاستبقائها معك. تكـون ذكـراً وأُنثـى. مـن الطيـور كأجناسـها، ومـن البهـائم كأجناسها، ومن كل دبابات الأرض كأجناسـها. اثنـين مـن كـل تـدخل إليـك لاستبقائها. وأنت، فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عندك، فيكون لـك ولها طعاماً. ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله. هكـذا فعـل" ـ سـفر التكـوين (6:13-22).

لقد أشارت التوراة ضمنياً إلى أن بناء الفلك الأعجوبة اسـتمر نحـو مائـة عام، إذ يذكر سفر التكوين (5: 32): "وكان نوح ابن خمس مئـة سـنة"،عنـدما قرر يهوه إبادة البـشرية!!؛ ويـشير سـفر التكـوين (7: 6) إلى توقيـت الطوفـان بقوله: "نوح ابن ست مئة سنة صار طوفان الماء على الأرض".

ونتساءل ههنا: ما نوعيه هذا الخشب الذي صنع منـه الفلـك!؟ حتـى الآن لا أحد يعرف. ولكن علينا أن نفترض أنه أجود أنواع الأخشاب. لأنه إذا قرر أحد أن يصرف مائة عام في بناء سفينة، فإنه لن يجد الخشب الـذي يبقـى سـليماً حتـى نهاية عملية البناء، ولتحولـت مـؤخرة الـسفينة إلى فتـات متآكـل عنـدما يـصل البنّاؤون إلى مقدمتها. وهكذا تتحوّل العملية إلى إعادات متكررة؛ وعـلى الـرغم من ذلك فالتوراة تسمي هذا الخشب الأعجوبة بـ" خشب جُفر" (عصى جفـر)،

ولعل الترجمة الأصحّ من وجهة نظر "د. الصليبي" هي: " أشجار جُفر".
ويعتقد علماء التوراة بأن لفظ جفر بالعبرية تعني نوعاً خاصاً من الخشب، مع العلم بأن هذه اللفظة لا ترد في نصوص التوراة إلا هذه المرّة الواحدة[1] وحسب قاموس أو. شنينبرغ، أن شجر الجفر هي نفسها شجرة السرو، ووفق فرضية أخرى أن الجفر هو شجر التين[2].

عندما انتهى نوح من بناء فلكه التوراتي العجيب قال له يهوه: "أدخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك، لأني إياك رأيت باراً لدي في هذا الجيل" ـ سفر التكوين (7: 1). وتبين تتمة الحديث، أن يهوه نسي تعليماته السابقة. فقد رأينا أنه أمر العجوز بألاّ يأخذ معه سوى زوج من كل حيوان، لكنه عاد وأدخل على خطته تعديلاً هاماً، في اللحظة الأخيرة، فقال: "من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى. ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين. ذكراً وأنثى" ـ سفر التكوين (7: 2).

فلو نظرنا بتمعن إلى هذه الروايات التوراتية لوجدنا أنها بالفعل مستقاة من مصدرين مختلفين ومتداخلين. في تحديد الكائنات الحية الأخرى التي أمر الرب نوحاً أن يدخلها معه في الفلك. هناك مقطع يشير كما رأينا إلى أن نوحاً قد أخذ معه في السفينة زوجاً من كل نوع. ثم يخبرنا مقطع آخر أن الرب قد أمر نوحاً أن يأخذ معه في الفلك سبعة من كل نوع ذكوراً وأناثاً، وذلك من الحيوانات المسماة بالحيوانات الطاهرة، وأن يأخذ زوجاً واحداً من الحيوانات غير الطاهرة. وللأسف الشديد نسي الرب يهوه أو تغافل عما إذا كان قد أشار إلى نوح بعلامات إلهية للتفريق بين الحيوانات الطاهرة وغير الطاهرة!! وبعد ذلك، على كل حال، تخبرنا التوراة أن نوحاً لم يُدخل إلى الفلك فعلاً إلا زوجاً واحداً من كل نوع من الحيوانات.

---

(1) (الصليبي) د. كمال، خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، ط 2، دار الساقي، لندن، 1991، ص 54.
(2) ليوتاكسل، التوراة كتاب مقدس أم جمع من الأساطير؟، ترجمة: د. حسان ميخائيل اسحاق، ط 1، الجندي للطباعة والنشر، 1994، ص 530.

من بين الأسئلة التي كان على آباء اللاهوت وكثير من المؤمنين بقصة الطوفان التوارتية أن يجدوا لها إجابة: كيف استطاعت الحيوانات الموجودة في الأمريكتين وليس لها وجود في المناطق وبلدان الشرق الأدنى القديم السفر إلى بلاد نوح!؟ ومن يملك أن يقول إن الأبرار من قوم نوح والقلة المؤمنة الناجية في تلك الرحلة كانت تستطيع أن تحمل معها الأسود والسباع والفهود والفيلة على سبيل المثال!؟

كيف يمكن حمل عدد من المخلوقات المتوحشة على ظهر سفينة عليها عدد محدود من الأفراد والمخلوقات غير المتوحشة وإطعام المخلوقات الأولى في ظل الهروب الفزع من عالم صار ماء فقط!؟

وبعد فترة أعلن يهوه لنوح، أن الطوفان سيبدأ "بعد سبعة أيام أيضاً: أمطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة. وأمحو عن وجه الأرض كل قائمٍ عملته. ففعل نوح حسب كل ما أمره به الرب. ولما كان نوح ابن ست مئة سنة صار طوفان الماء على الأرض، فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان. ومن البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة، ومن الطيور وكل ما يدب على الأرض دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك، ذكراً وأنثى، كما أمر الله نوحاً. وحدث بعد سبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض. في سنة ست مئة من حياة نوح، في الشهر الثاني، في اليوم السابع عشر من الشهر في ذلك اليوم، انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم، وانفتحت طاقات السماء. وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة. في ذلك اليوم عينه دخل نوح، وسام وحام ويافث بنو نوح، وامرأة نوح، وثلاث نساء بنيه معهم إلى الفلك. هم وكل الوحوش كأجناسها، وكل البهائم كأجناسها، وكل الدبابات التي تدب على الأرض كأجناسها، وكل الطيور كأجناسها: كل عصفور، كل ذي جناح. ودخلت إلى نوح إلى الفلك، اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياةٍ. والدّاخلات دخلت ذكراً وأنثى، من كل ذي جسد، كما أمره الله. وأغلق الرب عليه. وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض. وتكاثرت المياه ورفعت الفُلك،

فارتفع عن الأرض. وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض، فكان الفلك يسير على وجه المياه. وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض، فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء..........فانمحت من الأرض. وبقي نوح والذي معه في الفلك فقط. وتعاظمت المياه على الأرض مئة وخمسين يوماً" ـ سفر التكوين (7: 4 ـ 24).

"وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء، فامتنع المطر من السماء. ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً. وبعد مئة وخمسين يوماً نقصت المياه، واستقر الفلك في الشهر السابع، في اليوم السابع عشر من الشهر، على جبال أراراط، وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر في أول الشهر، ظهرت رؤوس الجبال. وحدث بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفُلك التي كان قد عملها، وأرسل الغراب، فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض. ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه على وجه الأرض، فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها، فرجعت إليه إلى الفلك لأن مياهاً كانت على وجه الأرض. فمد يده وأخذها وأدخلها عنده إلى الفلك. فلبث أيضاً سبعة أيام أُخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك، فأتت إليه الحمامة عند المساء، وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها. فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض. فلبث أيضاً سبعة أيام أخر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضاً. وكان في السنة الواحدة والست مئة، في الشهر الأول في أول الشهر، أن المياه نشفت عن الأرض. فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر، فإذا وجه الأرض قد نشف. وفي الشهر الثاني، في اليوم السابع والعشرين من الشهر، جفت الأرض" – سفر التكوين (8: 3 ـ 24).

هنا نتوقف قليلاً لنرى أن هناك خلافاً جوهرياً آخر يتعلق بدوام مدة الطوفان، فقد ظلت الأمطار تهطل في الرواية الياهوية مدة أربعين يوماً وأربعين ليلة، كذلك كانت مدة انحسار الماء أربعين يوماً، يضاف إليها فترات كل منها سبعة أيام، أطلق فيها نوح الطيور. أما في الرواية الكهنوتية، فكانت مدة الطوفان مئة وخمسين يوماً. ويقول "جيمس فريزر" أن مدة الطوفان في العموم استغرقت

اثني عشر شهراً وعشرة أيام. وبما أن الشهور العبرية كانت شـهوراً قمريـة، فـإن الاثني عشر شهراً تقدر بثلاثمئة وأربعـة وخمـسين يومـاً. وإذا أضـيفت إلى هـذا الرقم عشرة أيام أخرى، فإن المدة تكون حينئذ سنة شمـسية كاملـة، أي ثلاثمائـة وأربعة وستين يوماً. ومرة أخـرى يختلـف الكاتبـان في مـصدر الطوفـان، فبيـنما يعزوه الكاتب اليهوي إلى الأمطـار، يعـزوه الكاتـب الكهنـوتي إلى تـدفق الميـاه الباطنية إلى جانب سقوط الأمطار الغزيرة[1].

إحدى هذه اللامعقوليات تتصل بمقدار الماء اللازم لإحداث طوفان مثل ذلك الموصوف في سفر التكوين، الكتاب المقدس يَّدعى وتعاظمت الميـاه كثـيراً جداً على الأرض. فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء.

في عصور ما قبل العلـم عنـدما كـان النـاس يعرفـون القليـل جـداً عـن الجغرافيا والأرصاد الجوية تفسير كهذا كان يمكن أن يجد قبـولاً عامـاً، لكـن في العصور الحديثة أولئك الذين يصدقون بسهولة هم فقط من يمكن أن يـصدقوه -لنفهم هذا؛ ما علينا سوى تحليل هذه القصة من حيث عدد بوصات المطر التي تهطل كل دقيقة والتي كان من اللازم أن تهطل على كل سطح الأرض لإحـداث النتائج الموصوفة في سفر التكوين في الإصحاحين السابع والثامن.

على سبيل المثال نحن نعرف الآن أن قمة إيفرست هي أعـلى قمـة "تحـت كل السماء" وأن ارتفاعها يبلغ 29.028 ألف قدم وهو مـا يـساوى 348.336 ألف بوصة. وكي يهطل مطر كافٍ في فترة 40 يوماً ليغمر هذه القمة فإنـه يتعـين على السحب أن تسقط 8.708 آلاف بوصة من المطر كل يوم بانتظام فـوق كـل الأرض. وهذا يمكن أن يبلغ 363 بوصة كل سـاعة أو سـت بوصـات في كـل دقيقة. فهل يستطيع أي شخص عاقـل أن يـصدق أنهـا أمطـرت ذات مـرة بـلا انقطاع مدة أربعين يوماً وليلة بمعدل متوسـط بلـغ 6 بوصـات كـل دقيقـة؟ إن مطراً يصل معدله إلى 6 بوصات في يوم واحد هو سيل حقيقي.

---

(1) (فريزر) جيمس، الفولكلور في العهد القديم، الجزء الأول، ترجمـة: د. نبيلـة إبـراهيم، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص 185.

إذن كيـف نـصف هطـول الأمطـار بمعـدل سـت بوصـات في الدقيقـة طوال 75.600 ألف دقيقة؟ إن الشمس تسبب تبخـر المـاء وتجمعـه في سُـحب وعندما لا تعود السحب قادرة عـلى الاحتفـاظ ببخـار المـاء فإنهـا تـتراكم أثنـاء العملية وتمطر. ثم عندما يكون السحاب قد أطلق رطوبته يتوقف المطر.

إذن كيف يمكن لغطاء سحابي فوق كل العـالم أن يطلـق مطـراً لفـترة 40 يومـاً متصلاً من دون أن يعاد ملء مخزونه من الماء الذي ينقص بفعل التبخـر؟. إن الـدفع أو الادعاء بأنه من الممكن أن يكون هذا قد حدث لهو دفع بأن غطاءً من السحب في العالم كله استطاع ذات يوم أن يحتفظ بأميال عديدة من المياه ويرسلها دون أن يمتلئ ثانية[1].

"وكلم الله نوحاً قائلاً: أخرج من الفُلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معـك. وكل الحيوانات التي معك من كل ذي جسد: الطيـور، والبهـائم، وكـل الـدبابات، التـي تدب على الأرض، أخرجها معك. ولتتوالد في الأرض وتُثمر وتكثر على الأرض. فخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه. وكل الحيوانات، وكل الدبابات، وكـل الطيـور، وكـل ما يدب على الأرض، كأنواعها خرجت من الفلك" - سفر التكوين (8: 15 ـ 19).

"وبنى نوح مذبحاً للرب. وأخذ من كـل البهـائم الطـاهرة ومـن كـل الطيـور الطاهرة، وأصعد مُحرقات على المذبح، فتنسم الرب رائحة الرضا. وقال الرب في قلبـه: لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان، لأن تـصور قلـب الإنـسان شريـر منـذ حداثته. ولا أعود أيضاً أُميت كل حي كما فعلت. مدة كل أيام الأرض: زرع وحصاد، وبرد وحر، وصيف وشتاء، ونهار وليل، لا تزال" ـ سفر التكوين (8: 20 ـ 22).

"وكلم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً: وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نـسلكم مـن بعدكم، ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكـم: الطيـور والبهـائم وكـل وُحـوش الأرض التي معكم، من جميع الخارجين من الفلك حتـى كـل حيـوان الأرض. أقـيم ميثاقي معكم فلا ينقرض كل ذي جسد أيضاً بمياه الطوفان. ولايكون أيـضاً طوفـان ليخرب الأرض. وقال الله: هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بينـي وبيـنكم، وبـين

---

(1) (نبيل) غادة، طوفان نـوح هـل هـو أسـطورة!؟، العـصور الجديـدة، العـصور الجديـدة للنـشر والتوزيع، العدد الخامس ـ يناير 2000، القاهرة، ص (116-117).

كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر. وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض. فيكون متى أنشر سحاباً على الأرض، وتظهر القوس في السحاب، أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد. فلا تكون أيضاً المياه طوفاناً لتهلك كل ذي جسد. فمتى كانت القوس في السحاب، أبصرها لأذكر ميثاقاً أيدياً بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض. وقال الله لنوح: هذه علامة الميثاق الذي أنا أقمته بيني وبين كل ذي جسد على الأرض" - سفر التكوين (9: 8 ـ 17).

وجدير بالذكر أن هناك عدداً من الآراء التي تتناول رمزية علامة العهد بين الرب والمخلوقات، مؤداها:

* أن قوس القزح قد وضع كرمز طبيعي أو مادي أو حسي لذلك الميثاق، وأن القصة على هذا الوجه تحتمل تفسيرين متناقضين: إما أن قوس القزح كان موجوداً مسبقاً ثم خصص رمزاً للميثاق بين الله وخلقه، أو أن هذا القوس ظهر لأول مرة عقب الفيضان الجبار الذي اجتاح الأرض، كعهد من الله لخلائقه. وفي هذه الأخيرة يبدو الأمر فيما يشير إليه أحد المعلقين بلغة شعرية، كما لو كان آخر عمل ملون رائع من أجل تمام وكمال الخلق.

* كذلك يرى بعض الشراح والمعلقين القدامى، من أمثال "إبراهيم بن عزرا" و"نحمانيدس"، أن قوس القزح كان علامة على ميثاق الصلح والاتفاق بعد نفاذ العقوبة، وأن صورة القوس وهيئته أيضاً تشبه خفض السيف أو إغماده عقب القتال. أيضاً يري البعض أن انعكاس الشمس على السحب يعتبر هو الانعكاس الملون للخلفية الأساسية للوجود الإلهي. وعلاوة على ذلك، يذهب البعض الآخر إلى القول بأن قوس القزح، بما يبدو فيه من انسجام واتساق في الألوان، يشير إلى طبيعة العهد أو الميثاق، ذلك أن ظهور القوس وتكرار حدوثه يعتبر ضماناً لسلامة وجود العالم، وإبطالاً لقانون العقوبة المرعب[1].

(1) (عزيز) د.كارم محمود، أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم، ط1، دار الحصاد للنشر والتوزيع والطباعة، دمشق، 1999، ص 221.

الفصل الرابع

هل اعتمدت قصة الطوفان التوراتية على المدونات العراقية القديمة!؟

لقد قمنا بسرد ما عثر عليه حتى الآن من أساطير الطوفان في منطقتنا العريقة، وبمقارنتها بالرواية التوراتية للطوفان فإنها نمت عن تشابه فيما بينهما، بما يؤكد أن هناك ثمة اقتباساً ما تمّ من قبل أحد الطرفين: كُتاب التوراة أو مبدعي الروايات العراقية ـ أحدهما من الآخر. ومن هنا يثور التساؤل الآتي: **أي هذه الروايات هي النموذج الأصلي، وأيها النص المنتحل!؟**

يجيب على ذلك "ج. فريزر" ـ صاحب أهمِّ المباحث في دراسات الفُولكلور في العهد القديم ـ بقوله: ربما كانت المقارنة السطحية بين حكايتي الطوفان التوراتية والبابلية كافية لأن تؤكد لنا أن كلتا الحكايتين لم تنشأ في الأصل مستقلة، بل من المؤكد أن إحداهما اعتمدت على الأخرى، أو أنهما استمدا معاً من أصل واحد. وتتعدد وجوه الاتفاق بين الحكايتين حتى تشمل التفصيلات الجزئية، بحيث لا يمكننا أن نرجع هذا إلى محض الصدفة. ففي كلتا الحكايتين قررت القوى الإلهية أن تقضى على الجنس البشري بأن ترسل إلى الأرض طوفاناً عظيماً. وفي كلتيهما أفشى الإله هذا السر إلى رجل قبل إغراق الأرض بالطوفان. وقد أرشد الإله هذا الرجل إلى بناء فلك كبير لكي يأوي إليه فينقذ نفسه وينقذ معه صنوف الكائنات الحية جميعاً. ومن المحتمل أنه ليس من قبيل الصدفة أن يكن البطل الذي أنقذ من الطوفان في الحكاية البابلية ـ

وفقاً لرواية "بيروسيس" ـ هو ملك بابل العاشر، وأن يكون نوح الحكاية التوراتية هو الرجل العاشر في نسل آدم. وفي كلتا الحكايتين ابتنى الرجل المختار، بعد تحذير الإله إياه، سفينة ضخمة مكونة من عده طوابق، وطلاها بالقار والقطران حتى لا تتسرب إليها المياه، وأدخل فيها أسرته وحيوانات من كل صنف. وفي كلتيهما هطلت الأمطار الغزيرة، فتجمع الطوفان بمقدار كبير ودام أياماً يختلف عددها قلة أو كثرة. وفي كلتيهما غرق الجنس البشري جميعه فيما عدا البطل وأسرته. وفي كلتيهما أرسل الرجل الذي أنقذ، طائرين غراباً وحمامة ليرى عن طريقهما ما إذا كانت مياه الطوفان قد انحسرت عن الأرض. وفي كلتيهما عادت الحمامة إلى السفينة لأنها لم تجد مكاناً تستقر فيه، أما الغراب فلم يعد في كلتا الحكايتين، وفي كلتيهما رست السفينة على جبل. وفي كلتيهما اشتمت الآلهة رائحة الشواء الطيبة فسكن غضبها.

وهكذا تتعدد وجوه الشبه بين الحكايتين البابلية والتوراة في مجموعهما. فإذا شئنا بعد ذلك أن نتعمق التفصيلات. فإننا نجد أن الحكاية البابلية أقرب إلى الحكاية اليهوية منها إلى الحكاية الكهنوتية. فكل من الرواية اليهوية والبابلية تعطى العدد سبعة أهميته.

فقد حذر نوح، في الرواية اليهوية، من حدوث الطوفان سبعة أيام على التوالي، كما أخذ معه في السفينة سبعاً من كل صنف من صنوف الحيوانات الطاهرة. ثم إن المسافة الزمنية بين إطلاقه طائراً وآخر كانت سبعة أيام. وبالمثل دام الطوفان في الرواية البابلية حتى بلغ قمته سبعة أيام. كما أن البطل فيها وضع مجموعات من أوعية التضحية فوق الجبل، وكانت كل مجموعة تتكون من سبعة أوعية. وتؤكد كل من الروايتين البابلية واليهوية أن باب السفينة أوصد بعد أن دخلها الرجل وأسرته وصنوف الحيوانات التي اختارها.

وفي كلتيها صورت الحادثة المثيرة، حادثة إرسال الحمامة ثم الغراب من السفينة. كما أن الضحية قدمت في كلتا الحالتين، وقد اشتمت الآلهة فيهما رائحة الشواء وسكن غضبها. على أننا نجد من ناحية أخرى أن الحكاية الكهنوتية في

سفر التكوين تقترب من الحكاية البابلية في بعض التفصيلات المحددة، أكثر من اقتراب الرواية اليهوية. ففي كل من الروايتين الكهنوتية والبابلية أصدرت الآلهة تعليمات محددة إلى البطل لبناء السفينة. وبناء على هذه التعليمات، بنيت السفينتان في كل من الروايتين من عدة طوابق وقسم كل طابق إلى عدة حجرات كما أنها طليت في كل منها بالقار أو القطران، ورست كل منهما على جبل، واستقبل البطلان بركة الإله عند خروجهما.

فإذا كانت الحكايتان التوراتية والبابلية عن الطوفان تتشابهان إلى هذا الحد، فكيف يمكننا أن نفسر هذا التشابه!؟ لا يمكن أن تكون الرواية البابلية مستمدة من الرواية التوراتية، لأن الرواية البابلية أقدم من الرواية التوراتية بما يقرب من أحد عشر أو اثني عشر قرناً. وفضلاً عن ذلك، فإن الحكاية التوراتية في جوهرها. كما لاحظ "تسيمرن"، تقضي بأن يكون البلد المشار إليه قابلاً لحدوث الفيضانات مثل بابل، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في أن الحكاية "نشأت أصلاً في بابل، ثم انتقلت بعد ذلك إلى فلسطين"[1].

ويشير "صموئيل هنري هووك" في كتابه ـ منعطف المخيلة البشرية ـ إلى أن "توحي الفروقات بين النسختين اليهوية والكهنوتية بأن الأخيرة تستخدم شكلاً من الأسطورة يختلف عن ذاك الذي تستخدمه الأولى، وأن النسخة الكهنوتية أقرب في بعض الاعتبارات إلى مصادر أرض الرافدين"[2].

وهناك رأي بأن قصة الطوفان في العهد القديم تتشابه من ناحية بنائها مع روايات بلاد النهرين السومرية والأكادية، كما تتشابه مع رواية "بيروسيس" الإغريقية المتأخرة، كما أن الهيكل العام للرواية التوراتية ينطبق ، وفق رأي آخر،

---

(1) (فريزر) جيمس، الفولكلور في العهد القديم، الجزء الأول، ترجمة: د. نبيلة إبراهيم، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص (186-188).

(2) (هووك) صموئيل هنري، منعطف المخيلة البشرية بحث في الأساطير، ترجمة: صبحي حديدي، ط3، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 2004، ص 160.

بكل خطوطه العريضة وبكثير من تفاصيله على النص البابلي لملحمة كلكـامش، حتى أن بعض التعابير تكاد تنطبق بحرفية مطلقة[1].

وفي ذلك يقول "إدوارد كييرا" في كتابه (كتبـوا عـلى الطـين): لـو تركنـا هـذه الفروق جانباً، لوجدنا القصتين لا تختلف إحداها عـن الأخـرى بـشيء، ولكـن هـل يؤيد هذا التوراة!؟ سيقول بعض الناس، إنه تأييد لا يقبل النكران وهـو أن الطوفـان قد حدث حقيقة. وسيقول الآخرون، لا، إنه برهان قاطع على أن الأساطير العبرانيـة قد جاءتهم من بابل. وها نحن أولاء، تقول، إن الجواب عن هذا السؤال سيعطيه كل واحد منا بحسب ما عنده من خبره سابقة ومران ديني وعلمي. وشيء واحد خدمت به الآداب البابلية التوراة: هو أنها جعلت التوراة أكثر فهماً[2].

ويـستطرد "كيـيرا" بقولـه: "إن قـصة الطوفـان انبعثـت مـن الأدب البـابلي والأدب الآشوري وأنها تشبه حقاً قصة الطوفـان التـي وردت في التـوراة. وفي قـصة الطوفان البابلية والآشورية نجد الفُلك المطلي بالقير، وهو نفـسه الـذي ورد ذكـره في التوراة، كذلك ورد ذكر رجل معين مع أسرته حذرته الآلهة بقـرب حـدوث فيـضان وانهمار مطر غزير يُغرق الأرض ويميت الناس، ثم ترسو السفينة على جبل، ويرسـل هذا الرجل ثلاثة طيور ثم يخرج المنقذ من السفينة ويقدم القرابين[3].

إن أوجه الشبه بين القصتين أمـر يـدعو إلى الدهـشة، ويـسود الاعتقـاد لـدى أغلب الباحثين بأن الرواية التوراتية مأخوذة عن رواية عراقية أقدم منها، وهي قـصة الطوفان الواردة في ملحمة كلكامش. فيؤكد "Jensen" خلال العقد الأول من قرننـا الحالي، اقتباس كتاب سفر التكوين قصة الطوفان من ملحمة كلكامش[4].

---

(1) (عزيز) د. كارم محمود، أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم، ط1، دار الحـصاد للنشر والتوزيع والطباعة، دمشق، 1999، ص227.

(2) (كييرا) ادوارد، كتبوا على الطين: رقم الطين البابليـة تتحـدث اليـوم، ترجمـة: د. محمـود حـسين الأمين، مكتبة المتنبي، بغداد، 1964، ص 147.

(3) المصدر نفسه، ص (145-146).

(4) (سليمان) د. توفيـق، نقـد النظريـة الـسامية، الجـزء الأول، أسـطورة النظريـة الـسامية ولادتهـا وتطويرها - حقيقتها في التوراة - أسباب وضعها، ط1، دار دمـشق للطباعـة والنـشر، دمـشق، 1982، ص 139.

إنني اعتقد اعتقاداً يكاد يكون جازماً: أن كتاب سفر التكوين وكتاب ملحمة كلكامش على حد سواء قد نهلوا من أصل مشترك واحد لهذه القصة. وهذا يعني أن أصلاً واحداً كان موجوداً قبل التدوين الأول لـ (ملحمة كلكامش) الذي سبق عصر تدوين قصة الطوفان التوراتية. فقد ذهب بعض أهل الاختصاص، ومن ضمنهم الباحث "نجيب البهبيتي" إلى أن جذور (ملحمة كلكامش) ملحمة من أصل يمني[1].

ويشير إلى الأصل المشترك لهذه القصة "ول. ديورانت" في كتابه (قصة الحضارة) بقوله: "وكانت أساطير الجزيرة هي المعين الغزير الذي أخذت منه قصص الخلق والغواية والطوفان التي يرجع عهدها في تلك البلاد إلى ثلاثة آلاف سنة أو نحوها قبل الميلاد"[2].

ونتساءل ههنا، ما هو الأصل الذي ألهم سكان العراق القدامى هذه الأسطورة!؟ للجواب على ذلك نقول: لا يمكن "أن يكون الطوفان محض أسطورة اخترعتها المخيلة البدائية كي تمحو شريحة طويلة من الماضي"[3]، ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها هي حدوث الطوفان، فإن ترديد هذا الحدث ضمن الأساطير يؤكد وقوع الطوفان "وأنه كان بالأصل حدثاً تاريخياً واقعياً حدث في طيات الماضي البعيد وكان من جسامة التأثير وقدامته أنه ترك أثراً بليغاً في عقول الأجيال المختلفة فتناقلته بالروايات الشفوية وشوهت تفاصيلة الواقعية"[4].

---

(1) (الجثام) فضل عبد الله، الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى: سبر في التاريخ القديم، ط1، منشورات علاء الدين، دمشق، 1999، ص 384.

(2) (الجوراني) وداد، الرحلة إلى الفردوس والجحيم في أساطير العراق القديم، دار الشئون الثقافية، بغداد، 1998، ص 84.

(3) (ديورانت) ول، قصة الحضارة: نشأة الحضارة ـ الشرق الأدنى، ترجمة: د. زكي نجيب محمود ومحمد بدران، المجلد الأول، 1/ 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001، ص 368.

(4) (باقر) د. طه، ملحمة كلكامش، منشورات وزارة الإعلام، بغداد، 1975، ص (25-26).

لقد أخطأ "وولي" (Woolly) عندما اعتبر بجرأة بالغة، أن الطوفان المذكور في الكتاب المقدس هو نفسه الفيضان الذي حدث في أور العراقية.

فقد عثر "وولي" (Woolly) في حفائره في أور على طبقة من الغرين السميك الذي يقدر بحوالى ثمانية أقدام، والذي اعتبره دليلاً مادياً على الطوفان السومري نظراً لكثافة تلك المنطقة الغرينية، وتوافقها الزمني إلى حد كبير مع النصوص السومرية. لكن يلاحظ أن الآثار الواقعة فوق وتحت الطبقة الغرينية تنتمي إلى عصر حضارة العبيد، وهذه تمثل عصر ما قبل الأسرات الأول في جنوب العراق. وقد اتجه "وولي" إلى الحفر في موقع قريب من أور يبعد حوالي ثلاثمائة ياردة إلى الشمال الغربي للبحث عن مدى امتداد تلك الطبقة الغرينية. فتأكد لديه ذلك عندما وصل في الحفر إلى تلك الطبقة، وعلى ذلك اتجه إلى القول بوجهه نظره في ارتباط تلك الطبقة الغرينية السميكة بالطوفان الذي ذكرته الكتب المقدسة.

وينتقد هذه النظرية الباحث "د. الناضوري" بقوله: ولكن الواقع أنه لا ينبغي الجزم بصورة حاسمة في هذا الشأن فإن جنوب العراق القديم قد واجه الكثير من الفيضانات والطوفانات، فقد عثر على أدلة غرينية أخرى لفيضان كبير في شروباك وينتمي إلى نهاية عصر جمدة نصر، وفيضان آخر في كيش متأخر زمنياً عن الفيضان السابق. وإذا حاول الدارس المقارنة بين تلك الفيضانات وأيهما هو الذي يتفق مع قائمة الملوك السومرية، فيصعب البت بصورة نهائية في هذا المشكل، فبينما فيضان شروباك يعتبر قريباً من مضمون نص قائمة الملوك السومرية التي أشارت إلى مدينة شروباك كآخر مدينة قبل حادثة الطوفان، فإنه من ناحية أخرى يلاحظ أن طوفان أور ذو الطبقة السميكة للغاية ليسترعى الانتباه بصورة خاصة ولا ينبغي استبعاده كلية، إلى أن تنفتح الأدلة الأثرية بصورة أكثر وضوحاً. هذا بالإضافة إلى أن عدم العثور على الطبقة الغرينية الموازية في كافة المدن السومرية، لمّا يدفع إلى الاتجاه باحتمالية كون الطبقة الغرينية التي كشف عنها "وولي" في موقع أور هي مجرد ترسيب محلي، وليست لها الصفة

الشاملة. من ذلك كله يتبين أن تلك الحادثة البيئية المحلية كان لها تأثيرها البالغ في المجتمع السومري مما أدى إلى اتخاذها كعلامة نقلة نحو بداية العصر التاريخي[1].

ويعتقد الأستاذ "بيك" بأن الطبقة التي عثر عليها "وولي" في أور والتي تفصل بين مستوطنات عصري العبيد وجمدة نصر هي ليست من طمي النهر، أي من ترسبات الفيضان، وإنما عبارة عن غبار وأتربة تكونت بفعل الزوابع الترابية التي تهب من المناطق الصحراوية المجاورة والتي تعتبر ظاهرة طبيعية ملحوظة في القسم الجنوبي من وادي الرافدين خاصة في موسم الصيف[2].

وقد استبعد "ملوان" أن يكون الطوفان الذي تتحدث عنه الوثائق المسمارية قد حدث في عصر العبيد لعدم وجود آثار لمثل هذا الطوفان في مدن أخرى خارج أور، في حين توجد آثار لطوفان عصر فجر السلالات في كيش وشروباك والوركاء ولكش، ولأن الطوفان الذي يتحدث عنه "وولي" يبدو بعيداً زمنياً بالنسبة للمآثر الكتابية التي عنيت بشكل واضح بأخبار الطوفان. ويحاول "ملوان" أن يقرب بين زمن نشوء الأسطورة زمن حدوث الطوفان، فيرى أن: "الطوفان الذي نحن بصدده الآن لابد وأنه كان قريباً في زمن وقوعه من عصر البطل كلكامش.... مما كان سبباً في ضم تفاصيله إلى ملحمة البطل". ويذهب "ملوان" إلى أكثر من ذلك عندما يفترض بأن أخبار الطوفان العظيم قد دونت في زمن الملك كلكامش نفسه (في حدود 2700 ق.م). لهذا يمكن الافتراض بكل بساطة أن الطوفان الذي جاء ذكره وذكر بطله أوتنابشتم في ملحمة كلكامش لابد وأنه وقع في الفترة المحصورة

---

(1) (الناضوري) د. رشيد، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، مرحلة التكوين والتشكيل الحضاري والسياسي من العصر الحجري الحديث حتى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، دار مكتبة الجامعة العربية، بيروت، 1968، ص (225-226).

(2) (علي) د. فاضل عبد الواحد، الطوفان في المراجع السماوية، ط1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، 1999، ص 82.

بين عصر الملك كلكامش كحد تاريخي أدنـى (Terminus ante Quem) وعـصر أوتنابشتم بطل الطوفان كحد تاريخي أعـلى (Terminus Post Quem). وبـذلك يتوصل "ملوان" إلى أن آثار الطوفان موضوع البحث وجدت في كيش[1].

وهناك فرضية أخرى، وهي أن الطوفان الكبـير الـذي تـذكره النـصوص المسمارية هو حالـة امتـداد البحـر وغمرهـا لأقـسام واسـعة مـن أرض جنـوب العراق!! وهـي النتـائج التـي قـدمتها بحـوث سـفينة ميتيـور (كـما سـنرى) ــ واستهدفت الناحية التكوينية والأحوال الطبيعية والمناخية في الخليج العربي منـذ 14000 سـنة قبـل المـيلاد، وإلى حـدود 3500 ق.م. وقـد أشـارت الدراسـة الجيولوجية إلى تأثر الأقسام الجنوبية من العـراق بـسبب التغـيرات التكوينيـة أو المناخية التي تعرض لها الخليج العربي. وجاء في الدراسة ما يلي:

* انتهت دورة البرودة للعصر الجليدي الرابـع (فيـورم) في حـوالي 14 – 13 ألف سنة قبل الميلاد. وكان مـن نتيجـة ذلـك أن عـادت مـستويات البحـار والمحيطات لحالتها الطبيعيـة بعـد أن كانـت قـد انـسحبت بـسبب الامتـدادات الواسعة للثلوج على سطح الأرض خلال العصر الجليدي بحيث أنها تـسببت في انخفاض مستويات مياه البحار والمحيطات حوالي 110 أمتار.

* وبما أن مياه الخليج العربي لا يتجاوز عمقها 100 متر. فقـد كانـت المنطقة التي يشغلها الخليج حالياً، منخفضاً جافاً خلال فترة العصر الجليدي (فيـورم) وإلى نهايـة فـترة ذروة الـبرودة. لـذلك كـان نهـر دجلـة والفـرات يواصلان جريانهما من منخفض الخليج العربي ويـصبان عنـد سـواحل شـبة جزيرة عُمان.

* أعقب فترة الزحف الجليدي عملية ذوبان واسـعة وتدريجيـة، فبـدأت مستويات المياه في البحار والمحيطات بالارتفاع. وبدأت معهـا عمليـة الغمـر في الخليج العربي إلى أن بلغ مستوى مياهه الحالية بحدود عام 5000 ق.م.

---

(1) **الطوفان في المراجع السماوية، مصدر سبق ذكره، ص (84-85).**

* وشهدت الفترة المحصورة ما بين 5000 – 3500 ق.م ذروة مناخية حارة، نجم عنها زيادة في مستويات مياه الخليج العربي إلى حوالي 3 متر، فغمرت مياه الخليج مناطق واسعة أضافية من السواحل الغربية، كما امتدت المياه صوب الأقسام الجنوبية الغربية في العراق، وإلى حدود أور وأريدو، ثم عادت المياه إلى شكلها الحالي في حدود عام 3500 ق.م[1].

في الحقيقة إن جميع هذه الفرضيات التي جئنا على تلخيصها حاولت تقديم دليل أثري عن الطوفان. وكلها قائمة على أساس أن الطوفان حدث بفعل ارتفاع مناسيب المياه في دجلة والفرات أو بسبب ذوبان الثلوج.

وفي ذلك يقول "د. فاضل عبد الواحد علي": والملاحظ عن الطوفان في النصوص المسمارية (وفي التوراة أيضاً) أنه لم يكن ناتجاً عن ارتفع مناسيب الأنهار بقدر ما كان بسبب هطول الأمطار الغزيرة وتدفق مياه العمق "أبسو" التي كان مسؤولاً عنها الإله إنكي (أيا). وفي الحقيقة لم يكن الفيضان النهري حتى في حساب كاتب قصة الطوفان البابلية بدليل أن سفينة رجل الطوفان اوتنابشتم قطعت مسافة 450كم باتجاه معاكس لتيار نهري دجلة والفرات لترسو في شمال القطر وعلى قمة جبل ارتفاعه 9000 قدم. ولهذا فإنه من غير المستبعد، كما لاحظ بعض الباحثين، أن التفاصيل التي دونها الكتاب السومريون والبابليون عن طوفان حدث في عصر فجر السلالات المبكر، إنما تعكس في نفس الوقت رواسب بعيدة في القدم مما علق بذاكرة البشرية عن طوفان أو أكثر حدثت في عصر البلايتوسين الذي يتميز بأمطار غزيرة في الشرق الأدنى وبانجماد كثيف في أوربا[2].

كما أن الطوفان حسبما وصفته نصوص القرآن الكريم لم يكن فيضان أنهار، ولم يرد أي ذكر لأي نهر قد فاض، فقد ورد في القرآن الكريم أن الطوفان

---

(1) (هاشمي) د. على، آثار الخليج العربي والجزيرة العربية، بلا دار نشر، ولا مكان نشر، 2000، ص (105-106).

(2) الطوفان في المراجع السماوية، مصدر سبق ذكره، ص 87.

حدث نتيجة لهطول أمطار غزيرة وتفجر عيـون المـاء مـن الأرض قـال تعـالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ ﴾ [سورة القمر: 11-12].

كذلك نستبعد تماماً احتمالية وجود قرية نوح في جنوب العـراق لأنهـا لـو كانت هناك وحدث الطوفان. لم تحدث تيارات ماء لعدم وجود انحدارات تؤدى إلى جريان الماء كالجبال قال تعـالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ [سورة هود: 42].من سياق هذه الآية يتضح أن المنطقة كانت فيها مرتفعات على شكل هضاب، ولذلك تولد تيار مائي.

وبذلك أصبح من الواضح الآن أن كل التفسيرات التي ذهبت إلى وجـود آثار لطوفان هائل في العراق كلها غير دقيقة ولا يمكن الاعتقـاد بهـا أو الاقتنـاع بها لافتقارها إلى الأدلة.

الفصل الخامس

الطوفان القرآني

إن استشهادنا السابق بالرواية التوراتية للطوفان لا يعني قبولها واعتمادها كلياً، فقصة الطوفان الواردة في التوراة اكتنفتها الأخطاء والمغالطات، فجاءت كأنها أسطورة على عكس النص القرآني الذي حافظ على تماسكه وإعجازه، وقد استطاع اليهود حجب المعلومات التاريخية فيها، فهم يعتبرون التوراة هي (عهد الله لشعبه الذي اختاره). وبعيداً عن إعادة حادث الطوفان، فإن التوراة ذكرته، لا كما ذكره القرآن المجيد، لكنها تتفق معه في بعض التفاصيل منها ورود شخصية نوح في الروايتين، ومن أنه قاد السفينة أثناء الطوفان الذي هو عقوبة الرب، وأنه حدث نتيجة هطول أمطار غزيرة وخروج الماء من الينابيع، الذي ارتفع إلى أعلى نقطة موجودة، وأن السفينة استقرت على جبل وهي تحمل من كل زوجين اثنين.

لكن الاختلافات بين التوراة والقرآن ليست هينة يمكن التغاضي عنها، فالتوراة تصور اليهود على أنهم (أبناء الله وأحباؤه)، وان الخالق (يندم!) على خلق البشر! كما تعمم الطوفان على جميع البشرية وكأنه الله تعالى عاقب البشرية وليس قوم نوح! كما أن النص القرآني لم يذكر أسماء أبناء نوح بعكس التوراة التي ذكرتهم، وذكرت أن زوجة نوح كانت معه في السفينة، بينما يؤكد القرآن استبعادها لأنها من القوم الكفارين، كما حددت التوراة عمر نوح بستمائة عام عندما حدث الطوفان، ولم يتطرق النص القرآني إلى أي تحديد من هذا النوع.

والقرآن الكـريم لا يعطينـا عـن الطوفـان روايـة متـصلة تقـع في سـطور وصفحات متتالية من القرآن الكريم من بداية الروايـة حتـى نهايتهـا بـل تتنـاثر الأخبار بشأن الطوفان كما تتناثر بشأن غيره من قصص القرآن في مواضع متفرقة وفي سور متعددة من القرآن الكريم. ففي الأعـراف ويـونس وهـود والمؤمنـون والأنبياء والشعراء والعنكبوت والصافات والقمر، وأنزل فيه سورة كاملة.

قال تعالى في سـورة الأعـراف: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف: 59–64].

وقال تعالى في سورة يـونس: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة يونس: 71–73].

وقال الله تعالى في سـورة هـود: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن

يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ
أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ
ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ
جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ
وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن
يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ
إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا
مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا
تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن
قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ
تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا
وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ
ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ
رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي
مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي
مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ
مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ
وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ
ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ
أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ
ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي
وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ
أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ
ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ
لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة هود: 25–49].

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [سورة الأنبياء: 76-77].

وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة المؤمنون: 23-30].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾[سورة الشعراء: 105-122].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (سورة العنكبوت: 14-15).

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (٧٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (٨٢) ﴾ (سورة الصافات: 75-82).

وقال تعالى في سورة القمر: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾ (سورة القمر: 9-17).

قال تعالى في سورة نوح: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا (٢٤) مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ

يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ﴿٢٨﴾﴾ (سورة نوح: 1-28).

وقال تعالى في سورة التوبة: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ (سورة التوبة: 70).

وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾﴾ (سورة إبراهيم: 9).

وقال تعالى في سورة ص: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ (سورة ص: 12-14).

وقال تعالى في سورة غافر: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾ (سورة غافر: 5-6).

وقال تعالى في سورة ق: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ﴿١٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ (سورة ق: 12-14).

وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (سورة الذاريات: 46).

وقال تعالى في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ (سورة النجم: 50-52).

من هذه الآيات البينات يمكننا أن نتوصل مبدئياً إلى أن الله سبحانه وتعالى أخبر نوحاً بأن عاقبة قومه المارقين ستكون الغرق، ولهذا فعليه أن يصنع سفينة،

ويحمل قومه المؤمنين ومن الحيوانات من كل زوجين اثنين. فصنع نوح السفينة بوحي من الله وتحت رعايته، وجاء الطوفان وأغرق قومه الكافرين وفيهم ابنه، غير أن الباحث يتوقف في النقط التالية:

إن القرآن الكريم يحدد مفهوم الطوفان باعتبار أنه عقوبة من الله للكافرين من قوم نوح لعنادهم وعدم قبولهم دعوة نوح لهم للإيمان، وتمسكهم بعبادة الأصنام. هذا على حين تحدثنا التوراة عن الطوفان كعقوبة من الله دمرت العالم كله لعقاب لكل البشرية.

إن الطوفان لم يغط اليابسة كلياً، ولو كان كذلك لما أشارت جميع الآيات السابق بيانها إلى أن الذين أغرقوا بالطوفان هم قوم نوح: ﴿قوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم﴾، ﴿وإنا أرسلنا نوحاً إلى قومه. . . مما خطيئاتهم أُغرقوا﴾، ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه . . . فأخذهم الطوفان﴾ .

علاوة على ذلك، لو كان الطوفان والغرق عالمياً، لعجز نوح عن إحصاء جميع الحيوانات التي تدب على الأرض، قال تعالى: ﴿ . . . قلنا أحمل فيها من كل زوجين أثنين . . . . ﴾ (سورة هود:40) . فكيف كان يتسنى له أن يطوف في الأرض ليحضر من كل زوجين اثنين! وكم سيستغرق من الوقت من أجل إنجاز هذا العمل غير المنطقي!؟ وهل يمكن أن يتصور أن بمقدور الإنسان أن يجمع من كل أنواع المخلوقات على وجه الأرض زوجين!؟ ونحن نعلم أن كل بيئة فيها أنواع من الحيوانات تتلاءم حياتها مع هذه البيئة. إذن فكان الأمر الإلهي أن يجمع من كل زوجين اثنين ما كان في بيئة نوح من حيوان للحفاظ على نسله.

وبالرغم من قناعتنا هذه قد يتبجح بعض فقهائنا وشيوخنا المتسولين قائلين هناك آيات تثبت أن الطوفان كان عالمياً، وأنه أغرق الأرض. ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾، ﴿وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾ . ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي﴾ . نعم قد يُفهم لأول وهلة من هذه الآيات أن الطوفان أغرق الأرض، ولكننا لو أمعنا التفكير قليلاً، ورأينا السياق الذي

ترد فيه هذه الآيات لتبين لنا أنها تتكلم عن قوم نوحٍ. فالسياق الـذي وردت فيه الآية ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾ جـاءت في سـورة نـوح السابق بيانها، والتي يتكرر فيها التصريح بأن المقصود هم "قوم نـوح"، قـال تعالى: ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم. قال يا قوم إني لكمٍ نذير مبين﴾ . إذن فالآية التي تقـول﴿ رب لا تذر على الأرض منٍ الكافرين ديارا﴾ تعني أرض قوم نوح فقـط. أمـا الآيـة ﴿وفجرنا الأرض عيوناً فالتقي الماء على أمر قد قدر﴾ . مثل سابقتها فقـد وردت في سـورة القمـر في سياق الحديث عن قوم نوح، وبعد قوله تعالى: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر﴾ . وتشير الآية ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي﴾ إلى قوم نوح أيضاً، فقد جاءت بعد عده آيات تحصر التعامل مع قوم نوح، في سورة هود. ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه. . . ﴾، إذن فـالأرض هنـا أيضاً المقصود بها، أرض قوم نوح، ولا تعني العالم بأجمعه.

إذن نستطيع أن نخلص من ذلك بكل ثقة واطمئنان إلى أن القرآن الكـريم يقدم لنا كارثة (الطوفان) باعتبار أنها عقـاب أنزلـه الله سـبحانه وتعـالى بـشكل خاص على الكافرين من قوم نوح. وهذا الاعتبار المهم يشكل الفارق الأسـاسي بين رواية التوراة عن الطوفان ورواية القرآن عن الطوفان.

أن القرآن الكريم لا يصرح ولا يفصح أبداً عن تاريخ ووقت محدد لوقوع كارثة الطوفان، هذا عـلى حـين تحـدثت التـوراة عـن أكثـر مـن زمـان لحـدوث الطوفان.

أما عن محتوى سفينة نوح فقد حددها القرآن بشكل دقيق في رواية واحدة بقوله تعالى: ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا أحمل فيها من كل زوجين أثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾(سورة هود: 40) .

أما عن كيفيـة حـدوث الطوفـان فهـي تقريبـاً واحـدة في روايـة التـوراة وفي روايــة القــرآن الكــريم، فالطوفــان حــدث نتيجــة هطــول الأمطــار وتفجر عيون الماء.

وهكذا يمكننا أن نخلص في نهاية الأمر إلى وجود وجوه مهمة للاختلاف بين رواية القرآن عن الطوفان ورواية التوراة عن الطوفان، وذلك في أمور أساسية مهمة.

وهنا يبرز سؤال مهم هو: أين كانت أرض قوم نوح!؟ وأين جنحت سفينة نوح!؟ الجواب أنه لا يوجد في الوقت الراهن إلا القرآن الكريم الذي نستطيع أن نستنبط من آياته بعض المعالم الأساسية لتحديد جغرافية الطوفان ورسو السفينة.

الفصل السادس

أين كانت أرض قوم نوح!؟

ليس من السهولة أن نحدد المكان الذي ظهر فيه نوح، ولا يوجد في الوقت الحاضر إلا النصوص القرآنية التي نستطيع أن نستنبط من آياتها وصف معالم المكان.

فقد كانت لقوم نوح أصنام قد عكفوا عليها قص الله تبارك وتعالى خبرها على رسولنا الكريم قال تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۝٢٤ ﴾[سورة نوح: 21-24].

إن نظرة إلى أصنام قوم نوح، قد تساعدنا على تعيين أرض قوم نوح بكل معالمها التي نجهلها الآن، قال "ابن عباس" عند تفسير قوله تعالى: ﴿وقالوا لا تذرون آلهتكم ولا تذرون وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسر﴾ هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عبدت. قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد. وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق[1].

---

(1) (ابن كثير) أبو الفداء إسماعيل، قصص الأنبياء، تحقيق: أبي عمار مراد بن عبد الله، ط 2، دار الدعوة الإسلامية، شبرا الخيمة، 2000، ص 57.

ويذكر "الطبري" في تفسيره: إن هؤلاء نفراً من بني آدم فيها ذكر عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها، وكان من خبرهم فيها بلغنا ما حدثنا ابن حميد قال ثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس: ويعوق ونسراً قال كانوا قوماً صالحين من بني آدم وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم[1].

وقد كان من هذه الأصنام ما هو على صورة الإنسان، ومنها ما هو على صورة الحيوان، وكان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر[2].

ود

وهو صنم لكلب بن وَبْرُة من قضاعة، اتخذوا وداً بدومة الجندل. قال ابن اسحق:

وقال كعب بن مالك الأنصاري:

وَنَنْسَى اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَوَدًّا

وَنَسْلُبُهَا الْقَلاَئِدَ وَالشُّنُوفَا[3]

ويقال إن عمراً ابن لحى استقدمه مع ما استقدم من الأصنام من شط جدة وأتى تهامة ودفعه إلى عوف بن عذرة بن كلب بن قضاعة، فحمله هذا وأقرَّه

(1) (الطبري) محمد بن جرير أبو جعفر، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الجزء التاسع والعشرون، دار الفكر، بيروت، 1405 هـ، ص (98-99).

(2) (الحوت) محمود سليم، الميثولوجيا عند العرب، ط2، دار النهار للنشر، بيروت، 1979، ص 57.

(3) (ابن هشام) أبي محمد عبد الملك، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، الجزء الأول، المجلد الأول، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1981، ص83.

بدومة الجندل، وسمّى ابنه عبد ود، وجعل عامراً ابنه سادناً له، ولم تزل بنوه يسدنونه حتى جاء الإسلام وقيّض عبادته[1].

ويصف "مالك بن حارثه الكلبي" وداً بقوله: كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، قد ذُبر عليه حُلّتان، مُتَّزر بحُلّة، مُرتد بأخرى، عليه سيف قد تقلَّده وقد تنكّب قوساً، وبين يديه حربة فيها لواء، ووفضة فيها نبل[2].

ويقال إن (ود) معناه: حب، كان رمزاً للحب الإلهي ضد الحب الجنسي. ورجح بعض الباحثين أن دوار العرب (طوافهم) بهذا الإله كان له صلة بشعيرة الحب المقدسة، لاسيما العلاقة الخفية بين دوار العذارى بالموضع المقدس من الصنعة والحب ونذوره.

وذلك ما التمسوه في قول "امرئ القيس":

فَعَنَّ لنا سِرب كأن نِعاجَهُ

عَذَارَى دوَارٍ في المُلاءِ المُذيلِ

كما التمسوا هذه العلاقة أيضاً في أبيات (الحادرة) وهو يكشف عن ترصده للقاء الحبيبة (سمية) يوم (الدوار) راجياً الفوز بقلبها، كرجاء المقامر أن يدور له القمر، إذ يقول:

أمستْ سُمَيةُ صرَّمتْ حَبلي

ونأتْ وخالفَ شَكلُها شَكْلي

وعَدا العَوادي عن زيارتها

إلا تَلاقِينا على شُغْلِ

---

(1) (الكلبي) أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب، الأصنام، تحقيق: أحمد ذكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1956، ص 55.

(2) المصدر نفسه، ص 56.

وَرَجَاهُمُ يومَ الدوارِ كَما

يرجو المُقامِرُ نَيِّل الخَصْلِ

وقد أشار "النابغة الذبياني" إلى هذا الإله بوصفه "الإله العاشق والمعشوق معاً" في معرض محاورة بينه وبين صاحبته، جاء فيها قوله:

قَالتْ: أراكَ أَخاَ رَحْلٍ وراحِلةٍ

يَغْشَى متالِفَ لن يُنْظِرْنَك الهَرَما

حَيَّاكِ وَدٌّ فإنَّا لا يَحِلُّ لنا

لهوُ النساء وإنّ الدّينَ قد عَزَما

مُشمَّرين على خُوصٍ مُزمّمةٍ

نرجو الإلهُ ونرجو البِرَّ والطّعما

وأكد "عمرو بن قميئة" علاقة الإله (ود) بالحب، في قوله:

بَودّكِ ما قَومي على أنْ تركتِهِمْ

سلُيمى إذا هَبَّتْ شَمال وريحُهَا[1]

ويفسر "ابن المنظور" هذا البيت بقوله: "فمن رواه بودك أراد بحق صنمك عليك، ومن ضم أراد بالمودة بيني وبينك"[2]

ويشير "د. خليل يحي نامي" في كتابه (العرب قبل الإسلام: تاريخهم، لغاتهم، آلهتهم) إلى الإله (ود) بقوله: يرمز ود للإله القمر، وهو عند المعينين كما نجده أيضاً عند شعوب جنوب بلاد العرب، كما نجده أيضاً عند اللحيانيين، ففي الحضرمية نجد (ودم)، وفي اللحيانية (أفكل ود = كهنة ود). وكان صاحب

---

(1) (النعيمي) د. أحمد إسماعيل، الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، ط1، سينا للنشر، القاهرة، 1995، ص 56.

(2) (ابن المنظور) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري، لسان العرب، الجزء الثالث، ط 1، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص 455.

ود صاحب اللقب الرئيسي لهيكل ديـدان. ونجـد ودم أسـماء أعـلام في المعينيـة والقتبانية والسبئية[1].

وجاء في كتاب (تاريخ ثمود) للدكتور "ألبير فان دين" ما يلي: "ود: تعنى الكلمة، حب، صديق، إنه الإله القمري المضيء، غير أننـا نجـده لـدى شـعوب الجزيرة العربية كلها، ويرى "ستاركي" أن (ود) نعت قـديم أصـبح اسـماً إلهيـاً. ولقد عبده اللحيانيون في ديدان حيث كان معبده، وتؤكـد لنـا المـصادر العربيـة أيضاً أن العرب القدامى قد وهبوه حَرماً في واحة دومة الجندل، وفي دونة قـرب جدّة. وتضيف هذه المصادر أيضاً أن (ود) كان إنساناً رفـع إلى درجـة الألوهيـة وقد تمثل على شكل بشر يلبس معطفاً مضاعفاً ويحمل سـيفاً وقوسـاً. لقـد ذكـر (ود) مرات عديدة في النصوص الثمودية. ولقد ورد التركيب (ود أب) مراراً في الجنوب. ووجدناه مرات عديدة في النقوش الشمالية على شكل اسم علم أيضاً.

كان الناس يسمون: (مطر. ود) و(عطـاء. ود) و(خـادم. ود) إضـافة إلى إعلانه أباً. فقد أعلن إلهاً أيضاً (ود. ايل). كما شكر في أحد الأدعية بسبب تدخله (لقد أنقذت يا ود، حبيبي).

أما "د. نيلسن" فقال عنه: وعـلى النقـيض مـن الشخـصيات المحـسوسة لبعض الآلهة نجد شخصيات أخرى قـد تكـون أكثـر وأعـم لهـا دلالـة معنويـة أصبحت آلهة. ومن أعمها الاسـم (ود) بـضم الـواو أو فتحهـا، وتعنـي اللفـظ (حب) وقد أعاده "نيلسن" إلى الحضارة المعينية بالذات.

كما قال بأن الاسم (ود) لا يعنـي الحـب بـل (المحـب) قياسـاً للفـظ الجنـوبي (حكم) الذي معناه الأصلي ليس (حكمة) بل (الحكيم). كما جاء هذا الإلـه في نقـش لـ"جلازر" رقم 3249 في لوح من البرونز، اشتراه من صنعاء، وهو محفـوظ الآن في دار العاديات ببرلين "قدم عبد أصدق وأبناؤه.... إلى إلـه القمـر (ود) (ودم شـهرن) هذا النقش وهذه المبخرة عوضاً عن المبخرة التي سرقت من مقامه...".

---

(1) (نامى) د. خليل يحي، العرب قبل الإسـلام: تـاريخهم ـ لغـاتهم ـ آلهـتهم، دار المعـارف، مكتبـة الدراسات الأدبية (98)، بلا تاريخ، ص (143-144).

فهنا نجد أن (ودم شهرن) يعني (ود شهران أي إله القمر ود أو ود القمر). وقد وصف (ود) في نقش معيني من برقيش (هليغي 504 السطر الثاني) و(هومل النصوص العربية الجنوبية ص 95) كيف أن (عم) وصف باسم (ي ع ن) أي النامي (القمر) فربما يدل ذلك على أنه وصف كأنه إله القمر... فـ(ود) هو اسم إله القمر العربي.

وقد ورد لفظ (ود) كثيراً في الثمودية كتحية وكإله وجد في النصوص اللحيانية. ففي النقش اللحياني (جوسان وسفنياك رقم49)، نجد (عبد ود) أي كاهن ود[1].

ويذهب "د. جواد علي" في سفره الرائع (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثاني) إلى القول: نعت (ود) في بعض الكتابات بنعوت مثل (الاهن) (إلهن) أي (الإله)، و(كهلن) (كاهلن) (كهلان)، أي (القدير) (المقتدر). وكتب اسم (ود) بحروف بارزة على جدار القرية [قرية الفاو]، وذلك يدل على عبادته في هذه البقعة. ويرمز (ود) إلى القمر، بدليل ورود جملة: (ودم شهرن)، (ودم شهران) أي (ود الشهر) في بعض الكتابات. ومعنى كلمة (شهرم) (شهر / الشهر)، القمر. وتمثل هذه الآلهة المعينية ثالوثاً يرمز إلى الكواكب الثلاثة: الزهرة، والشمس، والقمر.

ويلاحظ أن الكتابات المعينية الشمالية، أي الكتابات المدونة بلهجة أهل معين التي عثر عليها في أعالي الحجاز، لا تتبع الترتيب الذي تتبعه الكتابات المعينية الجنوبية نفسه في إيراد أسماء الآلهة[2].

ويستطرد "د. جواد على" في جزئه السادس بقوله:"ويظن أن لفظ (ود)، ليست اسم علم للقمر، بل هي صفة من صفاته تعبر عن الود والمودة. فهي من

---

(1) (سكيف) علي، الحلقة المفقودة في سلسلة الحضارات القديمة للجزيرة العربية، ط1، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، دمشق، 2002، ص (63-65).

(2) (علي) د. جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثاني، ط 2، دار العلم للملايين ــ بيروت، مكتبة النهضة ـ بغداد، 1977، ص 115.

الأسماء الحسنى للقمر إذن"[1] ويضيف بقوله: "والإله (ود) هو إله معروف عند الثموديين، وقد تودد إليه عباده المؤمنون به، فذكروه في كتاباتهم، ورمزوا إليه بصورة (حية)، كما رمز إليه الجنوبيون بصورة رأس ثور. وقد تعبر صورة الحية عن الروح التي في بدن الإنسان"[2].

ويقول صاحب (لسان العرب) "ابن المنظور": (الود) صنم كان لقوم نوح ثم صار لكلب وكان بدومة الجندل. وكان لقريش صنم يدعونه وداً، ومنهم من يهمز فيقول أد، ومنه سمي عبد ود، ومنه سمي أد بن طابخة. وأدد جد معد بن عدنان. وقال الفراء قرأ أهل المدينة ﴿ ولا تذرون وداً ﴾ بضم الواو قال أبو منصور أكثر القراء قرأوا وداً منهم أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم ويعقوب الحضرمي، وقرأ نافع وداً بضم الواو ابن سيده. وود صنم وحكاه ابن دريد مفتوحاً لا غير. وقالوا عبد ود يعنونه به وود لغة في أد وهو ود بن طابخة-التهذيب[3]

وهكذا تتضح الاستمرارية التاريخية للمعبود العربي القديم حتى ظهور الإسلام، فقد انتشرت عبادته في نطاق الجزيرة العربية والشام وبلاد ما بين النهرين وكريت انتشاراً واسعاً. لكن القبائل العربية مع ذلك رسمت أُد هذا في صورة (أدّد) كما في قوائم الأنساب. وقالت عنه أنه والد (عدنان) بل أن بعض القوائم تجعل من أُدّ ابناً لـ(أدّد) كما عند "الشامي" وصاحب (الروض العاطر)، وبعضها يجعل له أمَّاً حميرية هي من سلالة ملوك اليمن. لكن طريقة رسم الاسم في صورة أدّد، بمضاعفة الحرف الثاني تؤدي في الواقع، إلى تماثلِ مع اسم الإله الأشورى الكبير (أدّد) الذي حمله ملوك آشور مثل: أدّد ـ نيراري الثالث. وأكثر من ذلك، فإن هذا الاسم يردُ في ملحمة كلكامش كاسم لإله البطولة

(1) (علي) د. جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء السادس، ط 2، دار العلم للملايين ـ بيروت، مكتبة النهضة ـ بغداد، 1977، ص 293.

(2) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء السادس، مصدر سبق ذكره، ص313.

(3) لسان العرب، الجزء الثالث، مصدر سبق ذكره، ص 455 .

عند البابليين، فهو الذي منح كلكامش صفاته البطولية وثبت أقدامه كبطل، كما ورد في السجلات والألواح التي حصل عليها علماء الآثار في صيغة (هـدد) أو (هــدِّد) بوصفه إله الصواعق الغضوب المدمّر[1].

ويمكن الاستنتاج من سائر الروايات الإخبارية العربية والشعر القديم، أنّ ودٍّ كان ـ بالفعل ـ معبوداً ضارباً في القِدم من معبودات القبائل، بمعنى أنه كان من أصنام نوح ومن معبودات الطوفان الأسطوريّ. وهذه بالضبط هي فكرة البابليين والآشوريين عن كون أُدّ هو من آلهة الطوفان، لأنه كان إله المياه والأمطار الغزيرة، وهو المسؤول عن الفيضانات كما في كتابة تركها حمورابي[2].

وقد ذكر "الكلبي" أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أمر خالد بن الوليد بهدمه فحالت بينه وبين هدمه بنو عبد ود، فقاتلهم وهدمه وكسره، وكان فيمن قتل قَطَنُ بن شرُيح أحد بني عبد ود، فأقبلت أمُّه تقول:

يـا جامعـاً، جـامعَ الأحـشاءِ والكَبِـدِ

يـا ليـت أمَّـك لم تولـد ولم تَلِـدِ[3]

ويبدو أن هذا الصنم [ود] كان ضارباً في أعماق التاريخ، فعبادته أعم مما ذكره "الكلبي" وأشمل، وأقدم في تاريخ الشرق وأوغل.

سواع

من الأصنام التي ورد ذكرها في سورة نوح، ولم نعثر في المظان والمراجع ما يفيدنا بشيء ذي بال عن هذا الصنم، سوى شذرات قالها الإخباريون العرب،

---

(1) (الربيعي) فاضل، شقيقات قريش: الأنساب الزواج والطعام في الموروث العربي، ط1، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 2002، ص (470-471).

(2) المصدر نفسه، ص 478.

(3) الأصنام، مصدر سبق ذكره، ص 56.

يقول "ابن هشام" في ـ سيرة النبي(ﷺ) أن "هـذيل بـن مدركـة بـن إليـاس بـن مضر، اتخذوا سواعاً"[1].

أما "الكلبي" فيشير إلى أنه "كان يُعبد بُرهاط من أرض يَنْبُـع في أعـراض المدينة وكانت سدنَتُه بنو لحيان"[2] وفي ذلك يقول رجل من العرب:

تـــــراهم عنـــــد قبلـــــتهم عكوفـــــاً

كـــما عكفـــت هـــذيلُ عـــلى سُـــواع[3]

ونفهم من ـ لسان العرب ـ أن "سـواع: اسـم صـنم كـان لهمـدان وقيل كان لقوم نوح عليه السلام ثم صار لهذيل وكان برهاط يحجون إليه قال الأزهري.اسم صنم عبـد زمـن نـوح عليـه الـسلام فغرقـه الله أيـام الطوفان ودفنه فاستثاره إبليس لأهل الجاهلية فعبدوه، وسواع اسـم مـن أسماء الجاهلية"[4]

وينفرد "د. جواد على" بـذكر روايـة نـسبها إلى أهـل الأخبـار تقـول: أن "غاوي بن ظالم السلمي" كان عند الصنم [سواع] إذا أقبل ثعلبان يشتدان حتـى تسنَّماه، فبالا عليه، فقال:

أَرَبٌّ يبـــــــول الثعلبـــــــان برأســـــــه

لقـــد ذلَّ مـــن بالـــت عليـــه الثعالـــبُ

وكسره ولحق بالنبي(ﷺ)[5].

---

(1) سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، الجزء الأول، المجلد الأول، مصدر سبق ذكره، ص 83.

(2) الأصنام، مصدر سبق ذكره، ص 10.

(3) (الألوسي البغدادي) السيد محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، الجـزء الثـاني، عنى بشرحه وتصحيحه وضبطه، محمد بهجه الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، بـلا تـاريخ، ص 201.

(4) (ابن المنظور) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقـي المـصري، لـسان العـرب، الجـزء الثامن، ط 1، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ، ص 170.

(5) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء السادس، مصدر سبق ذكره، ص 259.

ويشير صاحب ـ لسان العرب ـ "ابن المنظور" إلى أن هذا الشعر هو لـ "أبي ذر الغفاري"، وقيل هو لـ "عباس بن مرداس السلمي" رضي الله عنهم[1].

يغوث

قال "ابن اسحق": وأَنْعُم من طيء وأهل جرش من مذحج اتخذوا يغوث بُجَرشَ[2] ويذكر "ياقوت الحموي" في سفره (معجم البلدان) أن يغوث: "عبادتها مذحج فدفع إلى "أنعم بن عمرو المرادي". وكان بأكمة باليمن يقال لها مذحج يعبده مذحج ومن والاها. ولم يزل في هذا البطن من مراد أنعم وأعلى إلى أن اجتمعت أشراف مراد وقالوا ما بال إلهنا لا يكون عند أعزائنا وأشرافنا وذوي العدد منا، وأرادوا أن ينتزعوه من أعلى وأنعم ويضعوه في أشرافهم فبلغ ذلك من أمرهم إلى أعلى وأنعم فحملوا يغوث وهربوا به حتى وضعوه في بني الحارث. ووافق ذلك مرادا أعداء الحارث بن كعب، وكانت مراد من أشد العرب فأنقذوا إلى بني الحارث يلتمسون رد يغوث إليهم، ويطالبونهم بدمائهم عليهم فجمعت بنو الحارث، واستنجدت قبائل همدان وكانت بينهم وقعة الرزم في اليوم الذي أوقع النبي (صلى الله عليه وسلم) بقريش ببدر. فهزمت بنو الحارث مرادا هزيمة قبيحة وبقي يغوث في بني الحارث. وقيل إن يغوث كان منصوباً على أكمة مذحج وبها سميت القبائل مراد وطيء وبلحارث بن كعب، وسعد العشيرة مذحجاً كأنهم تحالفوا عندها. وهذا قول غريب لكن المشهور أن الأكمة اسمها مذحج لأنهم ولدوا عندها فسموا بها والله أعلم وقاتل بني أنعم عليه بنو غطيف. فهربوا به إلى نجران فأقروه عند بني النار من الضباب من بني الحارث، فاجتمعوا عليه قاله ابن حبيب وقال أبو المنذر واتخذت مذحج وأهل جرش يغوث. وقال الشاعر:

---

(1) (ابن المنظور) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري، لسان العرب، الجزء الأول، ط 1، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ، ص 237.

(2) سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، الجزء الأول، المجلد الأول، مصدر سبق ذكره، ص 83.

وســــــار بنـــــا يغـــــوث إلى مــــــراد

فناجزنـــــــاهم قبـــــــل الــــــصباح[1]

يعوق

قال "ابن اسحق" وخَيْوَان بطن من هَمْدَان اتخذوا يَعُوقَ بأرض هَمْدَان من أرض اليمن[2] وقد ذكر "الحموي" أن خيوان من صنعاء على ليلتين مما يلي مكة[3].

نسر

قال "ابن اسحق" وذو الْكُلاَع من حمير اتخذوا نَسْراً بأرض حمير[4] ويقول "ابن الكلبي" أن حِميراً قد اتخذته وعبدته بأرض يقال لها بَلْخَع[5] وقد جاء في ـ معجم البلدان ـ لـ"الحموي" أن "نسر أحد الأصنام الخمسة التي كان يعبدها قوم نوح عليه السلام. وصارت إلى عمرو بن لحي ودعا القوم إلى عبادتها، فكان فيمن أجابه حمير، فأعطاهم نسرا ودفعه إلى رجل من ذي رعين يقال له معدي كرب فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخع فعبدته حمير ومن والاها فلم تزل تعبده حتى هودهم ذو نواس"[6].

وقد ذكر "ابن المنظور" أن نسر اسم لصنم. وقال عبد الحق:

---

(1) (الحموي) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، الجزء الخامس، دار صادر، بيروت، 1977، ص439.

(2) سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، الجزء الأول، المجلد الأول، مصدر سبق ذكره، ص 83.

(3) (الحموي) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، الجزء الثاني، دار صادر، بيروت، 1977، ص 415.

(4) سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، الجزء الأول، المجلد الأول، مصدر سبق ذكره، ص 84.

(5) الأصنام، مصدر سبق ذكره، ص 11.

(6) معجم البلدان، الجزء الخامس، مصدر سبق ذكره، ص 284.

أمــــا ودمـــــاء لا تـــــزال كأنهـــــا

عـــلى قنـــة العـــزى وبالنـــسر عنـــدما[1]

وقد عرف (نسر) بـصيغته الآراميـة (نـشراً) عـده التلمـود، وبعـض الوثـائق السريانية إلهـاً عربيـاً[2] لقـد اتخـذه الكهـان والعرافـون في حـضارة وادي الرافـدين القديمة أحد الفؤول التي تعينهم على التنبؤ بالغيب. فكانوا يقولون: "إذا مر نسر من جانب الملك الأيمن إلى الأيسر، فإن الملك سوف ينتصر أينما ذهـب.... وإذا أمـسك نسر بسمكة أو طير وحلق بهـا بعيـداً ثـم افتراسـها أمـام رجـل فـإن الأخـير سـوف يتعرض لخسارة، وإذا أكل نسر حمامة فوق سقف بيت رجل ثم ترك منهـا شـيئاً، فـإن صاحب الدار سوف يزداد ثراء".

كما ورد ذكره في أسطورة إيتانا التي خلاصتها أن النسر والثعبـان يقـسمان أيمان الصداقة المقدسة، لكن النسر يضمر الشر في قلبه، ويحنث بقـسمه، بـابتلاع أطفال الثعبان الذي شكاه إلى الإله (شماش) ليأخذ له بالثـأر، فتـدبر لـه مكيـدة فيقع في فخ ويكسر جناحاه، ثم يدفن في حفرة تحت الأرض، حتى خلصه إيتانـا لكي يطير به إلى السماء بحثاً عن نبات النسل[3].

ويشير "د. خليل يحي نامى" إلى أنـه مـن الآلهـة العربيـة القديمـة بقولـه: نِسَور: وهو قريب من لفظ (نسر) وجاء في القتبانيـة والـسبئية كـما جـاء (نَـسر) في السبئية[4]

وتشير مصادر الإخباريين العرب إلى أن قبيلة مـراد "كانـت تعبـد نَـسْراً، يأتيها في كل عام، فيضربون له خبـاء ويُقْرعـون بـين فتيـاتهم، فـأيتُهن أصـابتها القرعُة أخرجوها إلى النسر فأدخلوها الخباء معه، فيمزقها ويأكلها، ويُؤتى بخمر

---

(1) (ابن المنظور) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقـي المـصري، لـسان العـرب، الجـزء الخامس، ط 1، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ، ص 206.

(2) الميثولوجيا عند العرب، مصدر سبق ذكره، ص 57.

(3) الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، مصدر سبق ذكره، ص 205.

(4) العرب قبل الإسلام: تاريخهم ـ لغاتهم ـ آلهتهم، مصدر سبق ذكره، ص 146.

فَيشربه، ثم يخبرهم بـما يـصنعون في عـامهم ويطـير، ثـم يـأتيهم في عـام قابـل، فيصنعون به مثل ذلك". حتى اهتدوا المراديون إلى أن يقدموا له فتـاة مـن امـرأة همدانية كانت قد ولدتها لرجل منهم، ووافق ذلك قدوم خالها، فأخبرته أخته بـما صنع المراديون، وأنشدت تقول:

أتثنـــى مُـــراد عامَهـــا عـــن فتاتِهـــا

وتُهْـــدى إلى نَـــسْرٍ كريمـــة حَاشـــدِ

تُـــزَف إليـــه كـــالعروس وخالهـــا

فتـــى حـــيّ همـــدان عمـــير بـــن خالـــدِ

فـــإن تـــنم الخَـــوْدُ التـــي فُـــدِيت بنـــا

فـــما ليـــلُ مـــنْ تُهْـــدَى لنَـــسْر براقـــدِ

فدبر الهمداني مع أخته مكيدة، مكنته من أن يترك النسر قتيلاً، ثـم أخـذ أختـه وارتحل في ليلته، فعظمت المصيبة على مراد بقتل النسر، فكان أول ما هاج الحرب بـين همدان ومراد حتى حجر الإسلام بينهم، وفي ذلك يقول الهمداني (عمـرو بـن خالـد) قاتل النسر:

ومـــا كـــان مـــن نَـــسْر هِجَـــف قتلتـــه

بـــوادى حُـــرَاض مـــا تغـــذ مـــراد

أرحْـــتُهم منـــه وأطفـــأت ســـنةً

فـــإن باعَـــدونا فـــالقلوب بعـــاد[1]

هذا كله يعزز الرأي القائل:"أن نسراً إله عربي قديم"[2].

(1) الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، مصدر سبق ذكره، ص (206-207).
(2) (العلي) د. صـالح أحمـد، محـاضرات في تـاريخ العـرب، دار الكتـب للطباعـة والنـشر، جامعـة الموصل، بلا تاريخ، ص 190.

ويمكننا الآن أن نعين المكان الذي ظهر فيه نوح بكل معالمه الذي نجهلـه، فقد عرفنا من الآيات الكريمة السابق بيانها أن جميع أسماء الأصنام التـي عبـدها قوم نوح، هي معبودات عربية شـاعت عبادتهـا في شـبة الجزيـرة العربيـة. وقـد أكدت الرقيم الحجرية والكتابات التاريخية، والشعر الجاهلي ذلك.

على ضوء ما تقدم تقوى لدينا القناعة بأن تكون بيئة الجزيرة العربيـة هـي البيئة الأصلية لهذه الآلهة، لا أنها وفدت إليها أو منقولة من مكان آخر!!؟

وما يؤكد قناعاتنا بأن قرية نـوح كانـت في جزيـرة العـرب، مـا ذكـره القرآن الكريم في حديثـه عـن قـوم هـود. مـن أن نبـيهم هـود بُعـث إلـيهم ليذكرهم بقوم نوح. قال تعالى: ﴿ **أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾** ﴾[سـورة الأعـراف: 69]. يـذكر اليمانية، وأكثر العلماء أن قوم هـود كـانوا في الأحقـاف، والأحقـاف: رمـال بأعيانها في أسفل حضرموت[1]

السؤال المطروح ههنا: إذا كان الموطن الرئيسي لنوح وقومه، هو العـراق، فلماذا لم يشر القرآن الكـريم إلى ذلـك بـصريح العبـارة. إن الآيـة القرآنيـة التـي خاطبت قوم هود وذكرتهم بنوح وقومه. قد خاطبتهم بما يعرفونه من سيرة نـوح وقومه، وتحدثت عن مسائل كانت منتشرة بينهم. وهذا إنْ دل فإنه يدل على شيء واحد هو أنهم كانوا قريبين منهم، ومازالوا يسمعون أخبـارهم!! أي أن جزيـرة العرب هي التي احتضنت تجربة الطوفان.

---

(1) (الحميري) نشوان بن سعيد، منتخبات في أخبار اليمن مـن كتـاب شـمس العلـوم ودواء كـلام العرب من الكلام، ط2، مصورة، دار الفكر، دمشق، 1981، ص2.

الفصل السابع

الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح!

كنا قد توصلنا إلى قناعة تكاد تكون مؤكدة بأن الطوفان كان خاصاً بقوم نوح فقط. ولم يغرق باقي أجزاء المعمورة، فليس ثمة نص قاطع الدلالة ـ لا في القرآن الكريم، ولا في سواه ـ يشير إلى تغطية الأرض بالمياه.

وفي بحثنا عن مكان وجود قوم نوح، استبعدنا احتمالية وجودهم في بلاد ما بين النهرين، وأكدنا وجودهم في إطار جغرافية جزيرة العرب.

والآن آن لنا أن نحدد مكان الجبل الذي استقرت أو رست عليه سفينة نوح. وبالرغم من اعتقاد البعض أنه من العبث البحث عنه. وليس من اليسير معرفة مكانه. إلا أننا لو تأملنا النص في القرآن الكريم الذي تحدث عن مكان استقرار السفينة. فإن ذلك يدفعنا إلى معرفة مكانه، عندما يصرح القرآن الكريم باسم الجبل، في قوله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ ﴾ (هود 44).

وهنا نجد خلافاً بين الفقهاء حول مكان الجبل الذي سماه القرآن بـ(الجودى). قال "ابن المنظور" في (لسان العرب): "الجودي: قال الزجاج هو جبل بآمد «ديار بكر»، وقيل جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة"[1]

---

(1) (ابن المنظور) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري، لسان العرب، الجزء الثالث، ط 1، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص 138.

أمـا صـاحب (مختـار الـصحاح) "الـرازي" فيقـول:"الجـودي جبـل بأرض الجزيرة"[1].

وجاء في (معجم البلدان) أن "الجودي:ياؤه مشددة هـو جبـل مطـل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي مـن دجلـة مـن أعـمال الموصـل"[2] وهناك رأي بأن "الجودي: جبل بأجا أحد جبلي طيء، وإياه أراد أبو صعترة البولاني بقوله:

فـــما نطفـــــة مـــــن حـــــب مـــــزن

تقاذفـــــت بـــــه جنبتـــــا الجـــــودي[3]

أما "البكري" فيذهب في كتابه (معجم ما استعجم مـن أسـماء الـبلاد والمواضع) إلى أن "الجودي: المذكور في التنزيل جبـل بالموصـل أو بـالجزيرة كذا ورد في التفسير، وقيل هو بباقردى من أرض الجزيرة"[4] أمـا "الطـبري" فيذكر في تفسيره (جامع البيان عن تأويل آي القـرآن) بـأن "الجـودي: قـال جبل بالجزيرة شمخت الجبال، وتواضـع حـين أرادت أن ترفـأ عليـه سـفينة نوح"[5]، ويشير "ابن كثير" في ـ تفسير القـرآن العظـيم ـ إلى اخـتلاف الآراء بقوله:"وقال الضحاك الجودي جبل بالموصل، وقـال بعـضهم هـو الطـور، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عمرو بن رافع حدثنا محمد بن عبيد عـن توبة بن سالم قال رأيت زر بن حبيش يصلي في الزاوية حين يدخل من أبواب

---

(1) (الرازي) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمـود خـاطر، مكتبـة لبنـان ناشرون، بيروت، 1995، ص 49.

(2) (الحموي) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، الجزء الثاني، دار صادر، بيروت، 1977، ص 179.

(3) المصدر نفسه، ص 180.

(4) (البكري الأندلسي) أبو عبيد عبد بن عبد العزيز، معجم ما استعجم من أسماء البلاء والمواضـع، تحقيق: مصطفى السقا، الجزء الأول، ط3، عالم الكتب، بيروت، 1403هـ، ص403.

(5) (الطبري) محمد بن جرير أبو جعفر، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الجـزء الثـاني عـشر، دار الفكر، بيروت، 1405هـ، ص48.

كندة على يمينك فسألته إنك لكثير الصلاة ها هنا يوم الجمعة قال بلغني أن سفينة نوح أرست من ها هنا"[1].

فتسمية (الجودي)، بحروفها وبنائها تدل على أنها عربية، وقد ذكر "د. أحمد سوسة" ذلك "أن الفلك (استوت على الجودي) وهي كلمة عربية الأمر الذي يؤيد أنها رست على مرتفع من الصحراء جنوب شرقي الفرات عند حدود سلسلة مرتفعات التي تعلو عن سطح البحر بما يقارب 65 متر"[2].

ويؤكد "د. بلاشير" (Blachere) أن هناك سلسة جبال بهذا الاسم (الجودي) في العربية[3].

وقد ورد اسم الجبل في التوراة بـ(أراراط) "وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء، فامتنع المطر من السماء. ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً. وبعد مئة وخمسين يوماً نقصت المياه، واستقر الفلك في الشهر السابع، في اليوم السابع عشر من الشهر، على جبال أراراط" ـ سفر التكوين (8: 2 ـ 4).

وقد جاء في التوراة العبرانية [استقر الفلك على جبل أراراط]وهو جبل يقع في أرمينيا بينما تذكر التوراة السامرية أنه جبل سرنديب وهو يقع في سريلانكا[4].

ويشير قاموس الكتاب المقدس إلى أن "أراراط هذا لفظ عبريّ مأخوذ من أصل أكادي أورارطو أطلق على منطقة جبلية في آسية. وهي أعلى مكان في هضبة أرمينية، وعلى أحد هذه الجبال استقرّ فُلك نوح، وقمة هذا الجبل يطلق عليها أراراط، واسمها في التركية اغري داغ[5].

---

(1) (ابن كثير) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي،تفسير القرآن العظيم، الجزء الثاني، دار الفكر، بيروت، 1401، ص 448.

(2) (الكيلاني) د. رعد شمس الدين،الأنبياء في العراق: دراسة مقارنة بين القرآن والتوراة والآثار، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2001، ص 142.

(3) (بوكاي) موريس، التوراة والأنجيل والقرآن والعلم، ترجمة: الشيخ حسن خالد، ط3، المكتب الإسلامي، بيروت ـ دمشق، 1990، ص 258.

(4)دراسة مقارنة بين القرآن والتوراة والآثار، مصدر سبق ذكره، ص 143.

(5) (عبد المالك) بطرس ورفقاه،قاموس الكتاب المقدس، مكتبة المشعل، بيروت، 1981، ص 42.

وتذكر ملحمة كلكامش أن اسم الجبل الذي استقرت عليه السفينة هو جبل نصير، بقولها: "واستقر الفلك على جبل نصير"[1] ويذكر "د. طه باقر" أن معنى جبل النصير "إذا صحت قراءة اسم الجبل في الملحمة (نصير) فلعل معناه جبل الخلاص. وإن هذا الجبل يقع بموجب أخبار الملك الآشوري آشور ناصربال الثاني إلى جنوبي الزاب الصغير". ويستطرد بقوله:إن الجبل الذي استقرت عليه السفينة بحسب رواية (بيروسيس) سمي هذا الجبل باسم الـ(كورديين). ليتوصل إلى الاستنتاج بأن معنى (كورديين) الأكراد[2].

أما "د. فاضل عبد الواحد علي" فيشير إلى أن السفينة قد استقرت "على جبل اسمه نيسير (Nisir) أو نيموش (Nimush) حسب قراءة أخرى"[3] ويعلق على ذلك بقوله: منذ سنة 1926 والرأي السائد بين معظم الباحثين في المسماريات أن جبل نيسير يقع في منطقة كردستان، وأنه من المحتمل أن يكون جبل بيره مكرون الذي يعتبر من أعلى جبال المنطقة حيث يبلغ ارتفاعه 2684 متراً أي نحو 9 آلاف قدم، وهو بالقرب من السليمانية. وقد جاء هذا التعيين لجبل نيسير بالدرجة الأولى في ضوء ما تذكر كتابات الملك آشور ناصر بال الثاني (882- 859 ق.م) التي تقرنه ببلاد الكوتيين وتحدد موقعه إلى جنوبي الزاب الصغير.

أما بخصوص الرأي القائل باحتمال قراءة اسم الجبل في الكتابة المسمارية بشكل Nisir (بالصاد بدل السين) ومن ثم تفسير معناه بـ(جبل الخلاص) أو(النجاة) من الفعل Nasaru فإنه في اعتقادنا غير محتمل لصعوبة مثل هذا الاشتقاق اللغوي في الاكدية. أما المؤرخ البابلي (بيروسيس) فإنه يذكر بأن سفينة زيوسدرا قد استقرت على جبال Gordyaean في أرمينيا[4].

---

(1) (باقر) د. طه، ملحمة كلكامش، منشورات وزارة الإعلام، بغداد، 1975، ص158.

(2) ملحمة كلكامش، مصدر سبق ذكره، ص 141.

(3) (علي) د. فاضل عبد الواحد، الطوفان في المراجع السماوية، ط1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، 1999، ص 74.

(4) الطوفان في المراجع السماوية، مصدر سبق ذكره، ص 74.

ومع تقديرنا لاستنتاجات "د. فاضل عبد الواحد على" إلا أنني أرفض أن تكون جبال Gordyaean في أرمينيا. فـ (Gordyaean) أي جبل (كورديين) من الممكن أن يكون (كوديين) أو (كودي) بإسقاط حرف الراء مع مرور الزمن، وبذلك تتطابق مع اللفظ القرآني وهو (الجودي).

أما لفظة أراراط فمن الممكن "أن يكون أريو يرات أي أرض مقدسة"[1] وهذا التفسير صحيح، فقد دعا نوحاً ربه أن ينزله منزلاً مباركاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ [سورة المؤمنون: 29]. ولا يمكن أن يكون جبل أرمينيا أو سريلانكا منزلاً مباركاً!! وهل البركة والقداسة إلا في أرضنا بلاد العرب وفيها المكان المقدس الكعبة المكرمة. وهذا يدفعنا إلى ذكر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران 96)، وذكرت التوراة: "وبني نوح مذبحاً للرب. وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة، وأصعد مُحرقات على المذبح، فتنسم الرب رائحة الرضا. وقال الرب في قلبه: لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان، لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضاً أُميت كل حي كما فعلت. مدة كل أيام الأرض: زرع وحصاد، وبرد وحر، وصيف وشتاء، ونهار وليل، لا تزال" ـ سفر التكوين (8: 20 ـ 22).

ونتساءل هاهنا: لماذا لا يكون بناء نوح هو أول بيت وضع للناس، أي الكعبة، ويكون استقرار السفينة في بلاد العرب!؟

فقد روى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن بن سايط أو غيره من التابعين مرسلاً أن قبر نوح بالسجد الحرام[2].

---

(1) (السقا) د. أحمد حجازي، نقد التوراة: أسفار موسى الخمسة (السامرية / العبرانية / اليونانية)، ط1، مكتبة النافذة، مصر، 2005، ص 128.

(2) (ابن كثير) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي،قصص الأنبياء، تحقيق: أبي عمار مراد بن عبد الله، ط2، دار الدعوة الإسلامية، شبرا الخيمة، 2000، ص 77.

ويذهب الرحالة المؤرخ "ابن المجاور" في سفره الرائع (تأريخ المستبـصر) إلى أن الجبل الذي رست عليه سفينة نوح، هو جبل السَعْتَرىّ بقوله: " جبل على مقدار فرسخ وطريقه طول وعرض وسعة في ارتفاع وانحطاط، وكل مـا يطلـع فيه السَعْتَر من أوّله إلى آخـرة، وعـلى ذروة هـذا الجبـل نجـر سـفينة نـوح عليـه السلام. حدثني عبد الغني بن أبي الفرج البغداديّ قال: هـو نجـر حديـد يـصح مقدارَ بيت كبير وكان العقب فيه أنّه لما أرسى السفينة عـلى هـذا الجبـل لأن مـاء الطوفان كان قد علا على جميع ما خلقه الله تعالى مقدار سبعة عشر ذراعـاً أرمـى الأَنْجَر، تعلق الأنجر في حجر مـن الجبـل أبـى أن يـصعد معهـم وغمـر الـريح قطعــت الــسفينة الأحربــة وبقــي الأنجــر والأحربــة موضــعَه يُــزار. وهــو موضع فاضل"[1].

إنني على قناعة شبة مؤكدة أن جميع هذه الأسماء، هي اسـم لمكـان واحـد بعينه استوت عليه سفينة نوح. وجميع هذه المـسميات عربيـة، وأن الجبـل الـذي استقرت عليه السفينة كان في جزيرة العرب.

(1) (ابن المجاور) جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب ابن محمد،صفة بلاد اليمن ومكة وبعـض الحجاز المسماة تأريخ المستبصر، تحقيـق: اوسـكر لـوففرين، ط2، منـشورات المدينـة، بـيروت، 1986، ص (274-275).

الفصل الثامن

نوح العاري ولعنة كنعان

حاولنا في الفصول السابقة الفصل بقدر الإمكان بين الأسطورة والخرافة في قصة نوح والطوفان كما هي مروية في سفر التكوين، لكن هذا السفر، إضافةً إلى ذلك، يتحدث عن قصة غاية في الغرابة والطرافة. لقد أضيف إلى قصة الطوفان مشهد ممتع هو: سكر نوح. وتبتدئ هذه القصة بالقول: "وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفُلك ساماً وحاماً ويافث. وحام هو أبو كنعان. هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح. ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض. وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء، وسترا عورة أبيهما ووَجهاهُما إلى الوراء. فلم يُبصروا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره، علم ما فعل به ابنه الصغير، فقال: ملعون كنعان! عبد العبيد يكون لأخوته. وقال مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبداً لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام، وليكن كنعان عبداً لهم" ـ سفر التكوين (9: 18-27).

يعلق الباحث "د. الصليبي" على هذه القصة بقوله: لقد "ترجمت (ءيش هـ ـ ءدمه)، حتى الآن، بأنها تعني (رجل الأرض)، أي (فلاحاً). لكن هذه العبارة لا ترد في أي مكان آخر من التوراة، لا بهذا المعنى المفترض ولا بأي معنى آخر. وليس هناك إطلاقاً ما يبرّر أنها تشير إلى اختصاص نوح بالفلاحة. وفي

ترجمته لهذه الكلمة يقول "د. الصليبي" إنها تعنى (رجل الأدمة)، أي أنه كان رجلاً من اليمن، من القرية التي ما زالت تعرف بالأدمة في جوار بلدة ذَمار، إلى الجنوب من صنعاء. والمنطقة هذه مشهورة بجودة عنبها"[1].

وقد أشار إليها لسان اليمن "الهمداني" عند حديثه عن وادي خبش قائلاً: "ويصب في مُوسِط الجوف غربيه صادراً من خبش بعد ري نخيلها وزروعها، وفروع هذا الوادي من سراة بلد وادِعة وظاهرها، ويمر بمواضع مما كان من بلاد بني مُعمِر وبني عبد والهرائم، فإنه ينحدر إلى خيْوان فيسقيها، ويمد باقية سيل قيعتها وبُوبان والأدمة وملساء، ويلج الفج إلى خبَش فتلقاه سيول بلد بني حرب بن دواعة من رميض وحُوث ويُضامُّه سيل الفقْع والحواريين والمصْرع وأثافِت ودمَّاج وشُوات وخرفْان وجانب الكساد وقبلة ظاهر الصيَّد والعَقل وجبل ذيْبان الأكبر ورخمات وحاوتَين والسبيع"[2].

هذه بكل بساطة، هي نواة القصّة التي يرويها سفر التكوين عن نوح العاري، فلنتأمل فيها قليلاً، ولنتذكر ونحن نمعن الفكر في هذه القصة نقاطاً هامة توراتية وتاريخية قد تساعدنا على فهم ما وراء القصة.

في قصة نوح وعورته يحسن أن يتوقف العقل عند نقاط كاشفة في النص التوراتي: أولى تلك النقاط قول كاتب النص ـ بغير داع في الواقع إلا الإعداد للعنة التي كتبت الحكاية من أجلها ـ "وكان بنو نوح ساماً وحاماً ويافثاً. ثم قوله: «وحام أبو كنعان». فالسياق المنطقي للحكاية أن نوحاً عندما خرج من الفلك كان أباً لثلاثة أبناء، وأن كل الأرض تشعبت من أولئك الأبناء الثلاثة، فما الداعي لذكر كنعان تخصيصاً في ذلك السياق!؟ وإن كان المقصود ذكر أبناء سام وحام ويافث فلم لم تذكر أسماؤهم التي

---

(1) (الصليبي) كمال، خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، ط 2، دار الساقي، لندن، 1991، ص69.

(2) (الهمداني) الحسن ابن أحمد ابن يعقوب، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، ط1، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1990، ص (159-160)

أوردها "العهـد القـديم" بعـد ذلـك تفـصيلاً في إصـحاح بأكملـه في سـفر التكوين هو الإصحاح العاشر!؟[1].

علاوة على ذلك هناك العديد من التساؤلات تثار في الأذهان: ما ذنب كنعـان أن يدفع ثمن خطيئة حام ـ إن صح نسب الأول إلى الثاني!؟ وكيف يتحمل ذنب أبيـه - إنْ كان لأبيه ذنب؟ كيف يلام حام وهو لم يفعل شيئاً يستحق اللـوم عليـه!؟ أنـا لا نري في وقوع نظر حام على عورة أبيه، وتحدثـه في ذلـك إلى أخوتـه مـا يـستتبع تلـك النتائج الخطيرة التي ترتبت على وشاية أخويه به إذ صب أبوه الموحي إليه لعنتـه عـلى كنعان بن حام، ولسنا ندري لم تخطى نوح بلعنته المستجابة حاماً إلى كنعان أبنـه. فهـل كان نوح لا يزال تحت تأثير الخمر عندما نطق بلعنته؟ ومع ذلك، فقد كرسها يهوه.

لكننا لا نفهم تماماً الخطأ المرتكب ومداه... يُشير "مُوريس دوري" أنـه في التلمود صَرَّح أحد الأسياد أن حام قد لاط نوحاً، وآخر أنه خصاه. وبالنسبة لــ "ماهارال براغ" في القرن السادس عشر، إن نوحاً قد ارتكب الأمرين[2].

ولكننا إذا افترضنا أن حاماً بالفعل أبصر عورة أبيه، وأن أبيه أراد أن ينزل اللعنة بنسله، فلماذا حصر نسله في كنعان، ومن المتعارف عليه توراتياً أن كنعان لم يكن إلا واحداً من أبناء حـام الأربعـة، "وبنـو حـام: كـوش ومـصرايم وفـوط وكنعان" ـ سفر التكوين (10 : 6). وبذلك، لا يبقى هناك ما يبرر إنـزال اللعنـة بكنعان وحده من بـين أبنـاء حـام الأربعـة بـسبب اقترفـه أبـوهم، وهـو والـد الأربعة منهم.

فمن تلك القصة الخرافية استمد الكهنة "لعنة" انصبت على كنعان وهي لعنـة ظالمة أخلاقياً وإلهياً بغير شك، لكنها لازمة كهنوتياً / سياسـياً / إقليميـاً بغـير شـك أيضاً. فبدلاً من أن يلعن نوح ابنه حاماً مباشرة لأنه رأى عـورة أبيـه وهـو في غيبوبـة

---

(1) (مقار) شفيق، قراءة سياسية للتوراة، رياض الـريس للكتـب والنـشر، لنـدن، بـلا تـاريخ، ص (36-37).

(2) (دانزول) ألبيرتو، اليهودية والغيرية غير اليهود في منظار اليهودية، ترجمة: د. مـاري شهرسـتان، ط1، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، دمشق، 2004، ص 61.

السكر، فلم يسترها كما فعل سام الحصيف ويافث المطيع ـ انحطت لعنته رأساً بكل ثقلها الرهيب على رأس الابن الأصغر كنعان المسكين دون سائر إخواته كوش ومصرايم وفوط لماذا؟ أنت تعرف لأن " تُخومُ كَنعان كانت منْ صَيدونَ، حينما تجيءُ نحو جَرارَ إلى غَزَّةَ، وحينما تجيءُ نحو سدوم وعَمورة وأدمة وصبوييم إلى لاشع" التكوين (10: 19). وكانت تخوماً "تفيض باللبن والعسل" وبها مدن عظيمة وبيوت عامرة وآبار وزيتون وكروم، ولهذا السبب العلمي للغاية ناقض محررو "العهد القديم" أنفسهم وعصوا الرب إلههم الذي قال لهم بصريح العبارة أنه "لا يقتل الآباء عن الأبناء ولا يقتل الأبناء على الآباء بل كل إنسان بخطيئته يقتل" تثنية (24: 16)[1].

هناك تعليق في "زُهار" أو كتاب "الروائع" يقول عن أولاد نوح: الأول فاضل أو مليء بالفضيلة، والثاني مليء بالرّذائل، والثالث بين الاثنين. ومفهوم أن العبرانيين هُم ذرية الفاضل سام، والكنعانيين هم ذرية الرذيل حام وبما أن الفضيلة يجب أن تدحر الرذيلة فيجب على العبرانيين أن يُبيدوا الكنعانيين، وهكذا يأمر الله. ولتبرير إبادة ذرية حام الكنعانية، توجهت التوراة إلى توظيف الانتقال الوراثي لبعض التصرفات. ويشرح كتاب الحكمة أن طبيعة الكنعانيين كانت عاطلة، وأن خبثهم كان غريزياً، وأن إمكانياتهم لن تتغير أبداً [حكمة 12. 10]. ويبدو أن مثلب حام انتقل تماماً كما هو من جيل إلى جيل. وإلى فسق حام تُجيب العادات الكنعانية التي يصفها الفصل 18 من الأحبار: زاني (مثل حام، يكشفون عُرى آبائهم وأمهاتهم وأخواتهم وبناتهم....) فُسق، أضاحي الأطفال، شذوذ جنسي، حب الحيوانات.

فالانتقال الوراثي لبعض الاستعدادات يصيب كل الشعوب. وقداسة إسرائيل هي استمرار لفضيلة سام!...

---

(1) قراءة سياسية للتوراة، مصدر سبق ذكره، ص 105.

ويبدو هنا أن الشعوب تمتلك طبيعة ثابتة، هذه الطبيعة تتحكم بالعلاقات بين الأمم وتوجه أفعالهم ومصيرهم. وبما أن إسرائيل قد وضعت هذه الطبيعة وحددت ثباتها ورسختها بالبرهان السلالي، فهي سوف تستطيع أن تقوم بالإبادة الكاملة للشعوب الكنعانية على طريق استئصال الشر، بكل ضمير مرتاح[1].

إننا من خلال دراستنا لهذه القصة دراسة جدية ومتزنة تصادفنا ثلاث ظواهر أكد كتابها باستمرار على تثبتها، وهذه الظواهر هي التالية:

- محاولة كتبة التوراة إظهار العرق اليهودي (السامي) من خلال خطيئة نوح العاري.
- حقد كتبة التوراة على الشعوب الأخرى المجاورة لهم.
- محاولة تبرير واقع تاريخي، وهو السيطرة التي صارت لبني إسرائيل على أرض كنعان[*].

فالحقيقة التي أكاد أجزم بها أن بطل هذه القصة كان رجلاً ضعيف الإرادة، فلما انفضح أمره بدخول أصغر أبنائه إليه ليجده عرياناً وفاقد الوعي من فرط السكر، شعر بنوع من الحرج حاول إخفاءه بلعنه "كنعان".

---

(1) اليهودية والغيرية غير اليهود في منظار اليهودية، مصدر سبق ذكره، ص (61-62).

(*) لمزيد من التفاصيل عن أرض كنعان التوراتية، وما ذهبنا إليه من أنها منطقة يمانية يراجع مؤلفنا كنعان وملوك بني إسرائيل في جزيرة العرب، ط1، دار خطوات للنشر والتوزيع، دمشق، 2006.

الفصل التاسع

برج بابل وبلبلة الألسنة

"وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة. وحدث في ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض: هلم نصنع لبناً ونشويه شيّاً. فكان لهم اللبن مكان الحجر. وكان لهم الحمر مكان الطين. وقالوا: هلم نبن لأنفسنا مدينة وبُرجاً رأسه بالسماء. ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل الأرض. فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو أدم يبنونهما. وقال الرب: هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونُبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض، فكفوا عن بُنيان المدينة، لذلك دُعي اسمها (بابل) لأن الرب هناك بَلَبَلَ لسان كل الأرض. ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض" سفر التكوين (11: 1-9).

هذه القصة هي في الواقع عبارة عن تقرير عام موجز؛ مؤادة أن شعوب الأرض كلها كانت تتحدث لغة واحدة، واستناداً إلى هذا القول نشأت "نظرية الأصل الواحد" للغات، ومازال القائلون بها يتخيلون في أبحاثهم ومؤلفاتهم وجود لغة كانت هي لغة سام بن نوح وأطلقوا عليها التعبير الألماني (Ursemitisch) [السامية الأم أو المبكرة أو الأصلية]. وهذه اللغة هي التي يجب أن يكون الأبناء قد ورثوها عن الآباء والأحفاد عن أسلافهم، على حد زعم

المؤمنين بهذه النظرية. ثم انتشرت هذه اللغة. ومن هذه اللغة تفرعت اللغات التي صارت تعرف في أبحاث اللغويين بـ"اللغات السامية"، وعرفت الشعوب التي تكلمتها بـ"الشعوب السامية".

هذا التقرير المقتضب كان بمثابة نقطة الانطلاق نحو رواية أخرى عن أناس ارتحلوا [شرقاً] ـ وفقاً للاتجاه المنصوص عليه في الترجمات العربية للعهد القديم ـ حيث أقاموا في بقعة اسمها [شنغار].

وقد زخرفت الرواية بتفاصيل مثيرة للسخرية. من هذه التفاصيل تشييد المدينة والبرج، ليتوحدوا ضد ربهم [يهوه]، فهنا أدرك عجوزهم الخرف [يهوه] خطورة الموقف، ذلك أن بناء المدينة والبرج [من وجهة نظره!!] نوع من التمرد عليه، هنا قرر [يهوه] أن يفرقهم على وجه الأرض. وكانت وسيلته في ذلك بلبلة لسان البشر الواحد، فتعددت لغاتهم. وكان نتيجة لذلك، أن تعددت لغات البشر في الحال، وتفرقوا بالتالي في كل أنحاء الأرض.

يرى "ريتشارد ويلسون" أن قصة برج بابل هي قصة تعليلية تأسست بكاملها على مفهوم أخلاقي صرف للعالم، كما أنها تُعتبر تفسيراً معقولاً قدم في وقت كان يعتقد فيه أن العالم الذي يسكنه الانسان عبارة عن مكان صغير نسبياً، وأن إقامة الانسان فيه قصيرة الأمد إلى حد ما[1].

ويعتبر "د. حسن ظاظا" أن قصة برج بابل أسطورة شعبية لا تحكي واقعاً تاريخياً بقدر ما تلتمس تعليلاً فنياً لاختلاف الألسنة واللغات[2].

وينقل "د. كارم محمود عزيز"، عن "إمانويلوفيتش" رأيه أن قصة برج بابل تتألف من ثلاثة عناصر، أولها رواية بدائية عن أصل الأمم المختلفة، وثانيها تفسير لتفرق لغات الأمم. وثالثها رواية عن أصل الخطيئة بالمنافسة الأنانية للرب"[3].

---

(1) (عزيز) د. كارم محمود، الأسطورة والحكاية الشعبية في العهد القديم، ط 1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، مصر، 2001، ص 82.
(2) (ظاظا) د. حسن، اللسان والانسان: مدخل إلى معرفة اللغة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1971، ص 35.
(3) الأسطورة والحكاية الشعبية في العهد القديم، مصدر سبق ذكره، ص (83-84).

ويرى الباحث العربي" د. كمال الـصليبي" أن قـصة بـرج بابـل "هـي في الواقع حياكة متقنة من قصّتين، كلّ واحدة منهما من مصدر مختلف. فهناك قـصة تبتدئ بالبيت الأوّل من النصّ، وهذه خرافة تحاول تفسير ظاهرة تعدّد الألـسنة بين شعوب الأرض. وهناك قصّة تبتدئ بالبيت الثاني من النصّ، وهـذه ليـست خرافة بل رواية لحدث تاريخي عن أنـاس قـدموا مـن الـشرق إلى مكـان اسـمه (شنعار)، فحاولوا أن يتوّحدوا هناك وأن يبنـوا لأنفـسهم مدينـة محـصّنة، فلـم يحالفهم الحظ في ذلك"[1].

وفي هذا الصدد، يشير "جيمس فريزر" ـ صاحب أهم المباحـث في دراسـات الفولكلور في العهد القديم ـ أنه افترض جدلاً في العصور المتـأخرة أن اللغـة العبريـة كانت هي الأولى للجنس البشري. ويبدو أن آباء الكنيسة لم يعارضوا هذا الرأي. وفي العصر الحديث عندما كان علم اللغة ما يزال في مهده نشيطاً وإنْ كان ناقـصاً، بـذلت الجهود لإرجاع كل أشكال اللغات الإنسانية إلى اللغة العبرية على اعتبـار أنهـا أصـل هذه اللغات. ولم يختلف الباحثون المسيحيون في تبني هذا الفرض الساذج، عن علـماء الأديان الأخـرى، الـذين رأوا أن لغـة كتـبهم المقدسـة لم تكـن لغـة آبـائهم الأولـين فحسب. وأنها كانت لغة الآلهة أنفسهم"[2].

وينتقد "صموئيل هنري هووك" القول بـأن هـذه الأسـطورة ذات منـشأ بابلي بقوله: الواضح أن هذه القصة لا يمكـن أن تكـون ذات منـشأ بـابلي، ولـو كانت أسطورة بابلية لما قدمت الزيقورة المقدسة ـ التي اعتبرها البابليون القدامى ربط السماء بالأرض ـ ضمن محاولة كافرة للصعود إلى السماء، ولما كان اسم بابل [باب ـ ايل] قد اشتق من الجذر العبري "بل" أي "الاضطراب" والذي لا صلة اصطلاحية له بالمعنى[3].

---

(1) (الصليبي) د. كمال، خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، ط 2، دار الساقي، لندن، 1991، ص78.

(2) (فريزر) جيمس، الفولكلور في العهد القديم، الجزء الأول، ترجمة: د. نبيلـة إبـراهيم، ط 2، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص 323.

(3) (هووك) صموئيل هنري، منعطف المخيلة البشرية: بحث في الأساطير، ترجمة: صـبحي حديـدي، ط 3، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 2004، ص163.

وبالرغم من ذلك، يؤكد بعض اللاهـوتيين بـرضى وثقـة، أن بـرج بابـل التوراتي كان قد بلغ 1500 م ارتفاعاً، عندما هدمه يهوه؛ أي أنه كان أعلي بعـشر مرات، من أعلى هرم مصري [هرم خوفو، 147 متر]. لكـن الأهرامـات بقيـت عصية على الفناء، ولم يبق من برج بابل أثر. فكيـف أمكـن اختفـاء هـذه المنـشأة الجبارة، دون أن تترك أي أثر يدل عليها؟ ومرة أخرى ينسى "الـروح القـدس" أن ينبئ سفر التكوين بهذا؟

أضف إلى هذا، وحسب التوراة نفسها، أنه لم يكن هناك ما يكفي من البشر، وما يكفي من المهارة لبناء مثل تلك المنشأة المهولة. إذاً، لم يبق لنا سوى أن ننظر إلى هذه القصة على أنها ""عجيبة" دينية عظيمـة!! ولم يكـن ظهـور اللغـات المفـاجئ عجيبة أقل عظمة. ويقول "فولتير" بهـذا الـصدد: "لقـد بحـث الـشارحون عـن اللغات، التي ولدت من توزع الشعوب هذا، لكـنهم لم يلقـوا بـالاً لأي لغـة مـن اللغات القديمة، التي كان يتحدث بها الناس، الذين استوطنوا المنطقة الممتدة مـن الهند إلى اليابان، ومن المثير للفضول أن نحصي عدد اللهجات، التـي تتحـدث بهـا الكرة الأرضية الآن. ففي أمريكا أكثر من ثلاث مائة لغة، وفي قارتنا أكثر من ثلاثة آلاف لهجة. وكل مقاطعة من مقاطعات الصين لها لغتها المحلية. فـسكان بكـين لا يفهمون لغة سكان كانتون فهماً جيـداً، والهنـدوسي القـاطن سـواحل مالابـار، لا يفهم لغة الهندوسي القاطن بباريس. وما يمكن قوله، على وجه العموم، إن سـكان الأرض، لم تكن لديهم أي فكرة عن العجائب، التي ارتبطت ببنـاء "بـرج بابـل"، تلك العجائب، التي لم يسمع بها سوى اليهود القدماء[1].

وبعد عرض هذه الآراء على القصة في مجملها، يمكننا الآن تحليل العناصر التي تتكون منها قصة برج بابل، على النحو التالي:-

❋ إن قصة برج بابل تتألف من قـصتين، كـل واحـدة مـنهما مـن مـصدر مختلف، فالربط المنطقي بين الآية الأولى التي تتحدث عن وحدة اللغة بين البـشر

(1) ليوتاكسل، التوراة كتاب مقدس أم جمع من الأساطير؟، ترجمة: د. حسان ميخائيل إسـحاق، ط 1، الجندي للطباعة والنشر، 1994، ص 76.

بشكل عام، والآية الثانية التي تتحدث عن نزوح مجموعة من البشر من مكان إلى آخر يبدو ضعيفاً للغاية.

* إن قراءة متأنية للقصة التوراتية تثير مشكلة عويصة، فقد سبق قصة برج بابل جدول لأنساب نوح في الإصحاح العاشر من سفر التكوين، يتضمن الإشارة إلى السلالات البشرية التي تشعبت عن أبناء نوح المزعومين [سام ـ حام ـ يافث]. ولما كانت هذه الأنساب تسبق قصة برج بابل المزعومة في ترتيب إصحاحات التوراة، فإن معنى ذلك أن تفرق لغات البشر، وتفكك وحدة الجنس البشري قد حدث قبل واقعة بناء برج بابل.

* تجدر الإشارة إلى أنه بمراجعة النص العبري لقصة برج بابل ومقارنته بالترجمة العربية الواردة في النسخة المعتمدة للكتاب المقدس، تبين وجود خطأين: الخطأ الأول يتمثل في أن الترجمة العربية قد حددت أتجاه مسار هذه الجماعة البشرية بأنه "إلى الشرق": "وحدث في ارتحالهم شرقاً...." بما يعني أنهم كانوا آتين من غرب "شنغار". أما النص العبري للقصة، فقد حدد أتجاه هذه الجماعة باستخدامه اللفظة العبرية "مقيدم" [م ـ قدم] التي تعني من "الشرق"، بما يستوجب ترجمة الفقرة: "وحدث في ارتحالهم من الشرق"، أي أن الترجمة العربية عكست الاتجاه الذي تضمن النص العبري للقصة تماماً، حيث كان اتجاه تلك الجماعة ـ وفقاً للنص العبري ـ غرباً، لأنهم أتوا من "الشرق" وليس "شرقاً" كما نصت الترجمة العربية. أما الخطأ الثاني في الترجمة، فقد تمثل في ترجمة اللفظة العبرية "بِقْعَاً" بمعنى "بُقعة" مما يجعله لفظاً مطلق الدلالة يمكن أن يوحي بأية بقعة: صحراوية ـ زراعية ـ ساحلية. هذا في حين أن لفظة "بِقْعَاً" العبرية تعنى "سهل ـ وادي"[1].

* إن ما تدعيه التوراة من أن مدينة بابل دعيت بهذا الاسم، لأن الرب بلبل لسان كل الأرض فإنه ادعاء لا يقوم على أساس. فمن المعلوم أن اسم

---

(1) الأسطورة والحكاية الشعبية في العهد القديم، مصدر سبق ذكره، ص 89.

مدينة بابل سواء في السومرية (Ka-dingir-ra) أم في البابليـة (Bab-ili) لا يعنـى سوى "بوابة الإله" وليس له إطلاقاً أية علاقة ببلبلة الألسن!![1].

* أضف إلى ذلك أن اسم "شنعار" (شنعر) الوارد في الرواية التوراتيـة لم يطلق في أي وقت على أرض جنوب العراق، وبـالرغم مـن ذلـك يـصر الـسادة مؤرخونا من أصحاب وحراس الفكر الآسن العربي على أن "شنعار" هـو ذاتـه الاسم "شينجي أوري" (شنجر) الوارد في الكتابات السومرية، و(شا ـ أن ـ خـا ـ را) [شنخر] الوارد في الكتابات الأكادية، ويفترضون أن هذا الاسـم يـشير إلى ما يسمي اليوم بجبل سنجر بشمال العراق. وهناك رأي بـأن اسـم جبـل سـنجر هذا كان يطلق في الأزمنة التوراتية بشكله العبري، وهو شنعر، عـلى كامـل بـلاد العراق، وبضمنها بلاد بابل. ويرفض المؤرخ اللبناني "كمال الصليبي" هذا الرأي لسببين أولاً: لأن جبل سنجر يبعد لا أقل من 540 كيلو مـتر عـن أطـلال بابـل بجنوب العراق؛ وثانياً: لأن اسم سنجر، سواء بشكله الحالي أو بشكل شنجر أو شنخر، لا يمكن أن يتحول إلى شنعر بالعبرية، لأن الجـيم والخـاء لا تنقلـب أي منهما إلى عين بالعبرية. وهكذا حتى لو جاز العكس، فانقلبت العـين العبريـة إلى جيم بالسومرية، أو إلى خاء بالأكادية. علينا، على كل حال، أن نبحث عن أرض شنعر ليس في أرض كلّها سهل، كجنوب العراق، بل في أرض جبليـة وعـرة، إذ كان على الوافدين إلى هذه الأرض أن "يجدوا سهلاً" هناك ليستقروا فيه. وهناك بدأ هؤلاء الوافدون يبنون مدينتهم باللبن والحمر، على ما تفيده القصة[2].

* تُحيلُ مَرْوية التوراة عن "تمزق" اللغة الواحدة، وتَحلَّلها وتَفسُّحها؛ قارئ النّص، على مَرْوية عربية عتيقة عن انهيار سـدّ مـأرب، نجـم عنـه انهيـار في مبنـى الوحدة التي جمعت القبائل في أرض اليمن؛ وبدلاً من "البرج" أنشأ سـارد الـنّص العربي (وحدة) للجماعة من حـول (الـسدّ). أدى انهيـار الـسدّ إلى تمزيـق القبائـل وتفرقها "أيدي سبأ" بحسب المثل اليمني القديم؛ ويمكن في هـذا الـسياق مماثلـة

(1) (علي) د. فاضل عبد الواحد، من سومر إلى التوراة، ط2، دار سينا للنشر، القاهرة، 1996، ص232.
(2) خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص 82.

تفرّق اللغة إلى لغات بتفرّق اليد القبائلية الواحدة إلى "أيدي"؛ وبهذا تحلُّ اليد محل "اللسان" كتعبير عن هذا التمزق الدراماتيكي. وبالطبع فإن اللغة، ككائن ماكر، قادرٍ على الخداع يمكنها أن تعبّر عن نفسها لا بواسطة "اللسان" وإنما بواسطة (اليد) كذلك، وهكذا يصبح تمزق القبائل من حول السدّ العظيم، سبيلاً إلى امتلاك "ألسنة" أو لهجات. وما من شك أن لهجات القبائل، ذات صلة حميمة بـ"لسان قديم" أو ألسنةٍ قديمة (لغات عتيقة)، كانت سائدة ثم تحلَّلت وتفسخت داخل بيئات خطرة، معادية وشرسة مُنْتِجَة للقهر والمجاعة. روى أسطورة انهيار سد مأرب سائر الإخباريين العرب والمسلمين، جاعلين منها حدثاً هلعيّاً جماعياً، فُسِّرت به الهجرات الكبرى للقبائل وتفرق لهجاتها وتمزقها. لقد أعاد الإخباريون العرب إنتاج أسطورة "خراب سدّ مأرب" لكي تلائم تأويلاً جديداً عن هجرة تحالف قبلي ضخم اجتاح مكة وهزم جُرْهُمْ واستولى على البيت الحرام. أما (الحدث التاريخي) الخاص بسدّ مأرب، فقد غدا في هذه المَرْويات حدثاً أسطورياً "بكلام ثانٍ: بنى سارد نصّ أسطورة انهيار السدّ، نصَّه السرديّ على أساس الدمج بين واقعتين؛ كلّ واحدة منهما جرت في عصر مختلف عن الآخر، لكي يتمكن من تأويل هجرة القبائل. إنّ أسطورة انهيار السدّ؛ في الأصل البعيد، تتمثَّلُ الفكرة الأسطورية ذاتها في (برج بابل)؛ وهما معاً تنتميان إلى معتقد أسطوري عتيق عن الخروج الجماعي، وتمزّق نسيج اللغة والوحدة القبلية وضياع الجماعات في الصحراء. هذا الحدثُ الهلعيّ الناجم عن انهيار سدّ أو برج، والتَّدفقُ نحو أراضٍ جديدة، يُعبّر في منحى مُحدَّد من الخطاب، عن هذه العلاقة الوثيقة بين التمايز والتمزّق؛ فما من تمايز إلاّ ويبدأ من قانون تمزيق وحدة الجماعة ولغتها[1].

ومهما كان الأمر، فليس هناك ما يمنع أن نعيد رواية هذا القصة [برج بابل] من وجهة نظرنا ووفق قناعاتنا الشخصية، بعد أن قمنا بتحليل العديد من عناصرها، ولعل هذه القصّة كانت تروى في الأصل كما يلي، ووفق ترجمة عربية أدق:

---

(1) (الربيعي) فاضل، شقيقات قريش: الأنساب الزواج والطعَام في المَوروث العَربي، ط1، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 2002 ص (132-134).

"وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة. وحدث في ارتحالهم من الشرق أنهم وجدوا سهلاً [وادي] في أرض شنعار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض: هلم نصنع لبناً ونشوية شيًّا. فكان لهم اللبن مكان الحجر. وكان لهم الحمر مكان الطين. وقالوا: هلم نبن لأنفسنا مدينة وبُرجاً رأسه بالسماء. ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل الأرض. فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو أدم يبنونهما. وقال الرب: هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونُبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض، فكفوا عن بُنيان المدينة، لذلك دُعي اسمها (ببل) لأن الرب هناك بَلْبَلَ لسان كل الأرض. ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض".

وفي عملية قراءة التوراة، في ضوء تاريخ جزيرة العرب، أجد من الضروري تحديد المواقع الواردة في النص، وأولها (شنعار): فقد ترسب اسمها في وادي المِعْشَار بدون تصويت بالقلب والإبدال، (المِعْشَار) بكسر وسكون. مركز إداري من مديرية جِبْلَه وأعمال محافظة إبْ. يقع في السفح الشمالي لحصن المِسْوَاد وجنوب مدينة إبْ. ومن أهم بُلدانه: المَرْدع، عريب، الفجور، المشاعبه، دار الظهر، مَنْوَر، رِعْيَان. و(المِعْشَار) ـ أيضاً ـ مركز إداري من مديرية المَخَادر، محافظة إبْ في الشمال منها ويضم من القرى: صِنَه، عَفِيْنه، الذنبه، نَعمان، العَارِضه، بيت العِصار، المناره، السهيله، وغير ذلك. و(المِعْشار): من قرى بني شَبْيب في مديرية حُبَيْش، بالشمال الغربي من إبْ. وتقع في شمال غرب مدينة "ظَلْمه" مركز المديرية وجوار بلدة النَّظَارِي. و(المِعْشار): بلدة ومركز إداري من مديرية وُصاب العالي وأعمال ذَمار. فيها بعض قبائل بني مُسَلَّم. و(المِعشار): من قُرى "طَوْر البَاحَه" في غربي لَحْج. تقع أسفل جبل قِصار[1].

---

(1) (المقحفي) إبراهيم أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، الجزء الثاني، دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع ـ صنعاء، المؤسسة الجامعية للدراسات للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت، 2002 ص (1578-1579).

أما المفردة الثانية التي أود التعرض لها فهي (ببل / بابل)، والتـي فهمـت تقليدياً أنها إشارة لمدينة بابل العراقية الـشهيرة، ووفـق روايـة التـوراة الـسالف بيانها، فإن مدينة بابل دعيت بهذا الاسم، لأن الرب بلبل لسان كل أهلهـا. علـماً بأن اسم بابل ليس له إطلاقاً أي علاقة ببلبلة الألسن كما سـبق أن رأينـا. عـلاوة على ذلك لم نعرف ملكاً حكم مدينة بابل العراقية الشهيرة باسـم نمـرود أو مـن نسل حام كما تزعم التوراة.

ووفـق قناعـاتي الشخـصية أنـه وجـب البحـث عـن بابـل التوراتيـة، في الجغرافية اليمنية، حيث حافظت عـلى اسـمها في صـيغته الأصـلية، أي البلبلـة. ويصادفنا فوراً، هذا الاسم الذي مازال باسم (بلاله): قرية في جبل خَوْدان مـن مديرية يَرِيْم وأعمال إبْ[1].

هذه، طبعاً، هي قناعاتي في الموضوع، والواقع أن هذه القصة المذكورة، إنْ حدثت فعلاً، فقد كان حدوثها في جغرافية الأراضي اليمنية.

---

(1) (المقحفي) إبراهيم أحمد، معجم البلـدان والقبائـل اليمنيـة، الجـزء الأول، دار الكلمـة للطباعـة والنشر والتوزيع ـ صنعاء، المؤسسة الجامعية للدراسات للطباعة والنـشر والتوزيـع ـ بـيروت ، 2002 ص (194-195).

الفصل العاشر

أسطورةُ السامية

لعلنا قد لا حظنا من كل ما سبق أن عقدة الانفصال عن البشر، والامتياز على أمم العالم اتخذت طريقها إلى النفسية اليهودية، وأصبحت عاملاً أساسياً في تكوين شخصية هذه النفايات البشرية منذ القدم، عن طريق الأنساب والأعراق، وعن طريق الذكريات الدينية والسياسية التي تضخمت وغلظت مع الزمن، فمن رحم المسخ التوراتي ولد في التاريخ الحديث أكذوبة اسمها [السامية].

فقد لاحظ المعنيون بلغات الشرق الأدنى القديم وجود تقارب عدد من هذه اللغات من بينها الأكدّية (البابلية والآشورية) والكنعانية والعبرية والفينيقية والآرامية والنبطية والحبشية والعربية. وقد وجد هؤلاء الباحثون أن هذه اللغات تتقارب في عدد من المواضع له أهميته ومغزاه، وذلك في جذور الأفعال، وأصوات التصريف، تصريف الأفعال. كذلك وجد الباحثون أن هذه اللغات التي نحن بصدد الحديث عنها تتشابه فيها (وتتطابق في بعض الأحيان) مجموعات من الألفاظ ذات مدلولات لا يمكن إغفالها أو تجاهل مغزاها. فمن بين هذه الألفاظ تلك التي تدل على الأعداد، والأعداد هي الأدوات الأولية والضرورية في تنظيم المعاملات بين الأفراد أو الجماعات. وتطابق أو تقارب الألفاظ الدالة عليها يشير إلى مجتمع واحد أو إلى مجتمعات شديدة التقارب. والشيء ذاته نجده في الألفاظ التي تؤدي معنى القرابة أو صلة الدم. وهذه تشير

إلى تكوين الأسرة وهي خلية المجتمع الأولى التي تبدأ قبل أي تكوين اجتماعي آخر. كما نجده في الألفاظ الدالة على تنظيمات الدولة والعلاقات الاجتماعية والقصائد الدينية، وهذه كلها تتصل بالمجتمع في حدوده الواسعة[1].

لقد تجلى هذا التقارب بين لغات الشرق الأدنى القديم في جوانب أساسية لعل من أبرزها الآتي:

1. اعتمادها بصورة أساسية على الحروف الصحيحة (consonants)، وليس على حروف العلة (vowels)، كما هي الحال في اللغات الآرية، ثم إن فيها حروفاً صحيحة إضافية غير موجودة في اللغات الآرية كالحرف اللهوي (ط) والحنكى (ق) والسني الصافر (ص) والحلقي (خ).
2. إن الغالبية العظمى من الكلمات مشتقة من أفعال ذات جذور ثلاثية.
3. وجود جنسين فقط هما المذكر والمؤنث، وعدم وجود ما يعرف بـ"لا مؤنث ولا مذكر".
4. وجود مجموعة كبيرة من المفردات في هذه اللغات تتطابق لفظاً ومعنى[2].

إن نقاط التشابه هذه، وأخرى كثيرة غيرها، كانت السبب المباشر للبحث عن أصل قديم مشترك ترجع إليه تلك اللغات، فقالوا بأن الأقوام المتكلمة بتلك اللغات قد انحدرت جميعها من جد واحد هو سام بن نوح استناداً إلى قائمة الأنساب التي تذكرها التوراة في الإصحاح العاشر من سفر التكوين، وأطلقوا على هذا الأصل، أو الوحدة (الرس السامي) أو (الجنس السامي)، أو (الأصل السامي)، أو (السامية)، وعلى اللغات التي تكلموا بها (اللغات السامية).

---

(1) (علي) د. جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، ط 2، دار العلم للملايين ـ بيروت، مكتبة النهضة ـ بغداد، 1977، ص 222.

(2) (علي) د.فاضل عبد الواحد، من سومر إلى التوراة، ط 2، دار سينا للنشر، القاهرة، 1996، ص40.

وقـد أدت هـذه الملاحظـات اللغويـة بأحـد هـؤلاء البـاحثين، وهـو "أوجست لودفيج شلوتـسر" (August Ludwig Schloester) إلى اسـتعمل لفظ (السامي) مطبوعاً لأول مرة عام 1781 م في مقال لـه عـن الكلـدانيين أورده "أيشهورن" (Eichhorn).

يقول " شلوتسر" ص 161 : "من البحـر المتوسـط إلى الفـرات، ومـن أرض الرافدين حتى بلاد العرب جنوباً سادت كما هـو معـروف لغـة واحـدة، ولهـذا كـان السوريون والبابليون والعبريون والعرب شعباً واحداً، وكان الفينيقيون (الحـاميون) أيضاً يتكلمون هذه اللغة التي أود أن أسميها اللغة السامية". وقد تـولى "أيـشهورن" بعد ذلك هذا الاصطلاح والدفاع عنه وإن ادعاه لنفسه[1].

وفي عام 1869 م قسم العلماء اللغات السامية إلى مجمـوعتين: المجموعـة السامية الشمالية، والمجموعة السامية الجنوبية، وتتألف المجموعـة الـشمالية مـن العبرانية والفينيقية والآرامية والآشورية والبابليـة والكنعانيـة. وأمـا المجموعـة الجنوبية، فتتألف من العربية بلهجاتها والحبشية، وعم استعمال هـذا الاصـطلاح بينهم وأصبح موضوع (الساميات) من الدراسـات الخاصـة عنـد المستـشرقين، تقوم عـلى مقارنـات وفحـوص (أنتولوجيـة) و(بيولوجيـة) وفحـوص علميـة أخرى، فضلاً عن الدراسات التاريخية واللغوية والدينية[2].

وتحت عنوان (من هم الساميون!؟) يورد المؤرخ الدكتور "فيليب حتـي" ما يلي: "وقد اشتق اسم الساميين من سام بن نوح على أساس أن الساميين كانوا تسمية لغوية، وتطلق على الذين يتكلمون لغة سامية، واللغات السامية كـما هـو معترف بها اليوم هي مجموعة لغوية خاصة تضم الآشـورية البابليـة (الأكاديـة)، والكنعانية (الفينيقية)، والآراميـة والعبريـة والعربيـة والحبـشية، وكـانوا غالبـاً

---

(1) (موسكاتي) سبتينو، الحضارات السامية القديمة، ترجمة: د. السيد يعقوب بكـر، الهيئـة المصرية العامة للكتاب، 1997، ص 208.

(2) (الشمس) د. ماجد عبد الله، في أصل العرب ومواطنهم، ط1، دار علاء الدين للنـشر والتوزيـع والترجمة، دمشق، 2004، ص 58.

يشكلون جماعة واحدة، قبل أن تحصل بينهم هذه الاختلافات، وأن هذه الجماعة كانت تتكلم اللغة نفسها وتعيش في المكان نفسه"[1].

لم يلبث مصطلح "الساميون" و"اللغات السامية" أن لاقى تقبلاً من المختصين بالاستشراق، فشاع استعماله على نطاق واسع، وبقي متداولاً إلى يومنا هذا بين المعنيين بتاريخ اللغات والحضارة. على الرغم من أن هذه التسمية لا تستند إلى واقع تاريخي أو أسس علمية عنصرية صحيحة أو وجهة نظر لغوية.

وفي تقديرنا أن جوانب الضعف في مصطلح "سامي وساميون" يمكن أن توجز بالنقاط الآتية:

*** لماذا لم ينتسبوا لنوح بطل الطوفان مباشرة!؟ وما مصدر هذا التسلسل في النسب!؟ وهل حقاً ابتدع السيد سام لغةً تكلم بها غير لغة أبيه نوح وإخوانه [إنْ وجدوا]!؟ لأنه من المتعارف عليه قرآنياً أنه لم يكن لنوح غير ولد واحد وكان من المغرقين قال تعالى:** ﴿ **وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾** ﴾ [سورة هود: 42-43]!؟ فإذا كان للسيد سام وجود فلماذا لم يذكره القرآن!؟ قال تعالى: ﴿ **أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾** ﴾ [سورة مريم: 58]. فلو كان لنوح أولاد لقال تعالى: **(ومن ذرية نوح)**، ولكنه قال: ﴿**ومن حملنا مع نوح**﴾ .
قد ينتقدنا البعض من شيوخ التسول على هذا التفسير، بقولهم إن القرآن الكريم قد ذكر أن لنوح أولاداً، غير الكافر لورود لفظ أهله في قوله تعالى: ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾** ﴾ [سورة هود: 40]. **وتعليقاً على**

---

(1) (حتى) د.فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ترجمة: د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، 1958، ص 66.

ذلك أود أن أشير أنه ليس المقصود من الأهـل: الأهـل في النـسب بـل يـشملهم ويشمل الأهل في العقيدة ممن عبر عنهم قوم نوح بـالأراذل، ولم يـشمل الزوجـة الخائنة والولد بالنسب "إنه ليس من أهلك أنه عمل غير صـالح". أمـا مـا قـد رُوي عن رسولنا الكريم من أنه قال: "سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش" [1]، فهو حديث أشكُّ في نسبته إلى رسولنا الكريم. ويعلق عـلى هـذا الحديث "د. الشمس" بقوله: وقد روى "الطبري" جملـة أحاديـث عنـه في هـذا المعنى. وقد لاحظت أنها كلها وردت مـن طريـق "سـعد بـن أبي عروبـة" عـن "قتادة" عن "الحسن" عن "سمرة بن جندب"، وهي في الواقع حـديث واحـد، ولا يختلف إلا اختلافاً يسيراً في ترتيب الأسماء أو في لفـظ أو لفظـين. ومـن هنـا يجب أن يدرس هذا الحديث وكل الأحاديث المنسوبة إلى الرسول في هذا البـاب دراسة وافية، لنرى مدى صحة نسبتها إلى الرسول، كما يجب دراسة ما نـسب إلى "عبد الله بن عباس" أو غيره في هذا الشأن، فإن مثل هذه الدراسات تحيطنا علـماً برأي المسلمين أيام الرسول وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى في نسبتهم إلى سام بـن نوح[2] هذه المغالاة في النسب إلى جد خيالي. قد أوقعتهم في حرج وتناقض. فمن وجهة نظري ووفق قناعاتي الشخصية أنـه لا يوجـد ممـا تركـه لنـا سـكان شـبة الجزيرة العربية قبل الإسلام، سواء في مجال الآثار أو المخلفات المادية، أو في مجال النقوش أو الشعر، ما يشير إلى اعتقادهم في نسبتهم إلى السيد سام بن نوح.

❋ كذلك أود أن أشير أنه من الواضح أن "شلوتـسر" قـد اعتمـد العـرق [أي وحـدة الأصـل] أساسـاً لتأصـيل التـشابه اللغـوي بـين الأقـوام المـدعوة بـ(السامية) متناسياً أن هذا السام كان له أخوان همـا (يافـث) و(حـام)، فكيـف يصح أن يقتطع (سام) من بيت أبيه ومن بين إخوته عرقياً ولغوياً!؟ وبالرغم من ذلك يتفق اللاهوتيون على أن نوحاً أعطى آسيا لسام، وأوربـا ليافـث، وأفريقيـا

---

(1) (الطبري) محمد بن جرير أبو جعفر، تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك، الجزء الأول، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ، ص 209.

(2) في أصل العرب ومواطنهم، مصدر سبق ذكره، ص 59.

لحام. فولد كنعان وحام الزنوج والملونين. لذلك ينبغي أن تكون ذريـتهما عبيـداً للأوربيين. لكن السؤال هو: كيف أصبح أبنـاء نـوح الثلاثـة، مؤسـسين لثلاثـة أعراق مختلفة، وهم المولودون من أب واحد، وأم واحدة؟ ومع ذلـك، علينـا أن ننحني أمام إرادة يهوه وكتابه المقدس، ونعترف بأن العـرق الآسـيوي الأصـفر، خرج من صلب سام، والأوربي الأبيض من صلب يافـث، والأفريقـي الأسـود من صلب حام وكنعان، بيد أن سؤالاً يتبادر إلى الذهن: من أين جاء الأمريكيون الحمر البشرة؟ أغلب الظن أن الروح القدس سها أن يخبر مؤلف كتاب التكوين عن ذلك! وعلينا أن نقـر بـأن هـؤلاء لا أب لهـم! [1] ويعلـق عـلى ذلـك المفكـر الفرنسي "بيير روسي" بقوله: "من أجل احترام التراث التوراتي، ينبغي أن نقول (اليافثيون) وليس (الآريون)، لأن (يافث) من أبناء نوح الثلاثة هو الـذي نـسل اليونانيين، والأناضوليين، وأقاربنا الأوربيين"[2] وما عدا ذلك إن إرجـاع البـشر في جميع أنحاء العالم إلى نفر ثلاثة من أبناء نوح شيء لا يأتلف مع المنطق والعقـل والعلم، ومن الصعب بتكاثرهم على الوجه الذي يريد اليهود أن نتصوره، وهـو شيء مخالف لطبـائع الكائنـات كـما أشـار إلى ذلـك "ابـن خلـدون" في مقدمتـه الشهيرة. يقول "ابن خلدون": "ولما رأى النسابون اختلاف هذه الأمـم بـسماتها وشعارها حسبوا ذلك لأجل الأنساب فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان مـن ولد حام، وارتابوا في ألوانهم فتكلفوا نقل تلك الحكايـة الواهيـة وجعلـوا أهـل الشمال كلهم أو أكثرهم من ولد يافث وأكثر الأمم المعتدلة وأهـل الوسـط ..... من ولد سام، وهذا الزعم ... ليس بمقياس مطرد ..... فتعمـيم القـول في أهـل جهة معينةٍ من جنوبٍ أو شمالٍ بأنهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من نحلـة أو لونٍ أو سمةٍ وُجدت لذلك الأب إنما هو من الأغاليط التي أوقع فيهـا الغفلـة

(1) (ليوتاكسل)، التوراة: كتاب مقدس أم جمع من الأساطير؟، ترجمة: د. حسان ميخائيل إسـحاق، ط1،الجندي للطباعة والنشر، 1994، ص 75.

(2) (بيير روسي)، التاريخ الحقيقي للعرب ـ مدينة إيـزيس، ترجمـة: فريـد جحـا، ط1، دار البـشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1996، ص (19-20).

عن طبائع الأكوان والجهات ..."[1]. لقد فاجأنا أحد نبلاء الضمير في الغرب البائس، وهو المفكر الفرنسي المعروف "بيير روسي" حين قرر الانتقاص والتقريع. تقريع من كتب الكذب في جامعات أوربا ومن صدق ذلك في جامعاتنا، قائلاً: "وهل هناك ضرورة لإضافة أن تعبير (سامي) لم يرد له ذكر بين مفردات اللغة الإغريقية، أو في اللغة اللاتينية؟ وما يقال في هذا المجال طويل. إننا لن نجد هذا التعبير قبل نهاية القرن الثامن عشر، ذلك أن العالم أ. ل. شلوتسر هو الذي صاغ هذا النعت(السامي) في مؤلف نشره عام 1781، وأعطاه العنوان التالي (فهرس الأدب التوراتي والشرقي)، كأن الأدب "التوراتي" ليس شرقياً. إن هذا التقسيم الذي حدده أ. ل. شلوتسر يجب أن يدعونا إلى الحذر. وإنه لمن المؤكد وبشكل حاسم أن التسليم بتقسيم الشعوب إلى شرقية وغربية هو مفتاح تاريخنا وأنه مع هذا التقسيم الجغرافي يتطابق حدان مزدوجان عنصريان وهما الهنود الأوربيون [أو من يسمون أحياناً بالآريين] والساميون. إن جميع العقول الجيدة قد انحنت أمام هذا الأختراع المتولد عن خيال اللغويين الألمان. وإن المؤرخين سيعجبون للانتصار المناقض لما هو متعارف عليه، لهذا التصديق السريع، وللمطابقة في عصر، هو عصرنا الذي يؤكد كونه مرتاباً وعقلانياً ورافضاً. والواقع أنه انطلاقاً من الوثائق والمصادر والمواد التي كانت تحت تصرف العالم، يبدو أنه من المستحيل البرهان على وجود شعوب سامية وآرية، وبالأحرى إعطاء الحدود والفروق الخاصة بينها، كما أنه يبدو كذلك خاطئاً في منطلقاته مثلما هو خاطئ في عرضه ووقائعه، هذا المذهب الذي يجد الشرق والغرب بموجبه تعريفاً لكل منهما وتفريقاً لأحدهما عن الآخر حسب هذا التقسيم إلى لغات هندية ـ أوربية وسامية. وإنه لا يحق لنا، بحسب الحالة الراهنة لمعرفتنا، أن نقدم مثل هذه المفاهيم. إن تعبيري [سامي وآري] ليسا شيئاً، ولا يدلان على شيء. ولكي يكتسبا حقيقة ما، أو لكي يصلحا نقطتي

---

(1) (ابن خلدون) عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت، بلا تاريخ، ص (94-95).

انطلاق تاريخيتين، ينبغي أن يكون هذان الشعبان قد امتلكا من قبل صفتي الآرية والسامية. وأنه ليس هناك إنسان ما، أو ثقافة ما، أو مجتمع ما، قد طالب بهذا الارتباط بالمصير السامي أو الآري. إن هذا يجب أن يقال. ولكن عالمنا كان نظرياً إلى حد جعله يجد سعادته في الأشكال الخيالية التي وضعه فيها المفكرون. إن البعد العالمي للنظريات التي يعممونها، والتضامن (لئلا نقول التواطؤ) الذي يصل بعضهم ببعضهم الآخر، والآلة المذهبية التي تحيط بهم.... إن كل ذلك يعطي آراءهم وأقوالهم سيطرة تفرض نفسها على الرأي وتعريه، ويبدو الأمر كما كتب إيراسم «الصحيح أن الإنسان مخلوق يتأثر بالخيال أكثر مما يتأثر بالحقيقة». بيد أنه لا شيء في ميدان الحقيقة يفرض تميزاً سلبياً أو مريباً بين (الآريين) و(الساميين)..."[1]. وليس من اليسير أن نقطع برأي في صدد تقسيم الجنس البشري كما ورد في العهد القديم ومدى انطباقه على الأبحاث الحديثة، ولكني أؤكد أنه غير حري بالدراسة الجدية. ومن جهة أخرى فإن التأصيل العرقي الذي قدمه "شلوتسر" يصطدم بعقبتين رئيسيتين سبقنا إلى تشخيصهما "د. لطفي عبد الوهاب" في معرض حديثه عن الساميين أو الشعوب السامية، فيقول: "الحديث عن الشعوب السامية كمجموعة بشرية تنتمي إلى جنس أو عنصر واحد له ملامحه وخصائصه الجسمية الخاصة به والمميزة له هو حديث لا يستند إلى أساس علمي لسببين: أحدهما يتصل بقضية النقاء العنصري والآخر يتصل بالعلاقة بين العنصر واللغة. وفيما يخص السبب الأول فإن تطابق الملامح والخصائص الجسمانية بين الشعوب السامية أمر غير قائم، فنحن نجد تبايناً واضحاً في هذا المجال بين هذه الشعوب من جهة، ثم داخل كلّ شعب منها من جهة أخرى... وفي الواقع فإن علماء الأجناس قد انتهوا منذ أواسط القرن الحالي إلى أن الحديث عن نقاء الأجناس البشرية قد أصبح في حقيقة الأمر (خرافة علمية) حسب تعبير أحد علماء الأنثروبولوجية المعاصرين... أما عن

---

(1) التاريخ الحقيقي للعرب ـ مدينة إيزيس، مصدر سبق ذكره، ص (18-19).

اتخاذ اللغة أساساً لوحدة الجنس أو العنصر. فيقول "د. لطفي عبد الوهـاب" إن الثابت من الملاحظة التاريخية هو أن اللغة لا تصلح أساساً لأي تحديـد عنـصري لسبب بسيط هو أن الفئات البشرية لها قابلية غريبة لالتقاط اللغات إذا كان ذلك يخدم أهدافاً مصلحية أو عمرانية"[1]. ويذهب المؤرخ "د. فيليب حتى" وآخرون إلى "أن التفسير التقليدي والمألوف الذي يذهب إلى أن الساميين قد انحدروا من أكبر أبناء نوح (سام) لا تؤيده الأبحاث العلمية الحديثة"[2].

* وبصرف النظر عن الجانب العرقي والمشكلات الأنثروبولوجية فإن الحـديث عن أصل مشترك للساميين عـلى النحـو الـذي جـاء في التـوراة لا يقـوم عـلى أسـاس تاريخي. فقائمة النسب التوراتية لا تتفق مع الحقائق التاريخية المعروفة. فيـذكر العلاّمـة الألماني "نولدكه" (Noeldke) في كتابه (اللغات السامية) تدرج التوراة شعوباً في قائمة الساميين كالعلاميين والليـديين رغـم اخـتلافهما، وتقـصي شـعوباً كالكنعـانيين رغـم توافقهم. وقد أرجع العالم "بـروكلمان" (Brochelman) سـبب إقـصاء الكنعـانيين إلى عداء كتاب التوراة للكنعانيين[3]. وقد رجَّع الإصحاح العاشر من سفر التكوين نـسب الكنعانيين إلى حام، جد الكوشيين، ونسب العيلاميين إلى سام، ناجم وفق قناعاتنا عن الخطأ في تفسير جغرافيا التوراة، إذ نقلـوا عـشائر الكنعـانيين مـن مواقعهـا في جزيـرة العرب إلى الساحل السوري، ودمجوا في التسمية بينهم وبين الفينيقيين. ونقلـوا عـشائر العيلاميين إلى الأراضي الـشرقية مـن إيـران، والحقيقـة أن الارتبـاك لم يكـن في قائمـة الأنساب التوراتية، بل في خطأ تفسير جغرافيا التوراة.

نحن إذن أمام خطأ شائع يتمثل في استخدام مصطلح (الـسامية)، ومـا يـشتق منه مثل (الساميين) و(معـاداة الـسامية)، إذ بـات الموقـف المعـادي للحلـم والـوهم الصهيوني أو ممارسات إسرائيل ضد العرب، ينعت باللاسامية، حتـى تحولـت سـيفاً مسلطاً فوق رقاب الكتاب والصحف والحكومات وإخضاعها لما تريده الصهيونية.

---

(1) العرب في العصور القديمة، مصدر سبق ذكره، ص (44-47).

(2) (حتى) د.فيليب وآخرون، تاريخ العرب، دار الكشاف، بيروت، 1949، ص8.

(3) (السعد) جودت، أوهام التاريخ اليهودي، ط1، منشورات الأهلية، عمان، 1998، ص 24.

الفصل الحادي عشر

مهد الشعوب المسماة بالسامية

بالرغم من قناعتنا أن انحدار الساميين من صلب رجل هو سام مجرد أسطورة لا وجود لها. ولأن عدداً من العلماء انصرف إلى بحث المسألة السامية، ووجهوا اهتماماً خاصاً إلى البحث حول المهد الذي نشأ فيه الساميون، وكيف ومتى انتشروا منه، وإلى أي الجهات توجهوا واستقروا. وقد اختلفت وتناقضت أقوالهم، وعلى الرغم من أننا لا نريد الإسهاب في سرد تلك الآراء إلا أن إيجاز خطوطها العامة مهمة للبحث ويمكن تلخيصها بالآتي:

النظرية الأولى:- مهد الشعوب المسماة بالسامية في بابل

لقد قال العالم الألماني "فون كريمر" (V. Kremer) أن أرض بابل هي الموطن الأول للساميين، ودلل على ذلك بالمصطلحات اللغوية على صعيدي الزراعة وعالم الحيوان. ولكنه عاد فاكتشف أن أصل كلمة جمل يعود إلى الهضبة الآسيوية بالقرب من نهري سيحون وجيجون، فإنه يجعل الموطن الغابر للساميين في هذه المنطقة، ثم غادرها آباؤهم الأوائل إلى منطقة بابل التي أصبحت أقدم موطن معروف لهم.

ورشح المستشرق الإيطالي "غويدي" (Guidi) بدوره منطقة بابل موطناً أولاً للساميين، ولكنه خالف "فون كريمر" (V. Kremer) في تحديد الوطن الذي قدم منه الساميون إلى بابل، وجعله في جنوب شرق قزوين.

واعتمد عـالم اللغويـات الألمـاني "هومـل" (Hommel) أيـضاً المقارنـات اللغوية في دراسته، وقال إن موطن الساميين، كان في شمال العراق ثم تراجع عن ذلك، وقال إن منطقة بابل هي التي شكلت هذا الموطن.

ونلاحظ هنا أن هؤلاء المستشرقين أرادوا أن يبرهنوا على صحة مـضمون النص الوارد في سفر التكوين التوراتي، مـن أن منطقـة بابـل قـد شـكلت نقطـة انطلاق الشعوب السامية إلى مناطق غرب آسية الأخرى[1].

وقد فند هذه الآراء المستشرق "نولدكه" (Noldeke) بقوله:

* إن الكلـمات الـشائعة التـي تُعـبر عـن ضرورات الحيـاة قـد فنيـت بتقادم العهد.

* وأكثر من هذا فإن افتراض تردد الألفاظ التي تُعبر عن حاجات الحيـاة الضرورية بين ما تفرع عن اللغة الواحدة لا ينطبـق عـلى اللغـات الـسامية التـي تختلف فيها الألفاظ التي تعبر عن أمور ضرورية مثل كلمة خيمة وولـد ورجـل وعجوز وما إليها، هـذا إلى جانـب أن هـذه الألفـاظ الـشائعة بـين الـساميين في الشمال والساميين في الجنوب التي يجب -كما يرى الأستاذ "غويدي"- أن تكون قد نشأت في وطن الساميين الأول لم يكن من الميـسور تتبعهـا في البقـاع القريبـة من الفرات[2].

* ومن أوجه النقد التي وجهت إلى نظرية القـائلين أن العـراق، أو إقلـيم بابل منه بصورة خاصة، هو مـوطن الـساميين، هـو أن القـول بـذلك يـستدعي تصور انتقال الساميين من أرض زراعية خصبة ذات ميـاه إلى بـواد قفـرة جـرد، وإبدال حياة زراعية بحيـاة خـشنة بدويـة، ومثـل هـذا التـصور يخـالف المنطـق والمعقول والنظم الاجتماعية.

---

(1) (سليمان) د. توفيـق، نقـد النظريـة الـسامية، الجـزء الأول، أسـطورة النظريـة الـسامية ولادتهـا وتطويرها - حقيقتها في التوراة - أسباب وضعها، ط1، دار دمـشق للطباعـة والنـشر، دمـشق، 1982، ص (104-105).

(2) (نادفي) سيد مظفر الدين، التاريخ الجغرافي للقرآن، ترجمـة: د. عبـد الـشافي غنـيم عبـد القـادر، سلسلة الألف كتاب (67)، لجنة البيان العربي، مصر، 1956، ص117.

النظرية الثانية: مهد الشعوب المسماة بالسامية في أرمينية

من القائلين بهذه النظرية "جون بيترس" (John Peters)، ويلخص رأيه بأن منطقة أرمينية، وهضاب آسيا الوسطي قرب جبال آرارات هي المهد الأول للساميين والآريين معاً، وهو يعتمد في رأيه هذا على قصة الطوفان كما جاءت في التوراة، ويري أن أوصاف هذه المنطقة يمكن استنباطها مما جاء في التوراة، ولما كانت القصة تذكر أن نوحاً قد أخذ أسرته (بما فيها أبناؤها ـ المزعومين ـ) في الفلك فتكون الشعوب السامية والآرية التي انحدرت من صلب هؤلاء الأبناء الذين عددتهم التوراة قد بدأت في أرمينية كمواطن أصلي لها[1]، واستندوا أيضاً إلى مقولة أن بعض ملامح ما يسمى النمط الشبيه بالأرمنى صارت من الملامح المميزة لليهود[2].

ولكن هذا الرأي لم يسق له أي دليل يعضده سوى أشارة وردت في التوراة (سفر التكوين) عن رواية الطوفان ورسو سفينة نوح قد أساء فهمها. كما أن رواية الطوفان لم يقتصر ورودها على التوراة كجزء من التراث الديني اليهودي، ولكنها ترد كذلك في تراث عدد كبير من الشعوب كما رأينا.

النظرية الثالثة: مهد الشعوب المسماة بالسامية في أفريقية

لقد نظرت طائفة من علماء الساميات إلى أفريقية على أنها المكان المناسب لأن يكون الوطن الأول للساميين. ومن هذه الطائفة من علماء الساميات "بلكريف"، وقد كون رأيه من وجود تشابه في الملامح، وفي الخصائص الجنسية، وصلات لغوية بين الأحباش والبربر والعرب دفعته إلى القول بأن الوطن الأول للساميين هو أفريقية.

---

(1) (الشمسر) د. ماجد عبد الله، في أصل العرب ومواطنهم، ط1، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، 2004، ص (100-101).

(2) نقد النظرية السامية، الجزء الأول، أسطورة النظرية السامية ولادتها وتطويرها - حقيقتها في التوراة - أسباب وضعها، مصدر سبق ذكره، ص 105.

وذهب إلى هذا الرأي "جيرلند" (Gerland)، مستنداً إلى الدراسات الفيزيولوجية مثل تكوين الجماجم، والبحوث اللغوية. وقد زعم أن شمال إفريقية هو الموطن الأصلي للساميين، وادعى أن الساميين والحاميين من سلالة واحدة ودوحة تفرعت منها جملة فروع، منها هذا الفرع السامي الذي اختار الشرق الأدنى موطناً له.

وهناك نفر من العلماء أيدوا هذه النظرية ودافعوا عنها أو استحسنوها، مثل "برتن" (Bertin)، و"نولدكه" (Noeldeke)، و"موريس جسترو"، و"كين"، و"ربلي"، وغيرهم.

ولكنهم اختلفوا أيضاً في تعيين المكان الذي نبت فيه الساميون أول مرة في القارة الإفريقية، واختلفوا كذلك في الطريق الذي أوصل الساميين إلى جزيرة العرب. فاختار "برنتن" (Brinton) شمال غربي إفريقية، ولاسيما منطقة جبل الأطلس فجعلها الموطن الأصلي للساميين.

واختار نفر آخر إفريقية الشرقية موطناً أول للساميين، للعلاقات "الأثنولوجية" الظاهرة التي تلاحظ على سكان هذه المنطقة والساميين. وزعم أن الساميين سلكوا في عبورهم إلى آسية أحد طريقين: إما طريق سيناء، حيث هبطوا في العربية الحجرية وأقاموا فيها مدة ثم انتشروا منها، أو طريق المندب، حيث دخلوا العربية من مواضع مختلفة من الحبشة ومن أرض فنط Punt، وهي الصومال الحديثة(*)، وقد أكسبتهم إقامتهم في بلاد العرب خصائص جديدة، ووسمتهم بسمات اقتضتها طبيعة الوطن الثاني، ولكنها لم تتمكن من القضاء على الخصائص الأولى التي تشير إلى الوطن الأول قضاءً تاماً، ولا على الصلة بين اللغة الحامية والسامية التي تشير إلى الأصل المشترك كذلك[1].

(*) لابد من الإشارة هنا إلي أن المقصود ببلاد بونت منطقة ما في جزيرة العرب، وبالأخص في اليمن، لمزيد من التفاصيل علي يمانية بلاد بونت، يراجع كتابنا: موسي وفرعون في جزيرة العرب، ط1، دار خطوات للنشر والتوزيع، دمشق،2004 ، ص (69-73).

(1) في أصل العرب ومواطنهم، مصدر سبق ذكره، ص (69–70).

(*) لابد من الإشارة هنا إلي أن المقصود بـ (كنعان) منطقة ما في جزيرة العرب، وبالأخص في اليمن، لمزيد من التفاصيل علي يمانية بلاد كنعان، يراجع كتابنا: كنعان وملوك بني إسرائيل في جزيرة العرب، ط1، دار خطوات للنشر والتوزيع، دمشق،2006 .

على أن هذا الافتراض الإفريقي للموطن الأصلي للساميين تعترضه بعض الصعوبات والاحتمالات التي قد تقلل من وقعه بعض الشيء. فإن البربر [على القسم الغربي من الساحل الإفريقي الشمالي] يصلون أنسابهم بأنساب العرب من أهالي اليمن.

ولا أستطيع أن أنقل كل ما ذكره العلاَّمة "ابن خلدون" في أنساب البربر، ولكن أنقل ما جاء في الجزء الثاني من تاريخه، قال: "أول التبابعة باتفاق المؤرخين الحارث الرائش..... ثم ملك بعده ذو المنار.... وسمي ذا المنار لأنه رفع المنار ليهتدى به، ثم ملك بعده ابنه أفريقش، وهو الذي ذهب بقبائل العرب إلى أفريقية وبه سميت، وساق البربر إليها من أرض كنعان (*) مر بها عندما غلبهم يوشع وقتلهم، فاحتمل أفريقش الغل منهم وساقهم إلى أفريقية فأنزلهم بها، وقتل ملكها جرجير، ويقال إنه الذي سمَّى البربر بهذا الاسم لأنه لما أفتتح المغرب وسمع رطانتهم قال: ما أكثر بربرتهم فسُمُّوا البربر، والبربرة في لغة العرب هي اختلاط أصوات غير مفهومة، ومنه بربرة الأسد. ولما رجع [أفريقش] من غزو المغرب ترك هنالك من قبائل حمير صنهاجة وكتامة فهم إلى الآن بها وليسوا من نسب البربر، قاله الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والسهيلي وجميع النسابين"[1].

أما ما يخص شرقي أفريقية الذي يشير إلى الحبشة كموطن أصلي للساميين، فقد دحض هذه النظرية المستشرق "ديتلف نيلسن" بقوله: "ليس الساميون الذين خلفوا لنا في بلاد الحبشة آثاراً وآداباً هم الذين مازالوا حتى اليوم يقيمون في بلادهم العنصر الأصلي الذي يتكون منه السكان الأصليون فيها، بل هم فيما يُعتقد أولئك الذين هاجروا إليها من بلاد العرب، وذلك لأن لغتهم عبارة عن لهجة عربية جنوبية، وما تزال إلى اليوم قريبة من العربية، بالرغم من وجود بعض العناصر الحامية فيها، أما اللغة، أما الخط، أما الثقافة فسبئية منذ

---

(1) (ابن خلدون) عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون، المجلد السادس، الجزء الثاني، مطبعة بولاق، مصر، بلا تاريخ، ص 51.

البداية، وذلك لأن المهاجرين من بلاد العرب الجنوبية نزحوا إلى البلاد فيما يظهر في قرون بعيدة قبل الميلاد، وأسسوا هنالك مستعمرات ووضعوا الأساس لدولة الحبشة التي أخضعت فيما بعد في القرن السادس الميلادي بلاد العرب الجنوبية لسلطانها"[1].

وإذا كان هنالك تشابه في ملامح الجسم وتركيبه بين سكان أفريقيا وبين سكان العربية الجنوبية، فهل يوجد مثل هذا التشابه بينهم وبين عرب شمال الجزيرة العربية في العراق والشام[2].

النظرية الرابعة:

مهد الشعوب المسماة بالسامية في جزيرة العرب

يذهب فريق من العلماء إلى أن بلاد العرب هي الأرض التي خرج منها الساميون الأول، فذهب هذا المذهب نفر من مؤرخي أوربا وأمريكا مثل "دي غوية" (De Goege)، و"كرادر" (Schrader)، و"ونكلر" (Winklr)، و"تيلي" (Tiele)، و"ماير" (Mayer)، و"سبرنجر" (Sprenger)، و"نولدكه" (Noeldeke)، و"كن" (Keana)، و"ربرتسن سميث" (Robertson Smith)، و"صموئيل لانج" (Samuel Laing)، و"رايت ساسي" (Wright Sayce)، و"ر. و. روجرز" (R. W. Rogers) وغيرهم......

ويمكن أن نلخص الأدلة التي تؤيد هذه النظرية فيما يلي:

* يشهد التاريخ أن كثيراً من الشعوب خرجت من بلاد العرب، واستوطنت بلاداً أخرى.

* تعد اللغة العربية أقرب اللغات السامية للأصل السامي الأول.

---

(1) (نيلسن) د. ديتلف، الديانة العربية القديمة ـ الفصل الخامس من كتاب التاريخ العربي القديم، ترجمة واستكمال: د. فؤاد حسنين، مكتبة النهضة المصرية، 1958، ص 31.

(2) (الملاح) د. هاشم يحيى، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1994، ص 36.

* يشابه تركيب العرب الجثماني ما امتاز به الساميون من صفات جسدية.

* إن الحياة العربية البدوية التي يحياها العرب، هي أثر بدائي وقديم للمعيشة عند الساميين[1].

إن الأدلة الآنفة الذكر قد حملت معظم الباحثين في هذا المجال على قبول الرأي الذي يؤكد أن شبه الجزيرة العربية هي الموطن الأول للأقوام المسماة خطأً بالسامية.

أما القائلون إن الموطن الأصلي لجميع الساميين هو شبه الجزيرة العربية، فقد أنقسم أصحاب هذه النظرية حول تحديد المكان الذي انطلقت منه هذه الهجرات من شبة الجزيرة العربية، فقال "سبرنجر" (Sprenger)، إن أواسط شبه الجزيرة العربية، ونجداً منها بخاصة، قد شكلت الموطن الأول للساميين، ثم أخذ بهذا الرأي عدد كبير من المستشرقين، ويرى بعض هؤلاء أن العروض وخاصة البحرين والسواحل المقابلة لها قد شكلت الوطن السامي الأول[2].

ومن المستشرقين الذين رجحوا نظرية كون الجزيرة العربية هي الوطن الأصلي للساميين، المستشرق "ديتلف نيلسن" الذي أشار إلى أن: "الدين العربي القديم هو الخطوة السابقة للدين البابلي الآشوري المعقد، وأنه كان تمهيداً للتطور التاريخي للدين العبري اليهودي. ويستطرد قائلاً إن النزاع بين مختلف النزعات الدينية السامية قد تطور أخيراً إلى الثالوث الإلهي (أب. أبن. روح)، ومن ثم خطا خطوة أخرى إلى التوحيد المسيحي في صورته القديمة التي نعرفها في الحضارة العربية القديمة[3].

ويذهب "أمادي غوية" إلى القول إن قلب الجزيرة العربية كان الوطن الأول للساميين، وقد هاجرت منه عشائر مختلفة إلى سورية وبابل وعمان

(1) التاريخ الجغرافي للقرآن، مصدر سبق ذكره، ص 118.

(2) نقد النظرية السامية، مصدر سبق ذكره، ص 105.

(3) الديانة العربية القديمة ـ الفصل الخامس من كتاب التاريخ العربي القديم، مصدر سبق ذكره، ص 53.

واليمن، وهي تدفع أمامها ما تقدمها مـن موجـات الهجـرة التـي اتجهـت نحـو كردستان وأرمينية وإفريقيا[1].

وقال "فلبي" (Philby) في دراسته المسهبة لأحوال جزيرة العرب إن الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب هي الموطن الأصلي للساميين. وفي هذه الأرضين نبتت السامية، ومنها هاجرت بعد اضطرارها إلى ترك مواطنها القديمة لحلول الجفاف بها الذي ظهرت بوادره منذ عصر البالثوليتك (Palaeolithic)، وقد هاجرت -في رأيه- في موجات متعاقبة سلكت الطرق البرية والبحرية حتى وصلت إلى المناطق التي استقرت فيها، هاجرت وقد حملت معها كل ما تملكه من أشياء ثمينة، حملت معها آلهتها، وأولها الإله (القمر)، وحملت معها ثقافتها وخطها الذي اشتقت منه سائر الأقلام، ومنه القلم الفينيقي، وطبعت تلك الأرضين الواسعة التي حلت فيها بهذا الطابع السامي الذي مازال باقياً حتى اليوم. وقد أخذ "فلبي" رأيه هذا من دراسات العلماء لأحوال جزيرة العرب، ومن الحوادث التاريخية التي تشير إلى هجرة القبائل من اليمن نحو الشمال. فاليمن في رأي "فلبي"، وجماعة آخرون من المستشرقين، هي (مهد العرب)، ومهد الساميين. منها انطلقت الموجات البشرية إلى سائر الأنحاء. وهي في نظر بعض المستشرقين أيضاً (مصنع العرب)، وذلك لأن بقعتها أمدّت الجزيرة بعدد كبير من القبائل قبل الإسلام بأمد طويل وفي الإسلام. ومن اليمن كان (نمرود)، وكذلك جميع الساميين[2].

وقد كتب "صموئيل لانج" (Samuel Loing) يقول: "يبدو أن المسألة واضحة وضوحاً كافياً، مهما اختلفنا في تحديد الموطن الأول للآريين، فالموطن الأول للساميين لابد أن يكون بلاد العرب، لأننا في كل مكان آخر لا نعرفهم إلا وافدين من الخارج مهاجرين أو غزاة فاتحين، وجدوا شعوباً من أجناس أخرى قد سبقتهم، إلا في الجزيرة العربية، حيث يبدون وكأنهم السكان الأصليون، ولذلك فإن التاريخ

---

(1) التاريخ الجغرافي للقرآن الكريم، مصدر سبق ذكره، ص 120.

(2) في أصل العرب ومواطنهم، مصدر سبق ذكره، ص (66-67).

القديم لكلـديا وآشـور وتقاليـدهما الموروثـة تـشير إلى أن الـساميين قـد وفـدوا مـن الجنوب، إما عن طريق الخليج الفارسي، أو عبر صحراء بلاد العرب وسـورية، ولـذا فنحن لا نعرف غير الساميين والساميين فقط، في بلاد العرب منذ أقدم العصور".

"ويعتبر، "نولدكه" أكبر ثقة في هذا الموضوع، وقد ذكر في (دائرة المعارف البريطانية) في حديثه عن اللغات السامية" أن بعض كبار العلماء يرى أن جزيـرة العرب الوطن الأول للجنس السامي، وهناك كثير من الأدلة تؤيد هذه النظريـة ويحفل التاريخ بأخبار القبائل التي خرجت من جزيرة العرب منذ فجر التاريخ، واستقرت في الأراضي الزراعية التي تتاخم صحراء بلاد العرب، وقـد احترفـوا الزراعة واتخذوها نظاماً لحياتهم، وهناك كثـير مـن الأدلـة اللغويـة تـشير إلى أن العبرانيين والآراميين من أصل بـدوي، والحـق أن جزيـرة العـرب، وامتـدادها الشمالي في بادية الشام، هي الوطن الحقيقي الملائم لشعب بـدوي والمفـروض أن العرب يمثلون الصفات الـسامية أصـدق تمثيـل وأن لغـتهم أقـرب إلى الأصـل السامي من لغات الأجناس التي تشبههم، ونحن نؤيد تأييداً تامـاً هـذه النظريـة التي ترى أن جزيرة العرب هـي الـوطن الأول لكـل الـشعوب الـسامية، لأنهـا نظرية جديرة بالتعضيد[1].

(1) التاريخ الجغرافي للقرآن الكريم، مصدر سبق ذكره، ص (122-123).

الفصل الثاني عشر

ساميُّون أَمْ عرب!؟

والآن، هل يحق لنا أن نتساءل مع "موسكاتي": إلى أي حد يحق لنا الحديث عن "شعوب سامية"!؟ يقرر "موسكاتي" بشأن هذه الشعوب أنها "شعوب تتشابه في خصائصها تشابهاً ملحوظاً"[1]. وهي "تتميز عن غيرها بصفات معينة مشتركة بينها، وهذه الخصائص لغوية قبل كل شيء. فبين اللغات السامية من التشابه الكبيرة في الأصوات والصيغ والتراكيب والمفردات ما لا يمكن معه أن ننسب تقاربها إلى حدوث اقتباسات فيما بينها في العصور التاريخية، وإنما لا سبيل إلى تفسير هذا التقارب إلا بافتراض أصل مشترك لها"[2]. وبعد مناقشات مقتضبة، لكنها بيِّنة، أنه أصل واحد، "وأن الشعوب التي تتكلم اللغات السامية وفدت في العصور التاريخية من الجزيرة العربية"[3]. كما يقرر "موسكاتي" أن التشابه لا يقع في الجانب اللغوي فحسب، بل يشمل التقاليد الثقافية والحضارية لتلك الشعوب، قائلاً:" على أنه من الصحيح أنه كانت هناك وحدة حقيقية واشتراك في التقاليد في مجموعة الشعوب السامية، ولهذا ليست دراسة هذه المجموعة جمعاً متعسفاً لعناصر لا ترتبط فيما بينها إلا على نحو عارض، وإنما هي

(1) (موسكاتي) سبتينو، الحضارات السامية، ترجمة: د. السيد يعقوب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997، ص 19.

(2) المصدر نفسه، ص 21.

(3) المصدر نفسه، ص 26.

صورة لوحدة عضوية محددة في نطاق التاريخ السياسي والحضاري للشرق الأدنى القديم"[1].

وإذا كان "موسكاتي"، وأكثرية الدارسين غيره، يصرون على أن شبة الجزيرة العربية هي مصدر الشعوب المسماة خطأً بالسامية. كما يقرر "د. فيليب حتي" إن النظرية المحتملة أكثر من غيرها تجعل ذلك الموطن الجزيرة العربية[2].

ومجدداً إذا كانت هذه الشعوب المسماة خطأً بالسامية من جزيرة العرب، فلماذا يصر الباحثون الغربيون، وأصحاب وحراس الفكر الآسن وباعة التاريخ لمن يدفع أكثر من الأكاديميين العرب، على إطلاق لفظ "ساميين" على هذه الشعوب!؟

فمن المعروف أن عدداً من ثقاة الباحثين سبق لهم أن ناقشوا موضوع السامية تفصيلاً، وقاموا بتخطئة التسمية، وأنهم متفقون على أن تسمية السامية تسمية غير علمية ومبنية على أساس أسطوري لم يأت أي دليل على وجوده في التاريخ.

فها هو ذا أحد نبلاء الضمير، العلاّمة الفرنسي "بيير روسي"، لم يسعه السكوت على هذا الكذب والدجل التاريخي فيقول: "إن هذا التعبير (سامي)، الذي لم يتفقوا أبداً على محتواه، إننا، باختصار في جهل مطبق، جهل علمي، متفق عليه. وإن الأمر سيكون بسيطاً جداً فيما لو أننا تكلمنا بدلاً عن الساميين، الأبطال المختلقين من أصل خيالي.... لو أننا تكلمنا عن العرب، ذلكم الشعب الحقيقي، الذي يمتلك وجوداً اجتماعياً مستمراً، وجوداً ثقافياً ولغوياً يعطي حياةً وتوازناً لهذا البحر المتوسط من عدة آلاف من السنوات..."[3].

فمن الباحثين الذين انتقدوا مصطلح (ساميين)، الباحث العربي الشهير "د. جواد علي"، وارتأى أن يحل محله مصطلح (عرب)، ففي كتابه (تاريخ

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص 26.

(2) (حتى) د. فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ترجمة: د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، 1958، ص 67.

(3) (بيير روسي)، التاريخ الحقيقي للعرب ـ مدينة إيزيس، ترجمة: فريد جحا، ط1، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1996، ص 24.

العرب قبل الإسلام، ج2) قال: "إني سأطلق لفظ (عرب) على جميع سكان الجزيرة، بغض النظر عن الزمان الذي عاشوا فيه والمكان الذي وجدوا فيه، سواء أكانوا سكنوا في الأقسام الشمالية أم في الأقسام الوسطى من جزيرة العرب، أم في الأقسام الجنوبية منها، فكل هؤلاء في نظري (عرب).... وعرب علم لقومية خاصة، مصطلح ظهر متأخراً في النصف الأخير من الألف الأول قبل الميلاد، وتركز وتثبت بعد الميلاد خاصة، وقبيل ظهور الإسلام على الأخص. وعلى هذا فالذين عاشوا قبل الميلاد بقرون عديدة وبألوف السنين، هم (عرب)، وبالطبع وإنْ لم يُدْعوا (عرباً).....". ويضيف "د. جواد علي" قائلاً: "ولعلي لا أكون مخطئاً أو مبالغاً إذا قلت إن الوقت حان لاستبدال مصطلح (عربي) و(عربية) بـ(سامي) و(سامية)، فقد رأينا أن تلك التسمية تسمية مصطنعة تقوم على أساس التقارب في اللهجات وعلى أساس فكرة الأنساب الواردة في التوراة.... أما مصطلحنا (العرب) الذي يقابل السامية فهو أقرب ـ في نظري ـ إلى العلم... وليس ببعيد ولا بقريب عن العلم والمنطق أن تعد السامية عربية لكونها ظهرت في جزيرة العرب، ونحن نعلم أن كثيراً من العلماء يرون أن جزيرة العرب هي مهد الساميين......"[1].

ويشير "محمد عزة دروزة" أيضاً إلى ضرورة إبدال بمصطلح (سامي) مصطلح (عربي)، ففي كتابه (تاريخ العرب قبل العروبة الصريحة في جزيرة العرب) يقول عن تسمية (سامية): "وهي تسمية ليس لها من سند من تاريخ وعلم آثار، ومن العجب أنها انتشرت بين علماء العرب وسرت بين مؤرخي العرب وكتابهم بطريق العدوى الاقتباسية المعتادة مع أن تسمية الجنس العربي واللغات العربية هي على كل حال أصح منها......"[2].

---

(1) (علي) د. جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثاني، مطبعة النقيض، بغداد، 1951، ص24.

(2) (دروزة) محمد ، تاريخ العرب قبل العروبة الصريحة في جزيرة العرب، بيروت، بلا تاريخ، ص (16-17).

وينتقد "دروزة" الأقلام العربية التي تستعمل مصطلح (سامية) قائلاً: "وقليل منهم من قرر هذا الخطأ وأنكره، وارتأى تسمية الأقوام العربية لكل من سكن الجزيرة أو خرج منها كما فعل "د. جواد على" في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام)، حيث قال في جزئه الثاني: إذا أردنا أن يكون كلامنا علمياً أو قريباً من العلم وجب علينا إهمال كلمة (الشعوب السامية) و(الساميين) وتبديلها بكلمة (الشعوب العربية) و(العرب) لأن هذه التسمية ملموسة المفهوم بينما تلك اصطلاح مبهم، كما فعل مؤلفو (معالم الحضارات في الشرق والغرب) "الرفاعي" ورفقاه، حيث قالوا طغى اسم (الشعوب السامية) على الأقلام بالمعنى الجنسي لسكان جزيرة العرب والنازحين منها، وهي تسمية لا مبرر لها سوى رواية التوراة بالاصطلاح الشائع، والأصح الذي يتمشى مع المنطق التاريخي أن يسمى باسم (الشعوب العربية) لأننا نجد اسم العرب منذ القدم في الآثار البابلية والآشورية والعبرية، لأن الفرس والرومان أطلقوا على سكان جزيرة العرب اسم العرب منذ الألف الأول قبل المسيح"[1].

ويطالب "أنور الرفاعي" بإلغاء مصطلح (سامي) وإبدال (عربي) به، قائلاً: "ومنعاً للخطأ العلمي بالاستمرار بإطلاق اسم الشعوب السامية على الأقوام القديمة التي خرجت من جزيرة العرب، وأقامت دولاً وحكومات في مناطق متفرقة مما اصطلحنا على تسميته بالوطن العربي، وابتعاداً عن التسمية المزدوجة لهم باسم الساميين العرب، والتفرقة بينهم وبين عرب الجاهلية والإسلام، فإننا فضلنا أن نطلق عليهم اسم (العرب القدماء)، ونقصد بذلك جميع الشعوب التي أقامت في جزيرة العرب منذ العصور الحجرية حتى العصر الجاهلي، أو التي خرجت منها واستوطنت الهلال الخصيب أو شمال أفريقيا"[2].

غير أن هذا المصطلح البديل الذي يقدمه بعض هؤلاء الباحثين، وهو تسميتهم (الساميين) بـ(العرب)، لم يلق تقبلاً من المعنيين بالدراسات اللغوية

(1) المصدر نفسه، ص (17-18).

(2) (الرفاعي) أنور، الإنسان العربي والحضارة، دار الفكر، دمشق، بلا تاريخ، ص26.

والحضارية القديمة. يضاف إلى ذلك أن بعضاً من هؤلاء الباحثين رجع في رأيه، واعترف بأن إطلاق لفظة (عرب) على الأقوام السامية أمر لا تسنده الحقائق التاريخية، فالباحث العربي الشهير "د. جواد علي"، وهو من أكثر المتحمسين لاستبدال لفظ (سامي) بـ(عربي)، كما سبق أن رأينا، رجع في رأيه في كتابه (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول) ولم يقدم أي مصطلح بديل للساميين قائلاً:"لقد أشار عليَّ بعض الأصدقاء أن أدخل في العرب كل الساميين، وأن أتحدث عنهم في كتابي هذا كما أتحدث عن العرب، لأن وطن الساميين الأول هو جزيرة العرب ومنه هاجروا إلى الأماكن المعروفة التي استقروا فيها، مثلهم في ذلك مثل القبائل العربية التي تركت بلاد العرب، واستقرت في العراق وبادية الشام وبلاد الشام، لا يختلفون عنهم في شيء، ثم قالوا: فإذا كُنّتَ قد تحدثت عن تلك القبائل المهاجرة على أنها قبائل عربية، فلم تسكت عن أولئك الساميين، ولم تجعلهم من العرب؟ وجوابي أن القبائل العربية المهاجرة هي قبائل معروفة الأصل، وقد نصت الكتابات والمواد الأخرى على عروبتها، ونسبت نفسها إلى جزيرة العرب، ولهجاتها لهجة عربية، ولا ريب في ذلك ولا نزاع، وثقافتها عربية، أما الشعوب السامية، فليس بين العلماء، كما سنرى اتفاق على وطنها الأول، وليس بينها شعب واحد نسب نفسه إلى العرب، وليس في المواد التاريخية الواصلة إلينا مورد واحد يشير إلى أنها عربية، ولهجاتها وإن اشتركت كلها في أمور، فإنها تختلف أيضاً في أمور كثيرة، هي أكثر من مواطن الاشتراك والالتقاء. ففرق كبير إذن بين هذه الشعوب وبين القبائل العربية من حيث العروبة، ثم إن العروبة في نظري ليس بها حاجة إلى ضم هذه الشعوب إليها، لإثبات أنها ذات أصل تؤول إليه، فقد أعطى الله تلك الشعوب تاريخاً ثم محاه عنهم، وأعطى العرب تاريخاً أينع في القديم واستمر حتى اليوم، ثم إن لهم من الحضارة الإسلامية ما يغنيهم عن التفتيش عن مجد غيرهم وعن تركاتهم، لإضافتها إليهم. فليس في العرب مركب نقص حتى نضيف إليهم من لم يثبت أنه منهم، لمجرد أنهم كانوا أصحاب حضارة وثقافة، وأن جماعة من

العلماء ترى أنهم كانوا من جزيرة العرب، والرأي عندي أن العرب لو نبشوا تربة اليمن وبقية الترب لما احتاجوا إلى دعوة من يدعو إلى هذا الترقيع. وأنا من أجل هذا لا أستطيع أن أضم أحداً من هؤلاء إلى الأسرة العربية، بالمعنى الاصطلاحي المعروف المفهوم، من لفظة العرب عندنا، إلا إذا توافرت هذه الأدلة، وثبت بالنص أنهم من العرب حقاً، وأنهم من جزيرة العرب حقاً. نعم، لقد قلت إن مصطلح الشعوب العربية هو أصدق اصطلاح يمكن إطلاقه على تلك الشعوب، وأن الزمان قد حان لاستبدال مصطلح (عربي) و(عربية) بـ(سامي) و(سامية)، وقلت أشياء أخرى شرحتها في الجزء الثاني من الكتاب السابق في تعليل ترجيح هذه التسمية (ص287). ولكني لم أقصد ولن أقصد أن تلك الشعوب هي قبائل عربية مثل الشعوب والقبائل العربية المعروفة.... فالسامية وحدة ثقافية اصطلح عليها اصطلاحاً، والعروبة وحدة ثقافية وجنسية وروابط دموية، وبين المفهومين فرق كبير"[1].

وبالرغم من نقد "د. طه باقر" لمصطلح الساميين، في سفره القيم (مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة) فإنه لم يقدم بديلاً محدداً، كما أنه أحجم في الوقت نفسه عن إطلاق تسمية (عرب) على تلك الأقوام المسماة خطأً بالسامية للأسباب التي ذكرها "د. جواد علي" قبل قليل، يقول "د. طه باقر" في معرض حديثه عن الساميين ما نصه: "وقبل أن نعدد أشهر الأقوام السامية التي استوطنت وادي الرافدين يجدر أن نبين أن هذه التسمية الشائعة، أي الساميون واللغات السامية، غير موفقة ولا صحيحة في رأيي رغم شيوعها في الاستعمال. ولو أننا أسمينا هذه اللغات بلغات الجزيرة أو اللغات العربية، والأقوام السامية بالأقوام العربية أو أقوام الجزيرة، لكان ذلك أقرب إلى الصواب، ولكن اختصاص أولئك الأقوام السامية كل منهم باسم خاص مثل الأكديين والبابليين والعرب

(1) (علي) د. جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، دار العلم للملايين ـ بيروت، مكتبة النهضة ـ بغداد، 1976، ص 7.

والعبرانيين وغيرهم يجعل إطلاق تسمية عرب على كل منهم لا يعبر عن المدلول التاريخي الدقيق"[1].

إلا أن "د. فاضل عبد الواحد علي" قد توصل في عام 1979 إلى استبدال مصطلح (الساميين) بـ (الجزريين)، وقد قال في حينه ما نصه: "من الجدير ذكره هنا أننا نهمل في دراستنا الحالية المصطلح المتداول (الساميون)، الذي لا يستند إلى أساس تاريخي مقبول وسوف نستعمل بدلاً منه (قبائل الجزيرة أو الجزريين) للإشارة إلى تلك القبائل التي كان موطنها الأصلي جزيرة العرب، والتي كانت تتكلم لغات أو لهجات تعود في أصلها إلى لغة واحدة هي لغة الجزيرة، والتي كانت أيضاً تتشابه، إلى جانب ذلك، بجملة من السمات التاريخية والحياة المعاشية والأعراف والتقاليد والمعتقدات الدينية"[2].

ويبدو أن مصطلح (الجزريون) لقي قبولاً من عدد من الباحثين، كان في مقدمتهم "د. طه باقر" الذي كتب عام 1980، في الفصل الموسوم (السكان الأولون وأصولهم التاريخية) عن مصطلح "الساميين" ما نصه: "يجدر التأكيد أنه مصطلح لا يستند إلى حقيقة تاريخية موثقة؛ أي انتساب أولئك الأقوام إلى سام بن نوح. والصحيح أن يطلق عليهم اسم الأقوام العربية أو أقوام الجزيرة أو الجزريين. انطلاقاً من الحقيقة التي انعقد عليها إجماع الباحثين من أن الجزيرة العربية مهد أولئك الأقوام ومنها هاجروا في فترات زمنية مختلفة إلى أقطار الوطن العربي، ومن بينها وادي الرافدين، وإلى الحبشة وأجزاء أخرى من الأقطار المجاورة"[3].

والذي ذكر أيضاً في كتابه (من تراثنا اللغوي القديم: ما يسمى بالعربية بالدخيل) ما نصه: "فالاسم الصحيح من الناحية التاريخية والقومية والجغرافية

---

(1) (باقر) د. طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، منشورات دار البيان، بغداد، 1973، ص (63-64).

(2) (علي) د. فاضل عبد الواحد، الأكديون: دورهم في المنطقة، مجلة كلية الآداب، العدد 24، بغداد، 1979.

(3) (علي) د. فاضل عبد الواحد، من سومر إلى التوراة، ط2، دار سينا للنشر، القاهرة، 1996، ص 46.

هو أن نطلق عليه أقوام الجزيـرة أو الجـزريين (الجزيـريين) أو (الأقـوام العربيـة القديمة). فقد هاجروا من الجزيرة بموجات مختلفة منذ أبعد العـصور التاريخيـة إلى الأجزاء المختلفة من الوطن العربي بحيث يصح القـول إن الأصـول العربيـة فيها تطغى على تركيب سكانها وعلى لغاتها"[1].

وفي عام 1981 أصدر "د. سامي سعيد الأحمد" كتاباً، يبدو واضـحاً مـن عنوانه (اللغات الجزرية) أن مصطلح (جزري) صار بديلاً مقبـولاً عنـد بعـض الباحثين عن المصطلح القديم (سامي).

ويذكر "د. سامي سعيد الأحمد" في مدخل كتابه، تحت عنوان (الهجـرات الجزرية) أنه: "أطلق عـلى الأقـوام الجزريـة مـن قبـل البـاحثين الغـربيين اسـم الساميين، وهي نسبة لا تستند إلى أساس رصين في الواقع التاريخي، ولا تدعمها المصادر المعتمدة والأدلة المستندة إلى التمحيص الموضوعي والدقة العلمية. ولمـا كانت هذه المجموعات البشرية قد اندفعت من شبه الجزيـرة العربيـة سـواء مـن شمالها الغربي (منطقة الجزيرة الفراتية) أو من أجزائها الأخرى، يستحسن إطلاق لفظة الجزريين (سكان الجزيرة العربية) عليهم"[2].

---

(1) (باقر) د. طه، من تراثنا اللغوي القديم: ما يسمى بالعربية بالدخيل، منشورات المجمع العلمـي العراقي، بغداد، 1980، ص 107.

(2) من سومر إلى التوراة، مصدر سبق ذكره، ص 47.

الفصل الثالث عشر

السَّاميُّون وجزيرة العرب

لقد أكدنا في الفصول السابقة أن التسمية الشائعة، أي السامية، تسمية غير علمية ومبنية على أساس أسطوري، ليس لها من سند من التاريخ وعلم الآثار، وبالرغم من ذلك فما زال تيار أصحاب وحراس الفكر الآسن من الأكاديميين والباحثين العرب يستحسنون هذه التسمية لأنها تسمية "قصيرة وواضحة" كما يقول نولدكة[1]، ولكن إذا كانت هذه التسمية المختصرة غير علمية، فلا بد من الإعراض عنها. وهكذا فقد أصبح من الضروري إيجاد تسمية بديلة عن تسمية السامية والساميين. غير أن المصطلح البديل الذي قدمه بعض الباحثين، وهو تسميتهم الساميين بالعرب، لم يلق تقبلاً من المعنيين بالدراسات اللغوية والحضارية القديمة.

أما المصطلح الآخر، الذي استخدمه البعض حديثاً في العراق، أعني (الجزريين) كبديل عن الساميين. لم يكتب له الشيوع وبقي محدود الانتشار.

وتعليقاً على ذلك يقول "د. عامر سليمان" في كتابه (اللغة الأكدية): "وحيث إن أكثر النظريات التي قيلت بشأن الموطن الأول لهذه الأقوام قبولاً هي النظرية التي تقول بأن شبه الجزيرة العربية هي ذلك الموطن. وأن الظروف التي مرت عليها دفعت تلك الأقوام للهجرة إلى المناطق المجاورة، ولا سيما الهلال الخصيب، بهجرات

---

(1) (الملاح) د. هاشم يحي، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1994، ص 41.

متتابعة منذ أقدم العصور، ثم حملت تلك الأقوام أسماء مختلفة ترتبط غالباً بالمناطق التي حلت بها، لذا كان لابد أن تكون التسمية البديلة مرتبطة بشبه الجزيرة العربية وبالأقوام التي كانت ولا تزال تعيش فيها. ولذا فقد قدم الباحثون المحدثون عده تسميات بديلة، فمنهم من رأى في تسمية الأقوام جميعها التي ثبت بأنها تنتمي إلى الأصل المشترك نفسه بالعرب. ومنهم من اقترح تسميتهم بالأقوام العربية القديمة، تمييزاً لهم عن العرب، ذلك أن مصطلح العرب بالمفهوم الحديث يعنى فرعاً من الأقوام التي تنتمي إلى الأصل نفسه، لهذا أضيفت صفة القديمة ـ للتمييز، ومنهم من سماها بأقوام شبة الجزيرة العربية أو الأقوام الجزرية"[1].

وبالرغم من الحقيقة التي انعقد عليها إجماع الباحثين من "أن الجزيرة العربية هي موطن هذه الأقوام المسماة خطأً بالسامية"، فإن السادة حراس وأصحاب الفكر الآسن من الأكاديميين العرب الذين يبيعون التاريخ لمن يدفع أكثر، والذين افتقدوا مَلَكَةَ التأمل والتفكير، لم يثر اهتمامهم التساؤل الآتي: إذا كانت جزيرة العرب موطن هذه الأقوام المسماة خطأً بالسامية! فلماذا لم تُسَمَّ هذه الأقوام بالجزرية نسباً إلى جزيرة العرب!؟

إن إزالة هذا الركام من الكذب والتطويع التاريخي القسري، تتم عبر التحقيق اليقيني من الموقع الجغرافي لجزيرة العرب، إنني اعتقد أن الإمعان في تحديد رقعة جزيرة العرب. يحل إشكالية مهد الأقوام المسماة خطأً بالسامية، ويؤكد وجهة نظر بعض الباحثين العراقيين، الذين رفضوا تسمية الساميين، وحاولوا تعميم مصطلح "أقوام الجزيرة" أو "الجزريين".

ووفق قناعاتي إن من الأفضل استخدام مصطلح (جزريين) بديلاً عن مصطلح (ساميين). لأنه يبعدنا عن مفاهيم العنصر والنسب، ويبرز تأثير بيئة الجزيرة العربية التي طبعت الأقوام التي عاشت فيها لفترة طويلة من الزمن بطابعها الحضاري واللغوي، وهو الذي يميزها عن غيرها من الأقوام.

---

(1) **الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، مصدر سبق ذكره، ص 44.**

فها هو لسان اليمن "الهمداني" يقدم لنا وصفاً دقيقاً لجزيرة العرب في سفره الرائع (صفة جزيرة العرب) بقوله:"إنما سميت بلاد العرب الجزيرة لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها وأطرافها، وصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر، وذلك أن الفرات القافل الراجع من بلاد الروم يظهر بناحية قنَّسرين ثم انحطَّ على الجزيرة وسواد العراق حتى دفع في البحر من ناحية البصرة والأيلة وامتد [إلى عبَّادان وأخذ] البحر من ذلك الموضع مُغرباً مطيفاً ببلاد العرب منعطفاً عليها فأتى منها على سنوان وكاظمة ونفذ إلى القطيف وهجر وأسياف [البحرين و] قطر وعُمان والشِّحر ومال منه عنق إلى حضرموت وناحية أبين وعدن ودهلك، واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن بلاد فرسان وحكم والأشعريين وعكٍّ ومضى إلى جدة ساحل مكة والجار ساحل المدينة وساحل الطور وخليج أيلة وساحل رأية ـ كورة من كور مصر البحرية ـ حتى بلغ قلزم مصر وخالط بلادها وأقبل النيل من غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً للبحر معه حتى دفع في بحر مصر والشام، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمر بعسقلان وسواحلها ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنِّسرين، حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف قنِّسرين والجزيرة إلى سواد العراق. فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة التي نزلوا بها"[1].

ويتحدث "الهمداني" عن ديار ربيعة، وبكر، ومضر، التي تقع اليوم فيما يعرف حديثاً تركيا، قائلاً: "أولها وآخر ديار مضر رأس العين ثم كفرتوثا لجشم عن أياسرها مارة من موضع الحيَّات المضروب بها المثل وهي تطل على دارين، ثم نصيبين موضع العقارب وهي دار آل حمدان بن حَمُدون موالي تغلب، فمن نصيبين إلى أذْرمة والسميعية مسيرة يوم، وعن أيمن ذلك جبل سنجار جبل شراة بني تغلب والشراة فيها بنو زهير وبنو عمر وثم من أيمن

(1) (الهمداني) الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، ط1، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1990، ص (84-85).

ذلك دهنا إلى رحبة مالك من طوق وقرقيسياء، ثم ترجع إلى أذرمة برقعيد وهي ديار بني عبد من تغلب وفيهم يقول القائل:

لا تخدعنك برقعيد ومشيدها

واحتل لنفسك عيشة بنهار

ويستطرد بقوله: ثم منها إلى بلد وفيها شراة وغير ذلك، إلى حد الموصل. وإن أردت بعد أرض الموصل مذحج وهي ربيعة فإن تياسرت فيها وقعت إلى الجبل المسمي بالجودي يسكن ربيعة وخلفه الأكراد وخلف الأكراد الأرمن، وإن تيامنت من الموصل تريد بغداد لقيتك الحديثة وجبل بارما يسمي اليوم حمرين ويقال إنه جبل لا يخلو يوماً من قتيل، ثم السن والبوازج بلاد الشراة من ربيعة ثم يقع في جبل الطور البري، وهو أول حدود ديار بكر وهو لبني شيبان وذويها ولا يخالطهم إلى ناحية خراسان إلا الأكراد"[1].

لقد كان "الهمداني" أكثر تحديداً لمفهوم جزيرة العرب الكبري، وحدودها، بقوله: "وأما باقي أجزاء هذا الربع الذي وسط المسكونة وما يقع في جزيرة العرب منه أو ما يجاورها فأذربيجان وتخوم ديار ربيعة وديار مُضر إلى ما يلي الجنوب والدبور فإلى ما قارب شرق الثغور الشامية"[2].

لقد نقل "ياقوت الحموي" عن "أبي المنذر هشام بن السائب" عن "ابن عباس" أن العرب سميت بلادها جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها قصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر، وذلك أن الفرات أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين ثم انحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق ثم وقع في ناحية البصرة الأيلة وامتد إلى عبادان وأخذ البحر في ذاك الموضع مغرباً مطيفاً ببلاد العرب منعطفاً عليها"[3].

---

(1) صفة جزيرة العرب، مصدر سبق ذكره، ص (246-247).

(2) المصدر نفسه، ص 75.

(3) (الحموي) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، الجزء الرابع، دار صادر، بيروت، 1977، ص (188-189).

يذكر "المقدسي" في سفره القيم (أحسن التقاسيم في معرفة الأقـاليم): "وقد قسمنا هذا الإقليم على بطون العرب لتعرف ديارهم وتميزها وجعلنـاه ثلاث كور على عدة بطون، أولها من قبل العراق ديار ربيعة ثم ديار مضر ثـم ديار بكر وبه أربعة نواحٍ، وأمـا ديـار ربيعـة فقـصبتها الموصـل ومـن مـدنها الحديثة، ومعلثاي الحسينية، تلعفـر، سـنجار الجبـل، بلـد، أذرمـة، برقعيـد، نصيبين، دار كفرتوثا، رأس العين، ثمانين، وأما ناحيتهـا فجزيـرة ابـن عمـر ومدنها فيشاور، باعيناثا، المغيثة، الزوزان، وأما ديار مـضر فقـصبتها الرقـة، ومن مدنها المحترمة الرفاقة، خاتوقة، الحريش، تل محري، باجروان، حـصن مسلمة، ترعوز، حران، الرها، والناحيـة، سروج، كفـرزاب، كفـر سـيرين، وأما ديار بكر فقصبتها أمد، ومن مدنها ميافارقين، تل فافـان، حـصن كيفـا، الغاز، جازبة وغيرهن..."[1].

وبالرغم من تحديد مؤرخينا القدامى لرقعة الجزيرة العربية بمنتهى الدقة، إلا أن بعض الأكاديميين العرب يرفـضون هـذا التحديـد، بقـولهم: "تقـع شـبة الجزيرة العربية بين بادية الشام شمالاً، والخليج العربي وبحر عمان شرقاً، والمحيط الهندي جنوباً والبحر الأحمر غرباً"[2].

ومع ذلك لم يستطع باحثنا الجليل إنكار أن الجزيرة العربية ـ كما حـددها ـ ليست وحدها هي مسكن العرب، فقد نقل عـن "د. أحمـد أمـين" قولـه: "فقـد كانت لهم مساكن فيما حولها، إلا أنها مساكن أكثرهم، وأهم مساكنهم، ومـن ثـم فقد أضيفت إليهم"[3].

من كل ما تقدم نخلص إلى أن جزيرة العرب الحقيقية تمتد إلى رقعـة أبعـد من العراق، وسورية لتشمل على أجزاء من آسية الصغرى، وأذربيجان وتركيا.

---

(1) (المقدسي)محمد بن أحمد المعروف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بريـل، 1909، ص (137-138).

(2) (مهران) د. محمد بيومي، دراسات في تـاريخ العـرب، دار المعرفـة الجامعيـة، الاسـكندرية، بـلا تاريخ، ص (93-94).

(3) (أمين) د. أحمد، فجر الاسلام، مكتبة الأسرة، مصر،2001، ص 6.

بعد هذه الملاحظات الضرورية، نرى أن التسمية الصحيحة التي يتجنبها مؤرخو الغرب عامة، والسادة حراس وأصحاب الفكر الآسن العربي خاصة. للدلالة على الشعوب المسماة خطأً بالسامية، هي الشعوب الجزرية، وذلك لأنها أصدق في التعبير عن الطبيعة الحقيقية لهذه الشعوب.

وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن حقيقة ما يسمى بـ(الهجرات) أو (النزوحات) السامية إذن!؟

لقد درج الباحثون والدارسون الغربيون، وساندهم في ذلك السادة حراس وأصحاب الفكر الآسن من الأكاديميين العرب، على الحديث عن (هجرات سامية) متتالية من شبة الجزيرة العربية إلى مناطق ما دعي بالهلال الخصيب الممتد من الخليج العربي في أحد طرفيه إلى دلتا النيل في الطرف الأخر، وقد عمدوا إلى تحديد تلك الهجرات الكبيرة، وأزمان حدوثها معتمدين فيها جميعاً شكل الطفرة السكانية المتكررة خلال فترات زمنية معينة ومتقاربة، فيرى باحثونا الأفاضل تأثراً بأقوال مؤرخي الغرب، أن هذه الهجرات تحدث مرة كل ألف عام، إذ تقوم جماعة كبيرة من البدو الرحل، فتحزم أمتعتها وتسوق مواشيها، وتنطلق من شبة جزيرة العرب باتجاه الشمال، إلى منطقة الهلال الخصيب، فتنزل كيفما اتفق في هذه البقعة أو تلك، وسرعان ما تسيطر عليها وعلى الشعب الذي يشغلها، فتفرض لغتها، وتقيم دولتها، وتبدأ عطاءها الحضاري الفريد.

فقد أجمع الباحثون والدارسون تقريباً على أن أول هجرة للساميين قد حدثت في الألف الرابعة قبل الميلاد سالكة طريق الساحل الغربي لشبة الجزيرة العربية، منطلقة نحو الشمال إلى سيناء فوادي النيل حيث امتزج أفرادها بالعرق الحامي، فتكون بذلك الشعب المصري القديم كما يقول "بارتون"، بدليل أن الباحثين قد وجدوا في لغة الشعب المصري في أول تكوينها خليطاً من كلمات سامية وأخرى حامية إذا صحت التسميتان.

وفي الفترة نفسها أى حوالي منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد حصلت هجرة الأكاديين إلى بلاد الرافدين عن طريق بلاد الشام، وألفوا هناك الدولة

الأكادية التي وحدت العراق، وسيطرت على جميع أرجائه حتى أعالي نهر الدجلة. وقد حل الساميون الأكاديون فيها محل السومريين المتحضرين، بعد أن اقتبسوا منهم فن الكتابة وأساليب الزراعة. وتبع الأكاديين، بعد ذلك وفي الألف الرابعة نفسها، الكلدانيون ثم الأشوريون واستوطنوا بلاد الرافدين.

وفي حوالي عام 2900 ق.م، قامت موجة أخرى حملت الكنعانيين إلى الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وإلى ربوع الشام الداخلية، حيث تفرع منهم الفينيقيون الذين سكنوا سواحل بلاد الشام، كما حملت العموريين الذين استوطنوا المناطق الشمالية الداخلية، وقد اتجه قسم من هذه الموجة إلى بلاد الرافدين حيث ألفوا سلالة بابلية سنة 2100 ق.م.

وفي سنة 1500 ق.م، قدم الأنباط إلى شمالي جزيرة العرب حيث أقاموا حضارتهم في مدينة البتراء الواقعة إلى الشمال الشرقي من خليج العقبة. والتي أتخذوها عاصمة لهم. كما نزل التدمريون واحة تدمر إلى الشرق من مدينة حمص.

وأخيراً خرجت جموع العرب المسلمين في القرن السابع الميلادي، وانطلقوا نحو الشمال حيث نشروا لواء الاسلام والعروبة على كافة بلاد الشرق القديم وشمالي أفريقيا، وامتدت سيطرتهم على قسم هام من جنوبي أوربا[1].

لقد اخترنا هذا النص بالذات لما فيه من عناصر جامعة لمجمل التصورات السائدة لدى قسم كبير من المؤرخين والباحثين، وناقلي المعلومات عن هؤلاء وأولئك.

وقد تشعبت الآراء في تعليل دفع شبة الجزيرة العربية لبعض سكانها في هجرات كبيرة نسبياً إلى مناطق وأطراف الهلال الخصيب في العراق والشام ومصر، إلى ثلاثة آراء رئيسية:

رأي يصور أصحابه ومنهم "كيتاني" (Caetani) أن شبة الجزيرة كانت أشبة بمستودع بشري كبير للعناصر السامية القديمة. وأن نوبات الجفاف الشديدة

---

(1) (برو) د. توفيق، تاريخ العرب القديم، ط2، دار الفكر المعاصر، بيروت ـ دمشق، 1996، ص(46-47).

الطويلة التي تعاقبت على أرضها في دورات مناخية ثابتة ظلت عاملاً أساسياً في ضيقها بسكانها الزائدين عن طاقة مواردها الطبيعية، وظلت سبباً في دفعهم إلى الهجرة الكثيفة منها إلى الخارج على حقب متباعدة يفصل بين الواحدة منها والأخرى ألف عام.

رأي آخر عارض تعليل الرأي الأول، وهو أن أصحابه ومنهم "ألويس موزيل" (Alois Musil) قللوا من أهمية تأثير نوبات الجفاف في ذلك الدفع البشري الكثيف إلى الخارج. ورأوا أن تحديد ما بين الدورات المناخية وفترات الهجرة بألف عام ليس له أساس تاريخي يزكيه. وقدروا من ناحيتهم أن أسباب الهجرات السامية الكبيرة القديمة تمثلت أساساً في عاملين بشريين وهما: تعاقب الضعف السياسي على إمارات شبه الجزيرة العربية من حين إلى آخر، ثم تحول طرقها التجارية عن مساكنها الرئيسية لسبب أو لآخر. وأقام هذا الرأي حجته على أساس أن الإمارات المستقرة القوية تستطيع أن تذود عن ديارها وأن تحمي مواردها الطبيعية وتنمِّيها، وتسطيع أن تحسن استغلالها وتنظم الانتفاع بها، ويمكنها أن تدعي أسباب العراقة في أراضيها، وأن توفر السلام لأهلها كما تيسر أسباب الرزق لأعدادهم المتزايدة، طالما احتفظت ببأسها - فإذا اعتراها التمزق السياسي أدى إلى عجزها عن حماية أرضها وعن مواصلة مشاريع التنمية والعمران فيها، والعجز عن حفظ الأمن والسلام الداخلي، حتى ينتهي الأمر إلى شيوع الفتن والفرق في أقاليمها، وإلى بوار أرضهاوإهمال موارد الري فيها والعجز عن تنظيم إستغلالها، ثم العجز بالتالي عن توفيه مطالب إقامة سكانها. ولم يقل أثر تحول الطرق التجارية الرئيسية، في نظر أصحاب هذا الرأي، عن أثر ضعف الإمارات في دفع الهجرات الكثيفة، على أساس أنه كان من شأنه كلما حدث أن يفضي إلى كساد التعامل وبوار الأرزاق وانتشار الفقر والمجاعات على امتداد الطرق التجارية المهجورة وفي محاط القوافل التي يقل نشاطها الاقتصادي، ثم يؤدي في نهاية أمره إلى ضيق أهلها بأرضهم، وضيق مواردها بهم. وهكذا إذا اشتد تأثير أحد العاملين، تمزيق الإمارات، أو تحول طرق

التجارة ونضوب مواردها، أو ازدواج هذين العاملين، لم يكن هناك مناص من أن تترك جماعات كثيرة من السكان مواطنها وتهاجر منها إلى مواطن أخرى خارجية تطمع أن تضمن فيها معاشها وتطمع أن تأمن فيها على أهلها.ويبدو أن هذا الرأي كان أكثر التفاتاً إلى ظروف الجنوب العربي حيث قامت دول ودويلات كثيرة وانهارت، وحيث اشتدت المنافسات الداخلية والخارجية على تحويل طرق التجارة الكبيرة من مسار إلى مسار بين كل حين طويل وآخر.

وجمع رأي ثالث بين وجهتى النظر السابقتين، واعتقد أصحابه ومنهم "حـزين".أن العوامل السياسية التي تمثلت في تعاقب ضعف الإمارات، وعجز الحكام، واضطراب موارد التجارة، كما تمثلت في تكرار الفتن والمنازعات هي عوامل يشتد أثرها في دفع الهجرات فعلاً، ولكنها غالباً ما تكون عوامل مباشرة، وليست عوامل أساسية، أما العوامل الأصلية فتتمثل في الجفاف الطبيعي نفسه، وذلك بمعنى أن منازعات القبائل على الماء والمرعى والتجارة تشتد عادة بعد ظهور الجدب البيئي فعلاً، وأن ضعف الإمارات يشتد بدوره بعد بوار مواردها وبعد حدوث القحط فعلاً، لا سيما أن نزوح الهجرات كان يبدأ عادة من المناطق المعرضة للجفاف الشديد أكثر مما يبدأ من غيرها، ولكن دون التقيد بدورة الألف عام التي خمنها "كيتاني"[1].

ينتقد الباحث العربي الجاد "د. أحمد داود" هذه التصورات لما فيها من السذاجة ما يذهل، ويستغرب كيف أن أحداً من المؤرخين العرب لم يجشم نفسه عناء التوقف عنده، فهو:

1. لم يتطرق إلى الحديث عن زمن ما قبل (الهجرة) المزعومة من شبه جزيرة العرب، ولو أن المؤرخين جميعاً، وفي أماكن أخرى لا ينسون أن يدعموا ذلك القول بالسبب الذي كان يدفع السكان إلى لهجرة، وهو الجفاف، فكيف يمكن أن يحدث مثل

(1) (صالح) د. عبد العزيز، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر القديمة، ط4، مكتبة الأنجلو المصرية، 1990، ص (16-17).

ذلك التجمع القبلي البدوي الهائل مثل ذلك الدوي الحضاري فور وصوله إلى منطقة الهلال الخصيب، دون أن نسمع بذكره في مكان وجوده السابق، وعلى طريق هجرته؟ كيف تحدث مثل تلك المفاجأة ـ الزلزال التي لم تخضع لقانون غير (قانون) الجفاف!؟

2. ثم أي جفاف ذلك الذي كان يختفي طيلة ألف عام، ثم يظهر فجأة ويدفع بموجة أخرى من قلب الجزيرة العربية إلى منطقة الهلال الخصيب لإقامة صرحها الحضاري من جديد؟

3. لقد حافظ هذا التصور على خط الاتجاه الثابت الذي كانت تسلكه تلك (الهجرات) في طريق نزوحها من الجنوب إلى الشمال، وليس في تاريخ حركات بدو المنطقة أو حضرها مثل ذلك الخط الثابت في الاتجاه طيلة تاريخها.

4. إن أصحاب ذلك التصور ظلوا يتغافلون عمداً عن إثارة مسألة هوية السكان الذين كانوا يشغلون منطقة (الهلال الخصيب) قبل بدء (الهجرة) الأولى....

5. إن هذه الأحكام الساذجة أو المتسرعة والمغرضة أحياناً، (إذ تجعل دأبها ربط العرب بالبداوة وبشبه جزيرة العرب، و(ربط) منطقة الهلال الخصيب ومصر بسكان آخرين حضاريين لا تكل عن البحث عنهم دون جدوى) تسقط في تناقضات كثيرة، فهي تقدم لنا أولئك البدو الرعاة الرحل الهاربين من شح الطبيعة يبدؤون منذ سيطرتهم على البلاد دورة حضارية متكاملة، متناسين أن البدوي لا ينتج حضارة قبل الاستقرار، وأن الاستقرار عملية طويلة، ومعقدة بكل جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنفسية، ولا تتم بين ليلة وأخرى.منذ بيئتهم الأولى. فكيف تسنى لمثل هؤلاء البدو أن يجعلوا حضارتهم وعسكريتهم هي المنتصرة دائماً في كل مرة وهي الباقية، مع العلم أن القانون العلمي

يؤكد أن الأقوام الطارئة، مهما كانت درجة قوتها وتطورها وحجمها البشري، إنما هي التى تندحر دائماً، ويبقى الشعب الأصيل.

6. إن علم الجغرافيا والمناخ يؤكدان أن الجفاف -كظاهرة طبيعية- لا يمكن أن يحدث فجأة، وهو لما ضرب شبه الجزيرة العربية، كما يحلو للكثيرين أن يؤكدوا، لم يضربها بغتة، بل كان ذلك يجري في عملية بطيئة طويلة استغرقت آلاف السنين.

7. وإذا كانت عملية الجفاف قد استغرقت مثل هذا الزمن الطويل، فإنه لمن الطبيعي جداً أن يكون تكيف الأرض وتغيرها بكل ما فيها من تربة ومياه وحيوان ونبات.... كان هو الآخر يتم تدريجياً، ثم إن ذلك كله كان لابد أن ينعكس وبالتوازي من الزمن أيضاً، على الإنسان نفسه طيلة تلك الآلاف من السنين كذلك(1).

إن معالجتنا السالفة لما يسمى حقيقة حدود شبه جزيرة العرب الكبرى تجنبنا ما يسمى بـ(الهجرات)، فإذا كانت تلك هي أرض العرب فإن هذه الأقوام لم تهاجر بل سكنت أرضاً فسيحة الأرجاء خصها الله بها منذ فجر التاريخ، وساحت وتحركت فيها بعض الأحيان لسبب أقتصادي أو سياسي.

---

(1) (داود) د. أحمد، تاريخ سوريا القديم تصحيح وتحرير، ط2، دار الكاتب العربي، دمشق ، 1997، ص (72-74).

الفصل الرابع عشر

جزيرة العرب هي الأصل

إن جزيرة العرب بما بقي من آثارها، وبما يشهد به الكثير من مؤرخي العالم، كانت محوراً حضارياً حيوياً في العالم القديم. ففي الوقت الذي كانت فيه أوربا مغطاة بالثلوج [الدورة الجليدية الرابعة] كانت جزيرة العرب تتمتع بجو معتدل رطب تكثر فيه الأمطار في كل المواسم شتاءً وصيفاً مما ساعد على نمو الغابات الكثيفة في المنطقة، التي تحولت فيما بعد عصر الجفاف نتيجة للضغط إلى طبقات نفطية، كما ساعدت هذه الظروف الملائمة إلى تكوين حضارة نهرية لا تقل شأناً عن حضارة وادي النيل وحضارة وادي الرافدين على الرغم من إمكاناتها المحدودة آنذاك، إذ كانت الأودية الحالية أنهاراً جارية تبعث عناصر الحياة وتنشر الخير والبركة في البلاد، وكان هناك نهران كبيران يخترقان جزيرة العرب من أقصاها إلى أقصاها تقوم عليهما الزراعة التي تعتمد على الري الدائم. وفي هذه الفترة انتقل سكان جزيرة العرب من دور القنص والصيد إلى طور الفلاحة والزراعة التي تعتمد على الري للحصول على قوتهم[1].

وفي ذلك يقول "تشايلد": في الوقت الذي كان فيه شمال أوربا مغطى بطبقات الثلوج إلى مسافات بعيدة، وكانت جبال الألب والبيرنيه مغطاة بكتل الجليد، كان ضغط القطب الشمالي الشديد يسوق أعاصير الأمطار التي تهب على

(1) (سوسة) د. أحمد، حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1980، ص55.

أوربا الوسطى، ويجعلها تجتازها وتعبر إلى حوض البحـر المتوسـط، وتـستمر في سـيرها دون أن تـستترفها الجبـال الـسورية فتـصل إلى العـراق وجزيـرة العرب....فكانت الصحارى التي يلفحها العطش الآن تتمتع بأمطـار منتظمـة، ولم تكن الأمطار الذاهبة بعيداً إلى جهة الشرق أكثر مما هـي عليـه الآن فحـسب، بل أنها كانت موزعة على جميع فصول السنة بـدلاً مـن أن تكـون مقـصورة عـلى فصل الشتاء. وكـان يعـيش في شـمال أفريقيـا، وربـما في جزيـرة العـرب أيـضاً، حيوانات من نوع ما يوجد الآن في زمبابوي وروديسيا[1].

ويذكر الباحثون الجيولوجيون أن مستوى الخليج العربي قـد انخفـض في عصر فورم [آخر العصور الجيولوجية] منذ حوالي 14 ألـف سـنة قبـل المـيلاد. بالنسبة إلى مستواه الحالي بحوالي 110 متراً، وأن نتائج أبحاث الـسفينة الألمانيـة "ميتور" (Meteor) التي عملت في الخليج العربي أواسط الـستينيات أكـدت أن الخليج كان جافاً حوالي سنة 14000 قبل الميلاد. تشقه المجاري الأصلية لنهري دجلة والفرات على طول الطريق المحوري العميـق للخلـيج العـربي الحـالي ثـم يصبان في خليج عُمان. وبعد أن أخذ الجليد في الذوبان بعد حوالي سـنة 14000 قبل الميلاد. ارتفع مستوى ماء الخليج مرة ثانية. بحيث طغت مياهه على سواحل الخليج الحالية وفي سنة واحدة ارتفع مـستوى مـاء الخلـيج مئـة مـتر. ووجـدت السفينة العلمية الألمانية أن هناك ثـلاث فـترات توقـف في ارتفـاع مـستوى مـاء الخليج وهي 62، و50، و30 متراً تحت المستوى الحالي.

وقبل سنة 7700 قبل الميلاد كان مستوى مـاء الخلـيج أقـل مـن مـستواه الحالي بثلاثين متراً. وفي حوالي سنة 5200 قبل الميلاد. وصل مستوى الخليج إلى أربعة عشر متراً ثم ارتفع بعد ذلك بـصورة سريعـة بحيـث وصـل حـوالي سـنة 4900 قبل الميلاد إلى مستوى يقل أربعة أمتار عن مستواه الحالي ووصل الخلـيج إلى مستواه الحالي حوالي سنة 4000 قبل الميلاد.

---

(1) (داود) د. أحمد، العرب والـساميون والعبرانيـون وبنـو إسرائيـل واليهـود، ط1، دار المـستقبل، دمشق،1991، ص21.

وأن خور موسى وخور الزبير يمكن تفسيرهما بأنهما مستوى بحر هبط في الماضي من أن يكون نتيجة حركات تكتونية. وأن الأدلة على كون مستوى ماء الخليج كان أخفض من الوقت الحاضر يمكن مشاهدتها في ترسبات التلال الصلبة في الكثير من المناطق. ويمكن رؤية هذه في الجانب الشرقي لرأس أباروك وعلى الساحل الشرقي لقطر وجبل جصاصية وجبل وكرة والتلال عند الأصيل.

وبذلك فإن ما بين السنين 7000 ـ 4200 قبل الميلاد كان قاع الخليج العربي جافاً وكانت شبة الجزيرة العربية جزءاً من القارة الواسعة المترامية الأطراف المعروفة باسم غوندوانا التي يختلف الجيولوجيون في امتدادها. وكان البحر الأبيض المتوسط في القسم الأول من عصر الميوسين يشمل منطقة أكثر سعة منها منطقة كردستان والعراق وإيران وسورية ولبنان..... إلخ، المعروف باسم بحر تثيس، ثم انحسر البحر ولكنه عاد في أواسط الموسين بالتقدم ثانية وشغل أقساماً عدة من المنطقة التي كان يشغلها في السابق، وأن الحركات الأرضية التي كونت الجبال الالتوائية الحديثة في جنوب هضاب إيران [والتي سماها ديودورس الصقلي من القرن الأول قبل الميلاد السلم الفارسي] وأرمينية وآسيا الصغرى، قاومتها شبه جزيرة العرب، الأمر الذي أدى إلى امتداد الخليج العربي نحو الشمال الغربي. وفي عصر البلايوسين حدثت حركات متجهة من داخل الهضبة نحو جنوبها الغربي. وترتب على حدوث هذه الحركات في الأرض ومقاومتها هبوطُ سطح بلاد الرافدين وامتداد الخليج العربي نحو الشمال باتجاه جنوب العراق[1].

وينقل "د. أحمد داود" عن "هشام الصفدي" قوله... نتيجة لانخفاض مستوى البحر خلال عصر فورم الجليدي إلى حوالي 110 أمتار عما هو عليه اليوم، كان الخليج العربي أرضاً يابسة تتكون من منخفض يبلغ طوله نحو 1100 كيلومتر. وسطي عرضه 180 كيلومتراً، ولا يتجاوز عمق

---

(1) (الأحمد) د. سامي سعيد، تاريخ الخليج العربي من أقدم الأزمنة حتى التحرير العربي، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، مطبعة جامعة البصرة، 1985، ص (40-42).

غوره 30 – 800 متر. وتشق قاع الخليج قناة حفرتها مياه النهرين تبدأ قرب الفاو لتصب في خليج عُمان. ومن الجدير بالملاحظة أن تضاريس قاع منطقة الخليج تشبه إلى حد كبير طبيعة الأرض التي يجتازها نهر الفرات في سورية إلى درجة دفعت الباحثين إلى الاعتقاد بأن حوض الخليج يكاد يكون استمراراً للأرض السورية. فلا يفصل المنخفضين إلا السهول الرسوبية الرافدية المنبطحة المعالم، واعتباراً من أواخر العصر الجليدي الرابع (فورم) أي منذ حوالي 14000 قبل الميلاد تأخذ مياه البحر بالارتفاع بفعل مناخ دافئ يسود الكرة الأرضية خلال عصر الهولوسين (Holocene) الجاف. وباستثناء انقطاعين عارضين حدث الأول حوالي 1000 سنة قبل الميلاد والثاني حوالي 8000 سنة قبل الميلاد، بفعل التذبذبات المناخية تابع ماء البحر الارتفاع، واستمر يغمر منطقة الخليج، حتى استقر مستواه تقريباً اعتباراً من حوالي 4000 سنة قبل الميلاد على وضعه الراهن في القرن العشرين. وبذلك انعزلت المرتفعات التي ستعرف فيما بعد باسم البحرين وفيلكا وبوبيان..... وغيرها من الجزر عن الأرض العربية التي تحولت بدورها إلى شبة جزيرة كبيرة، وبلغ ارتفاع منسوب المياه 120 متراً[1].

لذلك فقد أجمع العلماء على أن شبة جزيرة العرب هي مهد الحضارات البشرية الأولى في تاريخ الإنسان القديم. التي نشأت على أساس أقدم اختراع إنساني قامت عليه كل الحضارات القديمة في العالم، ألا وهو اختراع الزراعة التي تعتمد على الري. لذا فسكان الجزيرة العربية هم الذين ابتدعوا هذا الاختراع أول مرة في التاريخ القديم، فهم مؤسسو الحضارة النهرية أو الإروائية وذلك قبل نصف مليون سنة في العصور الجليدية المتتابعة. ومن الثابت أيضاً أن سكان شبة جزيرة العرب هم الذين نقلوا هذه الحضارة إلى العالم بأسره إثر هجراتهم المتتابعة إلى الهلال الخصيب قبل آلاف السنين في

---

(1) (داود) د. أحمد، تاريخ سوريا القديم تصحيح وتحرير، ط2، دار الكاتب العربي، دمشق، 1997، ص (127-128).

أعقاب الدورة الجليدية الأخيرة والرابعة بعد الجفاف الـذي حـل بـالبلاد في الفترة الدفئية التي يجتازها العالم اليوم.

وإنه لمن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن منطقة الجزيرة العربية كانت قـد سبقت مناطق الشرق الأدنى في تطورها في عصور ما قبل التاريخ من مرحلة الصيد وجمع الغذاء إلى مرحلة تدجين الحيوان ثم الزراعـة فمرحلـة القـرى الزراعية ثم التجمعات الزراعية في عصر العبيد، إذ لم تنطبـق عليهـا الأزمنـة التي حددها العلماء في الشرق الأدنى، وهي الانتقال من مرحلة الصيد وجمع الغذاء إلى مرحلة تدجين الحيوان في حوالي 9000 قبل المـيلاد. ثـم الانتقـال إلى مرحلة الزراعة في حوالي 7000 قبل الميلاد، وذلك لما تمتعت بـه الجزيـرة العربية من طيب المنـاخ وتـوافر الميـاه وخـصوبة الأرض في خـلال الـدورة الجليدية الرابعة والأخيرة (دورة فورم) التي دامت أكثر من مئة ألف سنة بين سنة 120000 إلى 15000 قبل المـيلاد، وهـي أطـول دورة جليـد شـهدها العالم في عصور ما قبل التاريخ.

والأرجح أن انتقال سـكان شـبة جزيـرة العـرب مـن طـور القـنص والصيد إلى الفلاحة والزراعة على الري قد تم في القـسم الأخـير مـن هـذه الدورة قبل حلول الجفاف. وقد اكتسب السكان في هذه الدورة خـبرة فنيـة في أعمال الري وأتقنوها إتقاناً تاماً على الرغم من قلة معلوماتنا عنها بـسبب خلو هـذا الـدور مـن عـصر الكتابـة والتـدوين. وهـذا يتوافـق مـع زمـن العصر الحجري[1].

لقد كانت جزيرة العرب في عصور سحيقة القدم أرضاً خصبة، ومناخها مناخاً رطباً ومطيراً، وكانت وديانها الحالية أنهاراً غزيرة المياه. ويـرى المستـشرق الألماني "فرتز هومل"، أن الأنهار المذكورة في التوراة على أنها جنة عدن، هي أنهر تقع في بلاد العرب، وأن الأنهر المشار إليها، وهي وادي الدوسر، ووادي الرامة،

---

(1) حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين، مصدر سبق ذكره، ص (57-60).

ووادي السرحان، ووادي حوران. أما "كلاسر"، فذهب إلى أن نهري (جيجون) و(فيشون)، وهما من أنهر جنة عدن الأربعة في رواية التوراة، هما في جزيرة العرب[1].

فانطلاقاً من دراسات علمية "قام بها عدد من علماء الآثار والتاريخ (ثبت) أن الحضارة الإنسانية الأم نشأت في جزيرة العرب، وفي جنوبها على التخصيص، وأن معظم السكان الذين استقروا في وادي النيل وعلى ضفاف الرافدين وفي بلاد الشام أي شمال الجزيرة العربية حتى جبال أرارات من بلاد الأناضول إنما هم هجرات كبرى صادرة عن شبة جزيرة العرب، خرجوا منها في موجات متعددة فيما قبل التاريخ وبعده. وثبت أن هذه الهجرات حصلت منذ أربعة آلاف عام قبل الميلاد"[2].

لقد استقر الرأي العلمي اليوم عند مؤرخي الحضارات القديمة على أن الحضارة الإنسانية الأم التي نشأت فيما قبل التاريخ إنما هي حضارة مثلث الحضارة القديمة كما سماه "جورج شفاينفورت" (Georges Schweinfurth)، ويعنى به اليمن وحضرموت على رأس المثلث، ووادي النيل في مصر في أحد ساقيه، وأرض الرافدين في العراق في الساق الثاني، وما بين هذين الساقين بلاد الشام في قاعدة المثلث[3].

هذه الحضارة التي قال عنها "أرنولد توينبي" ما يلي: "ولكن أين اخترعت الزراعة وتربية الماشية والتعدين، في الأويكومين [الجزء الحيوي] للمرة الأولى؟ والكلمتان الأخيرتان من هذا السؤال هما جوهره، إذ ليس ما يؤكد لنا أن اختراعات الإنسان تمت في مكان واحد وزمن واحد فقط! فأي اختراع يتم في

---

(1) (على) د. جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، ط2، دار العلم للملايين ـ بيروت، مكتبة النهضة ـ بغداد، 1977، ص (244-245).

(2) (تيزيني) د. طيب، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي منذ بداياته حتى المرحلة المعاصرة، الجزء الثاني، الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى، ط1، دار دمشق، دمشق، 1982، ص (75-76).

(3)(الدواليبي) د. محمد معروف، دراسات تاريخية عن مهد العرب وحضارتهم الإنسانية، ط 2، دار الكتاب اللبناني، 1983، ص 29.

زمن أو في مكان معين، يمكن بالطبع أن يقتبس في مكان أخر في وقت لاحق... ويمكننا القول بشيء من الثقة أن الزراعة وتربية الماشية والتعدين، وأيضاً تقنية قلع قطع كبيرة وثقيلة من الحجر ونقلها - هذه كلها قد اخترعت للمرة الأولى في جنوب غرب آسيا، وهي رقعة الثقل الرئيسية في الجزء المعروف بالعالم القديم من الأويكومين. وباستطاعتنا حتى تحديد الرقعة في المنطقة بشكل أدق. إنها لا تشمل الجزيرة العربية، إلا في زاويتها الجنوبية. إذ إنه لما كانت الزراعة وتربية الماشية في طريق اختراعها، كان الجزء الأكبر من الجزيرة العربية، ويضمن ذلك طرفها في أقصى الشمال، وهو بادية الشام اليوم، قد أصبح جافاً بحيث لم يكن مسرحاً ملائماً لتدجين النبات والحيوان. والزاوية الجنوبية من الجزيرة العربية، هي الجزء الوحيد الذي ظل خصباً بسبب الأمطار الموسمية. وهذه الزاوية من اليمن، عزلها عن غيرها تشقق بقية الجزيرة العربية، قبل اختراع السفن البحرية وتدجين الجمل العربي[1].

علاوة على ذلك فإن اليمن هي مربض الإبل الأولى، فقد أثبتت الدراسات أن مواطنها الأولى كانت في اليمن، فقد طالعتنا مجلة الأركيولوجيا الأمريكية، المختصة في الدراسات الأثرية في عددها الصادر في مايو / يونيو 1983، مجلد 36/ 3، ص 23: "إن أهل الاختصاص يتفقون على أن جنوب الجزيرة [اليمن] هي الموطن الذي شهد تأهيل الجمل ذو السنام الواحد، حيث تمكن قدماء اليمنيين من ترويض الجمل وإلجامه وتثبت السرج عليه، واستخدامه في قطع الصحارى المجاورة، ومن جنوب جزيرة العرب تمت عمليه استجلابه إلى شمال الجزيرة وبلاد الرافدين. وإلى الجنوب الشرقي منها (عُمان)، وعبر باب المندب نقلته السفن إلى بلاد الصومال [القرن الإفريقي]، وإلى بلاد النوبة حتى مصر [أعالي النيل]. ومنها انتشر إلى شمال أفريقيا[2].

---

(1) (توينبي) أرنولد، تاريخ البشرية، الجزء الأول، ترجمة: نقولا زيادة، الأهلية للنشر، عمان، 1982، ص 55.

(2) (الجثام) فضل عبد الله، الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى سبر في التاريخ القديم، ط1، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 1999، ص 57.

إنني على قناعة تامة، أن اليمن هي المهد الأول أو الوطن الأول للشعوب المسماة خطأ بالسامية، ويؤيد ذلك بعض القصص الموجودة في اليمن إلى الآن، وهي متداولة بين أفراد الشعب اليمني، مثل قولهم إن مدينة صنعاء اختطها سام بن نوح، وإن اسم صنعاء عند كثير من القبائل هو مدينة سام، ومحلات أثرية كثيرة في صنعاء مسماه باسم سام[1].

وفي ذاكرة أهل اليمن، أن قبر سام بن نوح في نوادة[2]، ونوادة قرية من عزلة المنار ناحية بعدان.

ولكثرة الموجات البشرية التي خرجت من اليمن قال أحد علماء الألمان "سايس": إن "اليمن معمل البشرية السامية"[3] وقال أيضاً: "إن اليمن سابقة في تمدنها على مصر وبابل، وإنها هي البلاد التي هاجر منها إلى مصر أسلاف الفراعنة العظام وحملوا معهم إليها العلم والحكمة والزراعة والصناعة، ومنها كان في الراجح أسلاف البابليين والآشوريين الذين حملوا في مهاجرتهم إلى تلك البلاد ما حملوه إلى مصر من العلم والصناعة، كما أن منها أو مما جاورها في مهاجرتهم من بلدان الجزيرة كان معظم الجاليات التي استعمرت شواطئ البحر المتوسط في سورية وآسيا الصغرى وبلاد اليونان وايطاليا وفرنسا وشطوط أفريقية مما يقابل جبل طارق حتى نصل إلى مصر والسويس"[4].

---

(1) (عنان) زيد بن على، تاريخ حضارة اليمن القديم، ط1، دار الأفاق العربية، القاهرة، 2003، ص37.

(2) (الحجري اليماني) محمد بن أحمد، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، المجلد الثاني، الجزء الرابع، ط3، تحقيق: إسماعيل بن على الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 2004، ص 744.

(3) تاريخ حضارة اليمن القديم، مصدر سبق ذكره، ص 41.

(4) تاريخ حضارة اليمن القديم، مصدر سبق ذكره، مصدر سبق ذكره، ص 63.

الفصل الخامس عشر

سومر أم شمر؟

لأن " معظم التاريخ ظـن وبقيتـه مـن إمـلاء الهـوى" - عـلى حـد قـول "ول ديورانت"، فنحن نزعم أن أخطاء فاحشة قد ارتكبت بحق تاريخنا العربي.

فقد فرز الباحثون الغربيون، وأيدهم في ذلك مؤرخونـا الأفاضـل مـن حـراس وأصحاب الفكر الآسن من الأكاديميين العرب - الـسومريين عـن مجموعـة الـشعوب الجزرية مـن حيـث الأصـول الـسلالية، بنـاء عـلى قـراءاتهم لوثـائق الكتابـة المقدسـة: السومرية، وهي قراءات يعترف جلهم بأنها ليست على درجة عالية من الكفاية والدقة.

وبناء على تلك القراءات جرى تحديد تمـايز لغـوي واعتقـادي ـ وبالتـالي تحديد تمايز من منشأ سلالي عرقـي في العقليـة وطبيعـة البنـاء الـذهبي ـ مـا بـين الجزريين من جهة، والسومريين من جهة أخرى.

فقد حاول الباحثون اختراع أصل عرقي للسومريين قد جرى. وقد وقـع في ذلك خلط واضطراب لا يخلو من طرافة فكهة، حتى أصبح أصل السومريين مـسألة عويـصة حتـى إن المعنيـين بحـضارة العـراق القـديم صـاروا يـسمونها بـ"المشكلة السومرية"، ومنذ الثلاثينيات، من القرن الماضي، والنقاش محتدم بين المستشرقين، من مختصين بالكتابات المسمارية وأثاريين، حول هذه المـشكلة، مـن دون التوصل إلى نتيجة حاسمة تحظى بقبول الغالبية. وكل ما طُـرح، خـلال مـا يزيد على نصف قرن من هذا النقاش، جملة فرضيات متباينة إلى درجة أن بعضها يثير مزيداً من الدهشة والاستغراب.

ويبقى المؤرخون حيارى لا يهتدون إلى موطئ يقين، ولا ينتهون إلى شعاع حقيقة، وهم يسلكون في بحث هذه المسألة ودراستها سبيل اللغة فتستعصي الأمور. فالثابت أن اللغة السومرية لا تنتسب إلى إحدى الأسر اللغوية الثلاث المعروفة؛ وهي السامية والحامية والهندية الأوربية. كما استقر الرأي على أنها لم تتصل بإحدى اللغات الباقية كالصينية والثبتية والدرافيدية والمجرية والإفريقية والهندية الأمريكية ولغات جزر المحيط الهادي. وأساس ذلك أن السومرية، هي لغة ملصقة (Agglutinative) مقطعية رمزية.

وهي بالتالي غير اشتقاقية، كاللغات السامية. وتقوم الكلمات فيها بدمج مفردتين أو أكثر، لتنتجا كلمة واحدة. ومثال ذلك: لوكال ـ وتعني: الملك ـ فهي تتركب من "لو" بمعنى "رجل" و"كال" تدل على "العظيم".

فهذا كله جعل العلماء يؤمنون بعصر حضاري جديد متقدم على أيدي أناس ليسوا من سكان البلاد الأصليين لاختلافهم اللغوي. فمنهم من قال إنهم جاؤوا من منطقة القفقاس؛ وذلك لتشابه نهايات الكلمات السومرية مع المقاطع اللفظية لأواخر الكلمات للغة سكان جورجيا. ومنهم من قال إنهم من أواسط تركستان؛ وذلك لعدم تلفظهم الحروف الصحيحة في أواخر الكلمات، فيتفقون بذلك مع اللغة الطورانية القديمة. وقد تبنى هذا الشبه اللغوي في الناحية الأولى المرحوم العلامة "إيرش إيبلنك" ـ أستاذ الدراسات الآشورية في جامعة برلين. وليت الأمر توقف عند هذا الحد؛ ففي عام 1974 طلع علينا "د. بندنك" من جامعة بوينس إيرس، بكتاب عنوانه ـ الأعجوبة السومرية ـ (The Sumerian Wander)، قال فيه صراحة إن السومريين جاؤوا من هنغاريا. وأغرب ما في هذا الكتاب هو قائمة تحتوي عشرات من المفردات السومرية التي أوجد لها المؤلف، بطريقة أو بأخرى، ما يوازيها من الهنغارية معنى ولفظاً. وقد خلص المؤلف في نهاية الأمر إلى رسم خريطة توضيحية لهجرة السومريين من الأراضي الهنغارية ـ الرومانية إلى بلاد الأناضول، وصولاً إلى مناطق الفرات العليا، ومن ثم النزول باتجاه جنوب وادي الرافدين نحو ما يعرف ببلاد سومر.

إن هذه الفرضية مجرد خيال ووهم، سببها أن "د. بندنك" بدلاً من أن يأخذ بالحقيقة التاريخية المعروفة؛ وهي أن بعضاً من مظاهر الحضارة السومرية، وخاصة الكتابة، انتشر في عصر مبكر جداً إلى مناطق بعيدة، باتجاه الشرق إلى عيلام ومناطق أخرى في إيران، وباتجاه الغرب إلى بعض دول أوربا الوسطى، فإنه عزا وجود بعض رقم الطين التي تحمل كتابات صورية، والتي تم العثور عليها حديثاً في رومانيا، إلى أن السومريين كانوا يسكنون تلك المناطق قبل هجرتهم منها إلى بلاد الرافدين.

فهناك من الباحثين من لاحظ أن السومريين يستعملون لفظ "Kur" للتعبير عن معنى "جبل" و"بلاد". وأخذوا بنظر الاعتبار ظهور المصطبة "الزقورة فيما بعد"، التي صارت المعابد تبنى فوقها ابتداء من دور الوركاء. كما لاحظوا أيضاً اهتمام السومريين برسم الأشجار الجبلية العالية والحيوانات، كالوعل والماعز، على الأختام الأسطوانية. إن هذه الملحوظات مجتمعه كانت من الأسباب التي أدت ببعض الباحثين إلى القول بأن الموطن الأصلي للسومريين كان في منطقة جبلية قبل أن ينزحوا إلى السهل الرسوبي في جنوب العراق.

فاعتقد بعض المؤرخين أن السومريين هاجروا إلى العراق من المرتفعات الشمالية والشمالية الشرقية التي تحف به، من طريق أرمينيا وإيران، ولو أنه يمكن أن نستبعد أرمينيا أساساً من هذا الفرض، على اعتبار أنه كان من المستبعد أن يهبط المهاجرون منها، وهم أولو قوة، ويتجاوزوا المناطق الصالحة للاستيطان القريبة منها في شمال بلاد النهرين، ليذهبوا بعيداً عنها ثم يستقروا في الأجزاء الجنوبية، التي كانت أطرافها ما تزال حينذاك وحشية الطابع، تتطلب مجهودات كبيرة لتهذيبها وتيسير الانتفاع بها. ومن المعروف أن الأطراف القصوى لهذه الأجزاء، التي تسمى الآن باسم شط العرب، وإن توافرت لها أهمية خاصة بحكم إشرافها على الخليج العربي ومصاب النهرين، بحكم اعتبارها من مناطق الاتصال بين العراق وبين إيران، إلا أنه تعقبها شمالاً في أرض العراق منطقة منخفضة كثيرة المنافع قليلة الصلاحية للزراعة والعمران الدائم، كثيرة التعرض

لأخطار الفيضان. ويلي هذه المنطقة شمالاً منطقة النشاط الحضري القديم في بلاد النهرين.

وإلى جانب هذا الفرض، رأي ذهب فيه البروفسوران "لاندسبركر" و"كرامر" إلى أن أهل السومريين من منطقة تقع في جنوبي غربي قزوين، في مدينة "أرآتا" وما جاورها، وأنهم جاؤوا إلى جنوبي بلاد الرافدين من طريق الشمال واستقروا في الجنوب، في منطقة الجزر والأهوار التي عرفها الآشوريون ببلاد البحر، ومنها جزر خليج الرافدين، ووجدوا فيها شعباً متحضراً فامتزجوا به، وقد استدل هذان العالمان على أن هؤلاء السومريين أوجدوا في جنوبي العراق حضارة مزدهرة من أسماء أدوات الزراعة والقوارب وأسماء بعض الحاصلات وأسماء المدن، أور، أريدو، الوركاء، شورباك وغيرها من اسمي دجلة (إدكنا) والفرات (بورانم)، والتي هي ليست أسماء سومرية وإنما هي من لغة أهل البلاد الأصليين. ولذلك كان من ندعوهم بالسومريين وفق اللغة، التي كتبت بالخط المسماري، قد يكونون موجة غازية سيطرت على الناحية السياسية في البلاد. ولا يغرب عن البال أن النسبة تعود إلى تسمية جغرافية هي "شوميرم" التي ذكرها الأكديون 2500 ق.م. ومن بعدهم البابليون والآشوريون. وقد وضح سكان هذه البقعة التي عرفت في التوراة بأنها جنة عدن، ويبدو من ترتيلاتهم الدينية أن جزيرة (دلمون) أو (تلمون)، التي كانوا يترنمون بها ويودون أن يذهبوا إليها بعد مماتهم، كانت في مناطق الخليج، تابعة لجنوبي وادي الرافدين الذي قطنه السومريين في أدوار ما قبل التاريخ، وأن دائرة حضارتهم واستيطانهم تشمل، إضافة إلى منطقة الخليج، منطقة نهر كارون ومنطقة الأهوار. وذهب رأي أخر إلى أنهم هاجروا من منطقة ما تقع بين شمال الهند وبين أفغانستان وبلوخستان، واستقروا بعض الزمن في غربي إيران، ثم نزحوا منها إلى بلاد النهرين عن طريق الخليج العربي وجزيرة البحرين. وذكر أصحاب هذا الرأي ـ فيما لوحظ من تشابه ـ أوائل طرز الفخار السومري القديم وزخارفه في بلاد النهرين، مع نماذج الفخار القديمة التي انتشرت جنوباً بشرق حتى منطقة

(خاربا) و(موهنجودارا) بسهول السند، وذلك مما قد يوحي بوجود روابط جنسية وحضارية بدائية قديمة، بين أهل هذه النواحي الذين سبقوا الأجناس الهندوآرية في سكناها، وبين الذين يكفي أن يقال عنهم إنهم من الفروع المبكرة للسلالات الآسيوية أو الأسبانية (Asianic). وذلك مع تقدير ما ألمحت إليه الأساطير السومرية من أن أصحابها الأوائل هاجروا من الجنوب من طريق البحر في عصور كان الناس لا يزالون يسعون فيها على أربع، على حد روايتها، واستقروا حيناً في جنة تلمون أو (دلمون)، وهي، فيما يرجح، جزيرة البحرين الحالية، تلك التي روت الأساطير السومرية أنه لم يكن ينعق فيها غراب أسود، ولا يفترس أسد، ولا يعتدي ذئب على حمل، ولا تحني الحمامة رأسها، ولا توجد أرملة، ولا مرض فيها ولا شيخوخة، ولا نواح ولا رثاء.... ولكن كان ينقصها الماء إلى أن أوحى إنكي (رب الحكمة) إلى أوتو (رب الشمس) بأن يزودها بينابيع المياه العذبة، ففعل، وتحولت إلى بستان أنبتت فيه ننخرساج (الآلهة الأم) ثمانية أنواع من النباتات على غفلة من إنكي نفسه. ثم نزحوا منها بعد ذلك إلى "كالاما" بالعراق لأمر ما، لم تسجله الأسطورة.

أما "بري" فيحاول أن يربط بين نشأة الحضارة السومرية وبين مصر ـ وادي النيل. فيذكر أن بعض نصوص السومريين القديمة أشار إلى بلاد "دلمان، وماجان، وملوحة" (Meluhha, Dulmun, Maganand) فأين تقع هذه الأماكن الثلاثة!؟ أما "دلمان" فهي المحلة الأولى التي أقامها الإله "إنكي" (Enki) مؤسس الحضارة السومرية، وهو إله مدينة "إريدو" (Eridu) أول مدينة سومرية. وكانت قائمة إذ ذاك على رأس الخليج العربي، وتحكي القصة أن "إنكي" هذا جاء من الخليج العربي على ظهر سفينة وعلم السومريين الحضارة. وعلى هذا فإن السومريين أنفسهم يقرنون أصل حضارتهم قرناً وثيقاً بالخليج العربي، وبقوم وفدوا على ظهر سفن.

ولقد احتدم النقاش في السنوات الأخيرة حول موقع هذه المدائن الثلاث، التي لا تذكر إلا مجتمعة كأماكن تشتهر بالسفن والبلح. وقد اشتهرت (ماجان)

بين أهل سومر على أنها بقعة يحصلون منها على النحاس والديورت، كما عرفت (ملوحا) بأنها موطن الذهب.

أما موقع "دلمان" فقد أمكن تحديده على وجه التقريب، بأنه مكان ما في الخليج العربي، قد يكون جزائر البحرين أو بلداً آخر على شاطئه الشرقي، وسواء أكان هذا أم ذاك، فهي في الحالين واقعة على الخليج نفسه، أما (ملوحا) و(ماجان) فهناك اختلاف في الرأي حول موقعهما؛ ففي نص من النصوص الآشورية المتأخرة، ذكر أن (ماجان) و(ملوحا) هما الاسمان القديمان لمصر وإثيوبيا، وأن الأخيرة هي الجزء الجنوبي الغربي لبلاد العرب والجزء المقابل له من الصومال.

ولهذا السبب انتهى العلماء إلى أن (ماجان) و(ملوحا) هما، في واقع الأمر، مصر، والإقليم الذي كان يسميه المصريون أرض "بنت" (Punt). ومن المؤكد أن مصر كانت تمتلك كميات من النحاس في سينا وبلاد النوبة حيث يتوافر الديوريت أيضاً.

وكذلك اشتهرت بلاد العرب خلال العصور بأنها بلاد الذهب. فمن الجائز إذاً أن هذين القطرين هما (ماجان) و(ملوحا) الواردتان على لسان أهل سومر. وجدير بالذكر أن نصاً قديماً من نصوص سومر، قد وردت به إشارة إلى "خنزير من ماجان"، وهو في واقع الأمر خنزير مصري ـ وهذا سبب آخر يبرر القول بأن (ماجان) هي مصر.

إن هذه الفرضية مجرد خيال ووهم سببها أن "بري" كان مبهوراً بالحضارة المصرية؛ فحاول إرجاع الحضارات القديمة جميعها إلى أصل مصري!! وقد عزا وجود كميات من النحاس في سينا وبلاد النوبة، حيث يتوافر الديوريت أيضاً، والإشارة إلى "خنزير من ماجان"، مبرراً للقول بأن السومريين أصلهم مصري. وكأن النحاس لم يعرف إلا في تلك المنطقة، والخنزير لم يعرفه شعب إلا المصريون. بل لو صح ذلك، فلا يشرح هذا الرأي سبب انتقال هذا الشعب من بلاد متحضرة تنعم بالحجارة والنحاس إلى منطقة أخرى تخلو منهما جميعاً، حيث

تقسو الحياة فيها على الوافدين، وقد عارض الأستاذ الدكتور "لانجدن" (Dr. Langdon) رأي "بري" وتفسيره، مع أنه يسلم في الوقت عينه بأن سومر كانت في أقدم الأزمنة على اتصال وثيق بمصر و"بنت" من طريق (ماجان) و(ملوحا) اللتين حدد موقعهما في الخليج الفارسي.

أما الباحث الدكتور "عزمي سُكر" فيرى أن جوار البحر، وما أتاحه ذلك من تفاعل متنوع عميق، ومن رفد تجاري نضير ومتفنن، وما كشف عنه من إخصاب ثقافي رحيب، كان السبب البارز والعامل الباعث على هذا التفاعل الحضاري العجيب. ولقد أثبت علم الآثار أن المدن السومرية إنما ظهرت وبدت في الوقت الذي شقّت فيه أنوار الحضارة على بلاد الهند في سهل السند الغني بنهر السند وروافده والسارافش، وفي مدن مزدهرة أمثال "خاربا" و"موهنجودارا" وقد عاصرتها حضارتها؛ فأي حاجز أو مانع دون هذا التبادل الثقافي بين المركزين، بل بين الثلاثة، إذ يجمعها إلى خيرات الدلتا المصرية. وهكذا يجتمع على أرض النهر صفوة المشرقين، وتبقي على سبيل التجارة زبدة العلم المعروف يومذاك، فيخرج من هذا الالتئام مظاهر الحضارة الأولى. أما موطنهم الأصلي فنكاد نقطع بأنه في الشرق، وقد يكون الشرق الأقصى؛ يحملنا على ذلك أن الشعوب التي كانت تقيم في شمال العراق، مع سائر أجزاء الهلال الخصيب، كانت شعوباً سامية تتكلم بلغة باينت في كثير لغة السومريين، مثلما باينوهم في الشكل والمحيا، كما انطلقت الحضارة على أيدي السومريين، وإنْ قيل، من غير سند آثاري ناطق، بأن للساميين الشأن الفاعل في ذلك. ولعل في الحافز الدافع بهؤلاء السومريين إلى ارتياد هذه البقعة التي كانت ما تزال وحشية فطرية، ما يكشف عن طبيعة هؤلاء المهاجرين.

ولا نستبعد أن يكون السر في هذا الرحيل يعود، والعصر يبيح ذلك ويستوعبه، إلى القتال وما يفضي إليه من هرب وفرار. فيضطر المغلوب الناكص إلى ارتياد أشق البلدان، لوذاً بنفسه وحريته، ثم لا يلبث أن يعتاد الحياة في تلك البقعة، فيخلق من جديد، ويكون باعتماده على نفسه وسط الحاجة والعدوان، في طليعة المتحضرين.

ونفى رأي آخر اعتبار السومريين أغراباً، وتشكك أصحابه في دراسة جماجمهم، وافترضوا أن الرؤوس العريضة بينهم ترتبت على اتصالات متقطعة بين سكان العراق ذوي الأصل السامي [الجزري بمفهومنا] في فجر التاريخ، وبين جيرانهم ذوي الأصل ما قبل الآري ذوي الرؤوس العريضة، من دون أن يتأتى عن وحدة جنسية لازمة بين الفريقين. ولكن صعب على أصحاب هذا الرأي تعليل اختلاف لغة السومريين عن اللغات السامية [الجزرية]، وعندما أراد بعضهم أن يوازن بين هيئات أرباب العصر السومري ذوي اللحى الكثة والشعور الكثيفة والملابس الصوفية التي تقربهم إلى هيئات الرعاة الساميين. وبين جماهير السومريين حليقي اللحى والرؤوس، لم يزيدوا الأمر غير تعقيد. وإذا كان هناك ما يمكن تعديل رأيهم به؛ فهو احتمال اعتبار السومريين فرعاً من الجنس القوقازي يختلف عن الفرع السامي، من دون أن ينفي هذا وجود الساميين معهم على أرض العراق، وإن ظل نفوذهم أقل من نفوذ السومريين لعهود طويلة"[1].

ومن الأمور التي تدعو إلى الذهول ما كتبه أحد الكتاب النمساويين المدعو "إيريش فون دينيكين" في كتابه الموسوم ـ تذكرات بخصوص المستقبل Erinne Rungen An Die Zukunft ـ والذي ترجم إلى اللغة الإنجليزية بعنوان (عربات الآلهة The Chariots Of The Goods)، والفكرة المطروحة في هذا الكتاب قد اقتبسها الكاتب المصري "أنيس منصور"، وقدمها في كتابه المعنون (الذين هبطوا من السماء). فقد تطرق "إيريش فون دينيكين" في كتابه هذا إلى أصل السومريين ومصدر حضارتهم المتميزة، وجاء طرحه بصيغة جديدة، استكثر فيها عليهم أن يكون بمقدورهم تقديم حضارتهم المعروفة بإمكاناتهم الذاتية، ولذلك أكد أن منطقة سومر لابد أنها استقبلت بعض رواد الفضاء من العالم الخارجي، وهؤلاء الرواد هم الذين وضعوا أسس الحضارة السومرية

(1) (الدبش) أحمد، سومر بين الجغرافيا والتاريخ، العصور الجديدة، العدد الثامن والتاسع عشر، السنة الثانية، فبراير / مارس 2001، ص (60-69).

وبعدها عادوا إلى كواكبهم. ومن ثم أخذوا يـزورون منطقـة سـومر بـين الحـين والآخر من أجل مراقبة مراحل التطور التي مرت بهـا هـذه المنطقـة. ويستـشهد على ذلك بما جاء في أثبات الملوك، التي هي عبارة عـن نـصوص مـسمارية تـذكر بالتسلسل أسماء السلالات التي حكمت في العراق القديم مع أسماء ملـوك كـل سلالة وفترة حكم كل واحد منهم، وفيما يلي ما جاء فيها بخصوص الملوك الذين حكموا قبل حدوث الطوفان على الأرض: "لقد هبطت لأول مرة الملوكيـة مـن السماء وحلت في مدينة أريدو وأصبح "آ ـ لو ـ ليم" ملكاً وحكم 28800 سنة، وجاء من بعده "آ ـ لال ـ كار" وحكم 36000 سنة، ثم جاء مـن بعـده ملكـان وحكما لمدة 64800 سنة. ثم انتقلت الملوكية إلى مدينة بادتيبرا فحكم فيها "أيـن ـ مين ـ كال ـ أنا" مدة 28800 سنة، وتـلاه الراعـي دمـوزي وحكـم 36000 سنة، وبعد دموزي حكم ثلاثة ملوك لمدة 108000 سنة، وبعـد ذلـك انتقلـت الملوكية إلى مدينة لاراك فحكم فيها "أين ـ مين ـ دور ـ أنا" لمـدة 21000 سـنة، وجاء من بعده ملك آخر وحكم لمدة 21000 سنة، وبعد ذلك انتقلت الملوكيـة إلى مدينة نفر وحكم فيها "أوبار ـ توتو" لمدة 18600 سـنة، وحكـم مـن بعـده ملك أخر لمدة 18600 سنة، وبعد ذلك حل الطوفان ومن بعد الطوفـان نزلـت الملوكية مجدداً من السماء وحلت في مدينة كيش.

وبسبب طول المدة التي حكم فيهـا كـل ملـك مـن الملـوك الـذين وردت أسماؤهم في هذه الجداول يعتقد "إيريش فون دينيكين" بأن هؤلاء الملـوك لابـد أنهم سافروا بمراكب فضائية سرعتها مقاربة إلى سرعة الضوء، فإن اليوم الواحد الذي يقضيه في المركبة يساوي ما يقارب السنتين على الأرض، ولـذلك صـارت مدد حكمهم طويلة لأعمار البشر على الأرض[1].

والسؤال المثار ههنا: لماذا ابتدع الباحثون هذه النظريات!؟ وهل كان وراء ذلك أمر يقصدونه!؟ فالجواب نعم، أن القصد الأساسي هو محاولة فرز السومريين عن

(1) (رشـيد) د. فـوزي، الفكـر عـبر التـاريخ، ط1، الأهـالي سـينا النـشر، القـاهرة، 1995، ص (146-147).

مجموعة الشعوب الجزرية من حيث الأصول السلالية، ومحاولة التشكيك في أن يكون بمقدورهم تقديم حضارة بإمكاناتهم الذاتية.

فما هي حقيقة الأمر في ذلك كله!؟ لقد آن الأوان، كما يعتبر عالم الآثار الإنكليزي المعروف "سنيون لويد"، للعودة إلى مشكلة أصل السومريين التي كانت موضوع بحث مترو بين العلماء والمختصين. وقد كان هذا الأمر موضع صراع واضح بين حجج الفقهاء اللغويين من جهة واستنتاجات علماء الآثار من جهة أخرى. وبشكلها العريض تنشأ المشكلة من الشك المتعلق بالنقطة الزمنية في سلسلة عصور ما قبل السلالات التي أصبح عندها ممكناً أن نطلق اسم (السومريين) على سكان بلاد الرافدين السفلي. لقد قيل إن ابتكارات عصر بداية الكتابة تحدد الهوية التي يمكن من خلالها التعرف على حضارة بلاد الرافدين خلال تاريخها الطويل وإن هذه الابتكارات قد قبلت في وقت من الأوقات كدليل قوي على وصول السومريين إلى المنطقة في ذلك العصر. إن الجدل حول هذا الموضوع يقود إلى مقدمة وحيدة هي أن بعض المدن القديمة جداً في بلاد الرافدين والمذكورة في النصوص التاريخية، والتي كانت قائمة قبل عصر بداية الكتابة، يمكن الاعتقاد بأنها تحمل أسماءً غير سومرية. ولقد استعمل هذا الأمر لتبرير سلسلة التفكير بحدوث هجرة مفترضة لسكان ساميين [جزريين بمفهومنا] خلال منطقة الشرق الأدنى بكاملها. ويشير علماء الآثار إلى شكهم بهذا الأمر عن أصل السومريين وإلى غياب الأدلة التي تؤكد استخدام مثل هذه الأسماء قبل ابتكار الكتابة. وفي النهاية فإنهم يقعون تحت تأثير وجود دليل على الاستمرار الحضاري ما بين عصر عبيد وأوروك.

إن الدليل على وجود استمرار في العقائد والشعائر الدينية يبدو مقنعاً بالنسبة إلى علماء الآثار حيث قدمت ثلاثة مواقع أثرية مساهمات كثيرة لهذا الجدال. أن سلاسل العبيد نفسها المتمثلة بتل العقير وأريدوا تبدأ زمنياً مع استيطان العبيد التقليدي، وبالتناظر مع أريدو يمكن الافتراض باحتوائها على هيكل عبيدي أعيد بناؤه مرات عديدة. وفي هذين الموقعين تم إخلاء

المستوطنات في زمن يتوافق مع نهاية العصر المسمى بعصر عبيد. وعلى الرغم من ذلك فإن المعبد، الذي يشبه معبد أريدو، قد أعيد بناؤه في عصر السلالات الباكرة. وفي أريدو اختيرت آثاره كموقع للزيقورات في زمن ملوك السلالة الثالثة في أور. وقد استعمل السومريون في عصر السلالات الهضبة العبيدية القديمة للمستوطنة كمقبرة لهم. وإذا وضعنا هذه الأمور في الذاكرة فأن البديل في أي عصر لمهاجرين مختلفين عن السكان المحليين يصبح فرضية غير مقبولة[1].

فمن المناسب هنا التطرق إلى مسألة العلاقة بين الثقافة العبيدية والحضارة السومرية، فهل يمكن النظر إلى الأولى كسلف مباشر للثانية!؟

وفي هذا الاتجاه نفسه لاحظ باحثون آخرون أن هناك استمراراً في التقاليد الدينية عبر دور العبيد والعصر اللاحق له، وهو أمر له دلالاته المهمة بشكل خاص، فإذا اخترنا مثالاً واحداً فقط من عده أمثلة أخرى، فإننا نجد أن الطبقة السميكة من عظام الأسماك، التي وجدت تغطي معابد دور العبيد، تقطع بصورة لا تقبل أدنى شك، بأن الإله المعبود هناك لم يكن سوى إله الماء السومري أنكي.

وبالمثل، فإننا نرى في الانتقال من الأختام المنبسطة المعروفة من دور العبيد والأدوار السابقة له، إلى الأختام الأسطوانية في عصر الوركاء، دليلاً على تطور ونضج عملي في صناعة الأختام، وليس دليلاً على "انقطاع حضاري" بين دور العبيد وبين العصر الذي لحقه.

وعلى أية حال، فإن ظهور الكتابة السومرية في دور الوركاء [وعلى وجه التحديد في الطور الثالث منه] لا يعني أن اللغة السومرية لم تكن متداولة قبل هذا الدور، أي في دور العبيد السابق[2].

---

(1) (لويد) سيتون، آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتى الغزو الفارسي، ترجمة: محمد طلب، ط1، دار دمشق، دمشق، 1993، ص (86-87).

(2) (علي) د. فاضل عبد الواحد، من سومر إلى التوراة، ط2، دار سينا للنشر، القاهرة، 1996، ص (28-29).

لذلك كله، فإننا نرى في الخصائص المميزة للحضارة السومرية، التي بدأت في النضج منذ العصر الشبيه بالكتابي، نتيجة وامتداداً طبيعيين لمدنيات أدوار عصور ما قبل التاريخ السابق، مثل دور العبيد في الجنوب، وأدوار حلف وحسونة في الشمال.

وفي ذلك يقول الأستاذ الدكتور "فرانكفورت" في معرض حديثة عما يعرف بـ(المشكلة السومرية)، أنه "لا وجود لشكل إنساني يمكن تسميته بهذا الاسم [السومريين]. ومن زمن العُبيْد وحتى الوقت الحاضر ظل سكان بلاد ما بين النهرين ينتمون إلى جنس البحر المتوسط.... إن القضية التي كثر النقاش حولها، قضية نشأة السومريين، قد تكون أقرب إلى الجري وراء الخيال العلمي أكثر مما هي قضية تاريخية"[1].

وتبقى مسألة أخرى، تتعلق بالمصدر الأصلي للمستقرين الأوائل في بلاد الرافدين الجنوبية. لقد كان اكتشاف بيئة مزدهرة للمستوطنات العبيدية في الشاطئ الجنوبي للخليج العربي وأرض البحرين موضع اهتمام كبير، لأن هذا يحل إشكالية أصل السومريون، إذ إن منطقة ما قبل الخليج كانت جزءاً من ثقافة كبيرة معاصرة -كما أكدت النتائج التي قدمتها بحوث سفينة ميتيور (كما رأينا)- وانتشرت مراكزها في الجنوب الرافدي وجواره قبل أن تجبر مياه البحر الصاعدة أهلها على الرحيل تدريجياً إلى مواطن جديدة.

وفي ذلك يقول "د. علي هاشمي": وبسبب جريان النهرين في منخفض الخليج العربي، فقد استقطب ذلك تمركز الإنسان ونشاطاته المختلفة، ولهذا يندر اكتشاف آثار فوق الأرض المجاورة لحوض الخليج العربي، وإن الآثار المكتشفة في أطراف الحوض ترجع لفترات زمنية متأخرة لا يزيد قدمها عن الألف الرابع والخامس قبل الميلاد. وهي الفترة التي استكملت فيها عملية الغمر فعلها، ودفعت بالساكنين على الأطراف

---

(1) (فرانكفورت) هنري، فجر الحضارة في الشرق الأدنى القديم، ترجمة: ميخائيل خوري، مكتبة الحياة، بيروت، 1965، ص56.

للتفتيش عن مواضع أقدام جديدة وهم يواصلون جوانب من نشاطاتهم، ويهيئون أنفسهم للتفاعل مع متطلبات البيئة الجديدة، وربما وجد بعضهم من امتداد النهرين صوب الشمال ملاذاً أو موطناً، ونعني بذلك احتمال هجرة خليجية إلى الأقسام الجنوبية من العراق التي بقيت بعيدة عن فعل عملية الغمر في الخليج العربي. وربما يكون ذلك أحد الأسباب التي دفعت السومريين لتصور الجنة في مناطق الخليج العربي. والتي بقي صداها في الحديث عن جنة عدن[1].

لقد أكد ذلك عالم الآثار الأمريكي "جوريس زرانيس" في لقاء مع إحدى المجلات الأمريكية في عددها الصادر في أيار 1987 تحت عنوان:"هل تم العثور أخيراً على موقع جنة عدن؟" قائلاً: "إن الموطن الأصلي للعبيدين هو الطرف الشرقي لشبة جزيرة العرب، وأنهم أسلاف السومريين الذين خرجوا من أرض الخليج حيث (جنة عدن) العربية، وكانوا هم، لا السومريون، بناة المدن والحضارة في جنوب العراق"[2].

ومهما يكن من أمر -كما يذكر العلاّمة الدكتور "محمود حسين الغول"- هؤلاء الذين نسميهم بالسومريين، فإنهم من جنس البحر المتوسط، الذين يمتازون بالجمجمة المستطيلة (Dolicho - Ciphalic)، كسكان الجزيرة العربية بأسرها، والذين تطلق عليهم التسمية الحديثة: العرب[3].

إن الأصل المحير للسومريين قد يدفعنا إلى إمعان النظر جيداً بتلك الملاحظة السديدة والمدهشة التي أبداها المنقبون وعلماء الآثار، وثارت حولها سجالات طويلة، والقائلة إن السومريين يمتّون بصلة ما لمملكة سبأ. فالتماثيل المعينية التي تمّ

---

(1) (هاشمي) د. علي، آثار الخليج العربي والجزيرة العربية، بلا دار نشر، ولا مكان نشر، 2000، ص106.

(2)(داود) د.أحمد داود، العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود، ط1، دار المستقبل، دمشق، 1991، ص (26-27).

(3) (كيرا) ادوارد، كتبوا على الطين، ترجمة: د. محمود حسين الأمين، مكتبة دار المتنبي، بغداد، 1964، هامش ص 46.

الكشف عنها مطابقة لتماثيل السومريين من حيث الملامح والقسمات واللحى، ومن بين هؤلاء العلماء "وينكر"، و"دوفرني"، و"هومل" الذين يذهبون إلى حد القول، إن الآلهة شماش وعشترون البابليتين تشبهان شمس وعشتر (عثتر) اليمنيتان، هذا فضلاً عن تشابه الأختام، بل أن المكربيين اليمنيين يشبهون في سحناتهم ملوك وكهنة سومر!؟

سوف نطرح هنا فرضية، تقول بوجود تشابه بين كلمتي سومر وشمر، وأن ربط هذا التشابه مع السياق الميثولوجي الآنف، قد ساهم في حل اللغز المحير[1].

فـ (شَمْر) بفتح فسكون. جبل في غربي المَحَابِشة من بلاد حَجَّة. يُنْسَب الحصن المُسَمَّى "قُفْل شَمْر". ويشكل إحدى مديريات محافظة حَجَّة، وهو غني بالآثار الحميرية. و(شَمْر) ـ أيضاً ـ حصن يقع في وسط مدينة البيضاء. و(شَمْر) حصن في عرض جبل سبأ من بلاد البَرويَّة في بني مَطَر. وجميع ما يحمل هذا الاسم يُنْسَب إلى شمر يُرعش بن أفريقس بن أبرهة ذي المنار، وهو من عظماء الملوك التبابعة، وجاء اسمه في النقوش "شمر يهرعش ملك سبأ وذو رَيْدَان"[2]. وبنو شَمَّرَ بطن من طيء[3].

---

(1) (الربيعي) فاضل، الشيطان والعرش رحلة النبي سليمان إلى اليمن، ط 1، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1996، ص (168-169).

(2) (المقحفي) إبراهيم أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، الجزء الأول، دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع ـ صنعاء والمؤسسة الجامعية للدراسات للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت، 2002، ص 876.

(3) (الحميري) نشوان بن سعيد، منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلام، ط2، مصورة، دار الفكر، دمشق، 1981، ص 57.

الفصل السادس عشر

أصل المصريين القدماء

دارت ولا تزال تدور حول أصل المصريين القدماء آراء مختلفة ونقاشات متضاربة بحيث أصبحت تؤلف مشكلة عويصة أشبه بعملية رياضية يصعب حلها، وسبب حدوث هذه المشكلة أن أكثرية الباحثين الغربيين يحاولون فصل المصريين القدماء عن مجموعة الشعوب الجزرية. ليتوصلوا في النهاية إلى أقوال وآراء متضاربة في تحديد أصل المصريين القدماء، فالبعض يرى أنهم من الجنس السامي، وآخرون يرجحون الأصل الحامي أو اللوبي. وثمة آراء أخرى تتضارب في نسبة المصريين إلى مختلف الأجناس ابتداء من أقصى الشرق الآسيوي إلى أقصى الغرب الأوربي، بل إن بعض علماء الأجناس يقارنون بين المصريين القدامى وسكان أمريكا الجنوبية الأصليين الذين نزحوا إليها من شمال شرقي آسيا عبر ممر بهرنج.

وفي هذا السياق يبرز تيار من حراس وأصحاب الفكر الآسن العربي، يشكك في عروبة مصر ـ وادي النيل ليوقروا في أذهان الشعب المصري وهن الصلة بينهم وبين العروبة الأصلية، محاولين جعل النعرة الفرعونية أصلاً في الحياة المصرية وأمجادها بزعم أن لها خصوصية خاصة. فباسم "القومية المصرية" تارة، والخصوصية في "الطريقة الذهنية" تارة أخرى، وباسم خصوصية "جغرافية" مرة ثالثة....، يبرز من يؤكد أن مصر القديمة امتلكت قومية خاصة فريدة!!

بطبيعة الحال، سوف يكون من السذاجة أو الغباء أن ننظر إلى سكان مصر ـ وادي النيل على أنهم منفصلون عن شعوب شرقنا القديم. لأن ذلك يضعنا

أمام تاريخ شعب متعدد متباين. ينظر إليه على أنه تاريخ فرعوني أولاً، وقبطـي ثانيـاً، وعربي ثالثاً. وهذا غير صحيح وتزوير للحقائق التاريخيـة، لأن ذلـك لم يكـن انتقـالاً من نوعية شعبية أتنولوجية وأتنوغرافية ولغوية إلى نوعية أخرى.

ونتساءل ههنا أيضاً: من أين جاء المصريون القدماء فعلاً!؟ يلخص "د. عبـد العزيز صالح" في كتابه (الشرق الأدنى القـديم، الجـزء الأول، مـصر القديمـة) الاتجاهات التي جرى وفقها بحث أصل المصريين القدماء في اتجـاهين رئيـسين: الأول افترض أن أصحابها وفدوا على وادي النيل مـن منطقـة قريبـة منـه، مثـل جبال البحر الأحمـر وشـبه جزيـرة سـيناء وشـمال الحجـاز. والثـاني افـترض أن أصحابها كانوا من أهل الوجه البحري أي من أهل مصر نفسها[1].

فقد قال "غوستاف جيكي" (أستاذ الأثريات المصرية في كليـة نيوشـاتل) في كتابه (تاريخ المدنية المصرية): إن سكان مصر القدماء جاؤوا إليها من جزيـرة العـرب قبـل سـتة آلاف سـنة، وأن الأسر الفرعونيـة الأولى هـي مـن هـؤلاء القـادمين، وقـال مثـل هـذا "هنـري بـروخ" الألمـاني، و"هنـري جونـسون" الإنجليزي في كتابيهما تاريخ مصر أيضاً.

وجاء في كتاب ـ تـاريخ الـسودان القـديم ـ للـدكتور "حـسن كـمال" أن المصريين والسودانيين من أصل واحد، وقد جاء أسـلافهم إلى وادي النيـل مـن بلاد العرب عن طريق الصومال على مـا تـدل عليـه البحـوث والاسـتقراءات، ونقل هذا المؤلف عن "ديودور الصقلي" قوله: إن أصل المـصريين القـدماء مـن بلاد العرب الجنوبية، نزلوا إلى شواطئ إثيوبيا، ثـم تقـدموا نحـو الـشمال حتـى دخلوا مصر.

وكان للمرحوم "أحمد كـمال باشـا" (مـن علـماء الآثـار في مـصر) بحـث مستفيض في علاقات العرب بوادي النيـل قبـل الإسـلام، وفي تقـارب اللغتـين الهيروغليفية والعربية تقارباً حدا به إلى التصريح بأن إحداهما قـد تكـون مـشتقة

---

(1) (صالح) د. عبد العزيز، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر القديمة، ط4، مكتبة الأنجلو المصرية، 1990، ص (64-65).

من الأخرى، بل نقل عنه "د. حسن كمال" في كتابه «تاريخ السودان العـام»: أن أصل اللغة المصرية والعربية واحد، وأن الاختلاف الظاهر بينهما ليس إلا نتيجـة لإسقاط بعض كلمات في بلاد العرب وبقائهـا في وادي النيـل. أو العكـس. ثـم نتيجة لما يعتري الكلمات من القلب والإبدال، وما يطرأ على اللغات من تغير من معاملة الأجانب[1].

ويقول "ل. و. كينغ": "إن الساميين [الجزريين بمفهومنا] نزحوا إلى مصر من عهد قديم جداً. ويؤخذ من الاكتشافات الآثارية الأخيرة أن العصر الحديدي بمـصر يبدأ بدخول الساميين [الجزريين بمفهومنا] إليها، أي أن المصريين لم يكونـوا يعرفـون الآلات الحديدية قبـل دخـول الـساميين [الجـزريين بمفهومنـا]، فأتـاهم الـساميون [الجزريين بمفهومنا] بالحدادة منذ أقدم أزمنة التاريخ المصري.... ومما يستدل به عـلى قدم نزوح الساميين [الجزريين بمفهومنا] إلى مصر أن (بتاح) أقدم آلهة المصريين، هـو إلة سامي الأصل"[2].

وقـال المـؤرخ "ماسـبيرو": إن لعـروق المـصريين الأقـدمين، والعـرب، والفينيقيين، والكنعانيين روابط تشد بعضها إلى بعض، وليس المـصريون سـوى ساميين [الجزريين بمفهومنا] انفصلوا عن مهد الساميين [الجـزريين بمفهومنـا] قبل غيرهم[3].

ويذهب "إليوت سـميث" إلى أن العـرب الأصـلاء والمـصريين القـدماء ينتمون إلى أصل مشترك واحد كـان يـسكن كـل المنطقـة التـي يفـصلها البحـر الأحمر، ثم انفرد كل منهما بخصائص معينة من حيث التركيب الجنسي والعادات والمعتقدات، وذلك قبل زمن طويل من بداية التاريخ المكتوب. ثم لم ينقطع هـذا

---

(1) (الدواليبي) د. محمد معروف، دراسات تاريخية عن مهد العرب وحضارتهم الإنسانية، ط 2، دار الكتاب اللبناني، 1983،، ص (55-57).

(2) (داود) د. أحمد، تـاريخ سـوريا القـديم تـصحيح وتحريـر، ط2، دار الكاتـب العـربي، دمـشق، 1997، ص 494.

(3) (دروزة) محمد عزة، تاريخ الجـنس العـربي، الجـزء الثـاني، المكتبـة العـصرية، بـيروت، 1959، ص10.

التأثير العربي في مصر على مدى ستين قرناً غير أنه لا سبيل إلى تقدير حجم هذا التأثير ومداه تقديراً أقرب إلى الصحة واليقين.

ويقول "د. سليمان حزين" أنه على الرغم من الغزوات التي تعرضت لها مصر في العصور الفرعونية فقد احتفظ المصريون بصفاتهم الجسمية التي ربطتهم منذ عصور ما قبل التاريخ بسكان غرب آسيا الذي أصبح يعرف فيما بعد بالشرق العربي. وحتى عندما جاء العهد الإغريقي ونزحت العناصر الإغريقية إلى شمال مصر وغربها بقي أثر الإغريق محصوراً في نطاق ضيق ولم يلبث أن تحلل في كتلة السكان الأصليين ولم يغير شيئاً من الصفة العامة للسكان، وبعد الفتح الإسلامي نزحت إلى وادي النيل الأدنى عناصر جديدة من القبائل العربية، ولكن لم يترتب عليها تغيير التكوين العام للمصريين لأن هذه العناصر الجديدة كانت متشابهة في صفاتها العامة مع سكان مصر، ولأن صلات السلالة والدم بين وادي النيل الأدنى وشمال الجزيرة العربية صلات وثيقة وقديمة، وما حدث بهجرة القبائل العربية بعد الفتح الإسلامي إنما كان تسجيلاً وإبرازاً لما هناك من صلات بين المصريين والعرب سبقت التاريخ المكتوب، ولكن زادتها مسحة الثقافة العربية والإسلامية المشتركة ظهوراً وتوكيداً[1].

ومهما كان اختلاف الآراء حول أصل قدماء المصريين، فإن هناك حقائق لا يمكن إنكارها، وإحدى هذه الحقائق أن المصريين في جميع عصورهم كانوا يظهرون احتراماً كبيراً لذكرى الـ (سمسو – حور) أي أتباع حور أو حورس، وروى قدماء المصريين في العصر المتأخر لبعض الرحالة أنهم جاؤوا من الشرق ومن الجنوب، وأنهم علموا الحضارة لمن كانوا في البلاد وأخضعوها لسلطانهم. ويصفون الطريق الذي جاؤوا منه وصفاً غامضاً لا نعرف عنه شيئاً على وجه التحقيق في بدايته، ولكنهم استخدموا الطريق الموصل بين البحر الأحمر والنيل

---

(1) (موسى) محمد العزب، وحدة تاريخ مصر، ط2، المركز العربي للصحافة ـ أهلا، القاهرة، 1980، ص (92-93).

ماراً بوادي الحمامات بعد ذلك، وقد ظل هـذا الـوادي إلى آخـر عهـد الفراعنـة يتمتع بشيء من التقديس[1].

ويرى أهل الاختصاص أن هناك إشـارات كثـيرة إلى أن المـوطن الأصـلي لحورس هو بلاد بونت[*]، وأن اسم حورس غريب عـلى اللغـة المـصرية ولكنـه موجود في اللغـة الـسامية [الجزريـة]، وبعبـارة أدق في اللغـة العربيـة..... وأن هؤلاء الوافدين أتباع حورس عبروا من جزيرة العرب إلى الشاطئ الأفريقـي في أرتيريا، ثـم سـاروا مخترقـين الـبلاد حتـى وصـلوا إلى صـحراء مـصر الـشرقية ودخلوها عن طريق وادي الحمامات[2].

وهنـا نـستطيع القـول بكـل تأكيـد إن الدراسـات الأنثربولوجيـة والأركيولوجية التي تستخدم في دراساتها أرقى أنـواع الأسـاليب العلميـة، مـن حيث العمق والتحليل والآلات الحديثة، قد أثبتت أن منذ نحو ثمانية آلاف سـنة بالتحديد قبل الميلاد الوضـع في المنـاطق الأفريقيـة التـي تقـع شـمال الـصحراء الكبرى وبضمنها وادي النيل كان يختلف كل الاختلاف إلى حد كبير، فقد كانت تلـك المنطقـة مأهولـة ومـسكونة بأجنـاس بيـضاء تنتمـي في أصـولها العرقيـة والسلالية إلى عنـاصر سـامية [الجـزريين بمفهومنـا] في شـبة الجزيـرة العربيـة، وهؤلاء ينقسمون إلى جماعات تختلف فيما بينها لغوياً وليس جنسياً [لاحـظ هنـا أن الاختلاف في اللغة وليس في الجنس] إذ إن المؤكد أنهم ينتمـون إلى الـشعوب السامية [الجزريين بمفهومنا]، وأن الحامية هي لفظ لغوي يطلـق علـيهم بـصفة عامة اسم الحاميين، ففي الغرب (مراكش والجزائر وتونس وليبيـا) كـان يعـيش البربر الذين هم من أصول سامية [الجزريين بمفهومنا]، وفي الشرق وادي النيل

(1) (فخري) د. أحمد، دراسات في تاريخ الـشرق القـديم، ط4، مكتبـة الأنجلـو المـصرية، دمـشق، 1984، ص 135.

(*)لابد من الإشارة هنا إلي أن المقصود ببلاد بونت منطقة ما في جزيرة العرب، وبالأخص في اليمن، لمزيد من التفاصيل علي يمانية بلاد بونت، يراجع كتابنا: موسي وفرعون في جزيرة العـرب، ط1، دار خطوات للنشر والتوزيع، دمشق،2004 ، ص (69-73).

(2) دراسات في تاريخ الشرق القديم، مصدر سبق ذكره، ص (135-136).

كان يعيش المصريون الساميون [الجزريـون بمفهومنـا]، وفي جنـوب الـصحراء الشرقية المطلة على البحر الأحمر كان يعيش النوبيون. وهم ذو بشرة داكنة. وأكثر سمرة من البربر والمصريين وعرب الجزيرة العربية. ويرجع هـذا التميـز في لـون بشرة النوبيين إلى سبب جوهري هو وجودهم في المناطق الجنوبيـة. الأمـر الـذي هيأ للطبيعة أن تؤدي دورها في تكوين بشرتهم باللون الأسمر[1].

لقد رفض الباحث "د. أحمد عبيد" العديد مـن المقـولات الـساذجة عـن خصوصية القومية المصرية في مقالاته التي نشرتها صحيفة روزاليوسف المـصرية في 16و26 سبتمبر سنة 1955 بعنوان: ما هو أصل الشعب المصري؟ وقد جزم فيها بأن المصريين هـم بعـض تلـك الأمـة الـسامية [الجزريـة بمفهومنـا] التـي هاجرت من جنوب الجزيرة العربية، وأن الفرعونية ما كانـت إلا فـترة عـابرة في تاريخ مصر العربية، وقال إن زعامة مصر للعرب مستمدة مـن أصـلها العـربي، وأورد على ذلك عدداً من الأقوال والأدلة[2].

وتبقي مـسألة جـديرة بالانتبـاه، وهـي أن جميـع المـؤرخين يلحـون عـلى المشابهات العميقة بين أصول الحضارة المـصرية والـسومرية، ويـرون الأولى قـد اقتبست من الثانية. أو العكس. وهنا توجد مشكلة: إذ وجدت أدلـة التـشابه في الصعيد لا في الدلتا! فكيف وصـلت إلى هنـاك إذا!؟ وهـذا بـالطبع دليـل دامـغ للقول بأن مصدر الشعبين واحد: شبة الجزيرة العربية!!

---

(1) (ماكيفيدي) كولين، أطلس التاريخ الأفريقي، ترجمة: مختار السويفي، القاهرة، 1987، ص35.
(2) (شرف الدين) أحمد حسين، اليمن عبر التاريخ، ط1، مطبعة السنة المحمدية، 1963، ص 52.

الفصل السابع عشر

فينيقيون أم حميريون؟

إن المسألة الأكثر إرباكاً في كل بحث يتناول التاريخ القديم لإحدى مناطق سورية الطبيعية هي محاولة التوصل لمعرفة أصل الجماعات السكانية ما قبل العربية التي أقامت دولاً حضارية هنا وهناك، وخاصة بالنسبة لحقب زمنية موغلة في القدم.

إن البحث عن أصول فينيقي الشرق يتعلق بعلم الآثار بمقدار ما يتعلق بالأسطورة. هذا الشعب المقدام، الذي لم يكن في يوم من الأيام إلا جزءاً من الشعب العربي اليمني الذي ملأ أرضه الممتدة من الخليج شرقاً إلى المتوسط غرباً بإنجازات حضارية واحدة. لم يلبث أن أثبت مزاياه المتفوقة خلال الألف الثاني قبل الميلاد وشرع بالغزو السلمي لبحار العالم بين القرنين الثالث عشر والتاسع قبل الميلاد. لكن من كان بالفعل ذلك الشعب العريق الذين كانوا يسمون بـ"الفينيقيون"!؟

في معاني فينيقيا

يناقش "ميخائيل نسطور" اسم فينيقيا في دراسته الموسومة ـ كنعان، فينيقيا، أرجوان ـ بقوله: "من المؤكد أن الأكثر إقناعاً بين سائر التفسيرات الإغريقية لكلمتي: فينيقي، وفينيقيا هو اشتقاقهما من المفردة (فوينيكس) بمعنى أرجواني، الدال على خاصية التجارة الفينيقية. وبالنسبة إلى إد مَيَر، أبرز المدافعين

عن هذه النظرية، فإن الكلمة كانت مفردة يونانية خالصة. كما تبنى شبيرز تفسير العبارة الإغريقية بوصفها تطوراً أوربياً على نحو كامل. والمقصود بذلك القول إن المفردة (فوينيكس) نشأت اسماً وصفياً عاماً، ربما من كلمة (فوينوس) التي تعني: أحمر. وقد تم الاعتراف بأن (فوينيكس) مشتق، عبر (فوينوس) "فون ـ إيو ـ س" التي تعني: قاتل، دموي، أحمر كالدم، المشتقة من (فونوس) التي تعني: جريمة قتل، والذي جرت استعادة جذور الهندو أوروبية، على أساس سلسلة طويلة من الاشتقاقات، على شكل "غوُ هوُ نو ـ س". ولكن صوت (غُ) البدائي الأول ظل في الإغريقية الميقينية يُلفظ قافاً (ق). الآن، تظهر الصفة (فينيقي) التي تنعت بعض السلع المستوردة، في نصوص محددة على شكل: فونيكا (= فوينيكا) التي كانت، مثلها مثل صياغة: فونيكيا، تعني مصبوغ باللون الأحمر، مدهون باللون القرمزي مما دفع فنترس وتشادويك إلى القول، وهما على صواب، بأن فونيكا ربما كانت كلمة مقتبسة، بدلاً من أن تكون مشتقة من فونيوس التي تعني أحمر كالدم، والمأخوذة من المفردة (جُ هُنوس) غونجوس. ومع انتفاء إمكانية عَدُّ (فوينيكس) كلمة إغريقية، بات من الضروري أن نبحث عن أصلها، لدى تلك الأقوام التي اشتهرت بالأصبغة القرمزية والأرجوانية التي كان الإغريقيون يطلقون عليها اسم فُوينيكس. الآن، إن المفردة العبرية "فُوّا"، أو العربية "فُوّة" اسم يطلق على الجذور الصبغية التي تنبت في كل من سورية وفلسطين ومصر، وهي أكثر المصادر شيوعاً للصباغ الأحمر ولتقليد اللون الأرجواني في العصور القديمة. وتظهر المفردة "فوت" متزامنة في القدم مع أوغاريت في سياق يحدد معناها بشكل صارم على أنه نسيج مصبوغ بالفُوّة[1].

فكلمة فينيقي قد وردت إغريقياً كتسمية لمجموعة البحَّارة والتجار والجماعات الذين أمُّوا شواطئ وجزر المتوسط وما بعدها أيضاً. وكانت كتابات

---

(1)(نسطور) ميخائيل، كنعان ـ فينيقيا ـ أرجوان، ترجمة: فاضل جتكر، ط 1، دراسات قدمس (6)، دار قدمس للطباعة والنشر، دمشق، 2001، ص (23-24).

هوميروس في البدء حوالي 9 ق.م، قد أشارت إليهم، ثم كتابات هيرودوتس المؤرخ. إذاً التسمية الأولى لم تأت من المصادر المحلية، أو نقوشها، بل من الكتابات اليونانية. وبما أن القادمين من شواطئ البحر الأحمر وسورية ولبنان وفلسطين، يحملون حضارة أرقى من حضارة القسم الشمالي الأوربي للمتوسط، وخاصة في قسمه اليوناني، فإن إحدى نتاجاتهم (الصباغ الأرجواني) استخدم كاسم لهم، فارتبط اسم فينيقي بالأرجوان، وهي تسمية معرفية لأن الأرجوان تعنى Purple باليونانية. وفي النصوص المسينية [نسبة لجزيرة مسينا] لهرميروس فسرت تسميتهم عبر صفة مؤنثة باسم Ponikija، التي تعني أحمر. وهذه الصفة قد تكون أخذت قيمة إثنية، خاصة أن اسم Ponikija استخدم للدلالة على عشبة، يمكن أن تكون العشبة الفينيقية Herba Phoeniciea التي أشار لها بليني من ناحية ثانية، فإن المعنى اللغوي لكلمة أرجواني في اللاتينية هي Purpureus، وهي كذلك بالفرنسية حيث Purpurin تعني أحمر قانٍ أرجواني[1].

ويشير "فيليب حتي" إلى أن "اسم فينيقية المشتق من اليونانية (Phoini) أي أحمر أرجواني يشير إلى الصناعة نفسها -صناعة الأرجوان- وبعد أن أطلق اليونان هذا الاسم على الكنعانيين الذين تاجروا معهم. فإن كلمة فينيقي أصبحت حوالي 1200 ق.م مرادفة لكنعان"[2].

يناقش "موسكاتي" معنى اسم فينيقي عند المجتهدين في تفسيره، ويرى أنه إذا كان E-Speiser قد لاحظ أنه في النصوص الاكادية العائدة لنوزي أن كيناخُّو تعنى أرجوان، وأن الأرجوان كانت مرادفة للكنعاني في حينه، إلا أنه ليس هنالك من أسباب لغوية مقنعة تجعلنا نفترض أن كيناخُّو مشتقة من كنعان أو افتراض عكس ذلك[3].

---

(1) (ديب) فرج الله صالح، كذبة السامية وحقيقة الفينيقية، ط 1، دار نوفل، بيروت، 1998، ص (165-166).

(2) (حتى) د. فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ترجمة: د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، 1958، ص (86 ـ 87).

(3) كذبة السامية وحقيقة الفينيقية، مصدر سبق ذكره، ص (165-166).

ويعلق "شبيزر" على اشتقاق (كنعان) من فينيقية بالقول: "إن أصل واشتقاق (كنعن) ومشتقاته لا علاقة له البتة بالمسألة الحالية" أي باشتقاق اسم (الفينيقيين)[1].

أما "يوسف حوراني"، فيرى أن: "فينيقس الذي حمل اسمه اللبنانيون، ودعوا بالفينيقيين بالنسبة للإغريق، فهو أحد رؤساء القبائل"[2].

أما تسمية (الفينيقيين) فلن نبحث عن مصدرها إلا في القواميس العربية. فالتسمية (الفينيقيين) ترد إلى الجذر العربي (فنق). ويرد معناه في "لسان العرب" لـ"ابن المنظور" (فنق، فنق، الفنق والفناق، والتفنق): كله النعمة في العيش، و(التفنق): التنعم كما يفنق الصبي المترف أهله، وتفنق الرجل أي تنعم، وفنقه غيره تفنيقا، وفانقه بمعنى أي نعمه وعيش مفانق قال عدي بن زيد يصف الجواري بالنعمة:

زانهن الشفوف ينضحن بالمسك

وعيش مفانق وحرير

و(المفنق): المترف قال:

لا ذنب لي كنت امرأ مفنقا

أغيد نوام الضحى غرونقا

الغرونق المنعم، وجارية فنق ومفناق: جسيمة حسنة فتية منعمة (الأصمعي)، وامرأة فنق: قليلة اللحم: وقال شمر لا أعرفه ولكن (الفنق): المنعمة، و(فنقها): نعمها، وأنشد قول الأعشى: لا تكون درم مرافقها وهي قليلة اللحم، وقال بعضهم: ناقة فنق/ إذا كانت فتية لحيمة سمينة، وكذلك امرأة فنق إذا كانت عظيمة حسناء. قال رؤبة: مضبورة قرواء هرجاب فنق، وقيل في قول رؤبة تنشطته كل هرجاب فنق، قال ابن بري وصواب إنشاده على ما في رجزه:

---

(1) كنعان ـ فينيقيا ـ أرجوان، مصدر سبق ذكره، ص 21.

(2) (حوراني) يوسف، لبنان في قديم تاريخه، دار النهار، 1992، ص 106.

تنــشطته كـــل مغـــلاة الوهـــق

مــضبورة قــرواء هرجــاب فنــق

مــائرة الــضبعين مــصلاب العنــق

ويقال: امرأة مفناق أيضاً، قال الأعشى: لعوب غريـرة مفنـاق، والفنـق: الفتية الضخمة. قال ابن الأعرابي: فنق كأنها فنيق أي جمل فحل، والفنيقـة المـرأة المنعمة (أبو عمرو) الفنيقة الغرارة وجمعها فنائق، وأنشد:

كـــــأن تحـــــت العلـــــو والفنـــــائق

مـــن طولـــه رجمـــا عــــلى شــــواهق

ويقال تفنقت في أمر كذا أي تأنقت، وتنطعت قال: وجارية فنق: جـسيمة حسنة الخلق، وجمل فنق، وفنيق: مكرم مودع للفحلة. قال أبو زيد: هو اسم مـن أسمائه، والجمع فنق وأفناق، وفي حديث عمير بن أفصي ذكر الفنيق هـو الفحـل المكرم من الإبل الذي لا يركب، ولا يهان لكرامته عليهم، ومنه حديث الجـارود كالفحل الفنيق، وفي حديث الحجاج لما حاصر ابن الزبير بمكة، ونصب المنجنيق خطارة كالجمل الفنيق والجمع أفناق وفنق وفناق، وقد فنق. وجارية فنق: مفنقة منعمة فنقها أهلها تفنيقا وفناقا، والفنيق: الفحل المقرم لا يركـب لكرامتـه عـلى أهله، والفنيقة: وعاء أصغر من الغرارة، وقيل: هي الغرارة الصغيرة[1].

نخلص من كل هذا، أن التسمية (فينيق) تعني: ترفّه، تنعَّم، رغد، الفحل، المكرم، النبيل.

من أين جاء الفينيقيون!؟

في مؤلفه (مكتبة التاريخ) يسجل المؤرخ "هيرودوتس" (484 ــ 425ق.م)، ما يلي: "إن الفرس البارعين في معرفـة تـاريخ بلادهـم، ينـسبون إلى الفينيقيـين

---

(1) لبنان في قديم تاريخه، مصدر سبق ذكره، ص 106.

المبادأة في العدوان، بدعواهم أن هؤلاء جاؤوا من سواحل بحر إريتريا (البحر الأحمر) إلى شواطئ بحرنا، وسافروا في البحر مسافة طويلة حالما استقروا في البلاد التي اتخذوها موطناً لهم الآن، وطفقوا يتاجرون بالبضائع المصرية والآشورية، بأن ينقلوها إلى أماكن عدّة منها بلدة أرغوس، وهي التي كانت يومئذ أعظم مدن تلك البلاد المعروفة الآن باسم إغريقية. وكانوا بحال وصولهم قد باشروا بيع بضائعهم. وفي خمسة أو ستة أيام نفذت بجملتها. وكانت جماعة من النساء وفي جملتهن ابنه الملك ايناخوس المدعوة (بو) قد أتين للابتياع. قال مؤرخو الفرس، وبينما أولئك النساء يبتعن من البضائع ما يروق لهن، هاج الفينيقيون عليهن بعضهم بعضاً، فتواثبوا وسبوا (بو) وبعض النساء، وفرَّوا قاصدين نواحي مصر. ذهب مؤرخو الفرس إلى أن (بو) أحضرت إلى مصر بهذه الصفة، وخالفهمْ في ذلك مؤرخو الفينيقيين، وزعموا أيضاً، أنه بعد ذلك توجه قوم من الأغارقة بسفائنهم إلى مدينة صور من أعمال فينيقية وأرسوا في مينائها، ثم اختطفوا أوربة ابنه الملك"[1].

ويعيد "هيرودوتس" التأكيد على موطن الفينيقيين بقوله: "والفينيقيون كانوا يسكنون سابقاً سواحل بحر إريتريا (البحر الأحمر) كما يقولون هم أنفسهم.إذ اجتازوا من هناك إلى سواحل سورية فقطنوها. والقسم من سورية مع كل البلاد التي تمتد إلى تخوم مصر يسمى فلسطين"[2].

ويزيد هذه الحقيقة تأكيداً وتأييداً ما رواه الرحالة المؤرخ الجغرافي اليوناني "سترابون" (Strabo) الذي كتب في أواخر القرن الأول قبل الميلاد. وأوائل القرن الأول الميلادي، في الفصل السادس عشر من كتابه الشهير في «الجغرافيا (3، 4)» عن الخليج الذي تطل عليه منطقة البحرين، فيشير فيه إلى

---

(1) هيرودوتس، تاريخ هيرودوتس الشهير، ترجمه عن طبعة لارشي الفرنسي: حبيب أفندي بسترس، مجلدين، مطبعة القديس جاورجيوس، بيروت، 1886 ـ 1887، ص 12. [نسخة مصورة]

(2) المصدر نفسه، ص 467.

جزيرتين هما: أرادوس Arados وصور Tyros، ويحدثنا أن بهاتين الجزيرتين معابد تشبه معابد الفينيقيين وأن أهل الجزيرتين يؤكدون أن المدن والجزر الفينيقية التي تحمل هذين الاسمين [يشير إلى ميناء إرواد وإلى ميناء صور التي كانت في أصلها جزيرة ربط الفينيقيون بينها وبين الساحل السوري] هي مستوطنات لهم (أي لأهل جزيرتي الخليج)[1] ويؤيد "بليني" هذه الواقعة[2].

بل مالنا نذهب في الاستشهاد بعيداً وهذا الخليج لا يزال فيه إلى يومنا هذا ثغر اسمه (جبيل) على اسم الثغر الآرامي في الشام. إن التشابه بين الهياكل الدينية في فينيقيا وفي البلاد العربية على الخليج واشتراك البلدين في عبادة (عشتروت) ووجود بلاد في كل من الجهتين تتفق في أسمائها، ليس كله مما يجوز حمله على مجرد الاتفاق الذي لا معنى له، وكون الفينيقيين عرباً جاؤوا إلى الشام من جنوب البلاد العربية حقيقة معترف بها ومشهورة من قديم الزمان. وقد ذكر "يستين" مختصر ـ تزوغ بمبي (18 : 3) ـ: "أن الفينيقيين لما آذتهم الزلازل في أوطانهم وأضرت بهم هجروها وأقاموا أولاً بالقرب من البحيرة الآشورية (الخليج)، ثم رحلوا من هناك ونزلوا عند البحر (أي الأبيض)، وفي ذلك المحل بنوا مدينة سموها (صيداء) لكثرة الأسماك في ساحلها"[3].

أما المؤرخون العرب فيقولون: "إنهم عبروا مضيق الجزيرة العربية من مصب الفرات إلى وادي الأردن"[4].

ويذكر "د. زيد بن علي عنان" نقلاً عن العلاّمة "فرنسيس لنورمان" إن تقليد الفينيقيين الذي جمعه في نفس مدينة صور المؤرخ هيرودوتس البارع في

---

(1) (عبد الوهاب) د. لطفي، العرب في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بلا تاريخ، ص 64.

(2) (ج. كونتو)، الحضارة الفينيقية، ترجمة: د. محمد عبد الهادي شعيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997، ص 420.

(3) (عنان) زيد بن علي، تاريخ حضارة اليمن القديم، ط1، دار الأفاق العربية، القاهرة، 2003، ص 420.

(4) الحضارة الفينيقية، مصدر سبق ذكره، ص 421.

تحري منابع الأخبار، وقبله تزوغ بمبي المعروف بالرأي الصائب وتقليد سكان العربية الجنوبية الذي نقله أسترابون ثم التقليد الذي كان جارياً ببابل في أوائل النصرانية أيام أنشئ الكتاب الكلداني في الفلاحة النبطية، جميع هذه التقاليد الثلاثة متفق على أن الكلدانيين سكنوا في بادئ الأمر بالقرب من الكوشيين إخوانهم الأصليين عند أرياف البحر الأحمر أو خليج العجم، أي في الجهة التي تسمى اليوم في المصورات الحديثة (القطيف) وأن طريق القوافل ممتدة الآن من ناحية القطيف ومتصلة ببلاد الأحساء، وكامل وادي عطفان إلى حد جبل طويق، وفيما وراء ذلك بقليل تميل إلى جهة الشمال الغربي في ناحية الوشم إلى أن تتصل بمدينة (عنيزة)، ومن هناك تأخذ نحو الغرب مارة بجميع جهة (القصيم) لتتصل بطريق الحاج على مساواة (الحنيكية)، هذه هي الطريق الذي سلكها الفينيقيون عند هجرتهم من بلاد العرب إلى الشام، وذلك أمر لا يستطاع الارتياب فيه، لأنهم لو سافروا بطريق أخرى لما تمكنوا من قطع مسافة الصحراء الواسعة المساحة.

ومن عادة أهل الشرق أن المتأخرين منهم يسلكون الطريق نفسها التي اختطها أجدادهم. ويمكن التقدير أيضاً بوجه الاحتمال الكلي أن الفينيقيين عند بلوغهم (الحنيكية) مشوا في الطريق التي يسلكها الحجاج كل سنة عند عودتهم من المدينة إلى الشام ولما وصل الكنعانيون [يقصد الفينيقيون] إلى (الحنيكية) تخلفت منهم قبيلة وأتم الباقون مسيرهم نحو سواحل البحر الأبيض المتوسط. وفي تقاليد العرب القديمة أن قبيلة ثمود أقامت بتلك الجهة ونحتت من الجبال بيوتاً لها. وهي عندهم قبيلة طاغية. لأن الساميين [الجزريين بمفهومنا] ما كفوا مطلقاً عن وصف الكنعانيين والكوشيين بهذه الصفة. فهذه إذن هي الطريق التي يمكن أن يقال إن القبائل الكنعانية [الفينيقية] اتبعتها عند هجرتها من بلادها[1].

---

(1) تاريخ حضارة اليمن القديم، مصدر سبق ذكره، ص (43-44).

بما أن الفينيقيين قد ابتكروا الصباغ الأرجواني فقد اعتقد بعض الباحثين الغربيين، وساندهم في ذلك على الفور السادة حراس وأصحاب الفكر الآسن من الأكاديميين العرب بأن هذا الاسم قد أعطي لهم لتخليد صناعة قومية اقترنت بهم، برغم الإجماع شبه العام على أن الفينيقيين هجرة من جزيرة العرب، فتحديد المؤرخ "هيرودوتس" البارع في تحري منابع الأخبار أنهم جاؤوا من بحر أريتريا [البحر الأحمر]، وقبله تزوغ بمبي المعروف بالرأي الصائب، وإضافة أسترابون من وجود مدينتي (أرادوس Arados) و(صور Tyros) على الخليج الذي تطل عليه منطقة البحرين. وأيده في ذلك بليني.

والسؤال الذي أطرحه على السادة مؤرخينا من أصحاب وحراس الفكر الآسن العربي: لماذا لم يثير كلام هؤلاء المؤرخين الثقات أية رغبة عربية في التدقيق والتحري عن صحة هذه الأخبار!؟ إنني أعتقد أنه جهل متعمد من قبل مؤرخينا، الذين كان همهم إثبات نظريات أسيادهم من مؤرخي الغرب وبحاثة التوراة، فيما يتعلق بجغرافية التوراة.

ووفق قناعاتي الشخصية أنه وجب البحث عن الفينيقيين، في جنوب جزيرة العرب، إذ كانت الأسطورة تقول بأنه في الألف الثاني قبل الميلاد جاء ليستقر فوق رقعة الأرض الضيقة بين البحر الأبيض المتوسط وجبال لبنان شعب قادم من الجزيرة العربية. وهذا الشعب كان يدعي بـ(الفينيقيين)، والتي تعني (الشعب الأحمر). قد حافظ على اسمه في جنوب جزيرة العرب، بـ(حِمْيَر). إننا في الواقع نجد في لفظتي (حِمْـيَرَ وحِمْيَرِيين) الجذر الثلاثي (ح م ر) الذي ما زال في أيامنا هذه يعنى في العربية الاحمرار.

وليس مستبعداً أن يكون هؤلاء الحميريون قد أعطوا اسمهم أيضاً للبحر الأحمر الذي كانوا يقصدونه، والذي لابد أنهم قد عبروه أثناء رحلتهم الطويلة إلى الغرب.

وقد كان الحميريون يشكلون في العصر القديم من القرن العشرين قبل الميلاد وحتى القرن الخامس الميلادي أشهر تكتل عرقي وسياسي في جنوبي شبه الجزيرة العربية. وكانوا يحتلون حضرموت الحالية. وكانت أراضيهم تمتد قديماً من عدن حتى

مسقط. ويبدو أن مملكة حمير كانت لها علاقات قرابة وثيقة مع مملكة سبأ. ومن المحتمل أن هاتين المملكتين قد شكلتا خلال عصور طويلة مملكة واحدة.

إن لغة الحميريين، التي تدعى أيضاً (العربية الجنوبية القديمة) تبدو وكأنها اللغة الأم للفينيقيين. والكتابات التذكارية التي وجدت في النقوش الحميرية لها بعض الصلات مع الكتابات الفينيقية.

وفي ذلك يشير الأستاذ "موريتز" المستشرق الألماني إلى "أن أصل إيجاد الكتابة بالحروف الهيروغليفية كان في اليمن، وهو يعتقد أن اليمانيين هم الذين اخترعوا الكتابة، وليس الفينيقيون هم الذين اخترعوها كما هو الرأي المشهور، وقد أفضى "موريتز" بأدلته على هذا الرأي وقال: إن الفينيقيين إنما بنوا كتابتهم على الكتابة العربية اليمنية ثم إن اليونانيين أخذوا الكتابة عن الفينيقيين، وعنهم أخذ الرومانيون، فيكون العرب هم الذين أوجدوا الكتابة في العالم، ولهذا الاعتبار هم الذين أوجدوا المدنية"[1].

فقد كان المصريون القدماء يطلقون على مملكة حمير اسم "بلاد البون". وإذا رجعنا إلى قصة "ماسبيرو" (Maspero) وجدنا أن هناك ألفاظاً مثل (بون) أو (بوانيتي) أو (بويني). وكل هذه الكلمات تعني أيضاً الفينيقيين كما تعني بالتالي البونيين أي سكان قرطاجة. زد على ذلك أن الحميريين قد سبقوا الفينيقيين في إقامة علاقات تجارية، قبل استقرارهم على الساحل اللبناني، مع الهند وشبه الجزيرة العربية وأفريقيا[2].

وهذا يدفعنا إلى مناقشة مسألة بونت، وماذا قصد بها!؟

أن أقدم ما ورد مسطراً على الآثار عن مصر ـ وادي النيل وصلتها ببلاد بونت هي البعثة التي أمر بإرسالها الملك "ساحورع" من الأسرة الخامسة

(1) (باوزير) سعيد عوض، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، 1961، ص 16.

(2) (مازيل) جان، تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، ترجمة: ربا الخش، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 1998، ص (31-32).

(حوالي عام 2550 ق.م) إلى تلك البلاد، وبقيت مناظرها على بقايا جدران معبد أبو صير. ثم جاء ذكرها مرة ثانية على حجر بالرمو وفيه تفصيل لما عادت به الحملة من خيرات بونت، مثل جلود الحيوانات والعاج وريش النعام وبعض الأحجار نصف الكريمة، وذلك إلى جانب البخور وبعض أنواع العطور التي كانت السبب الرئيسي للقيام بهذه الرحلة. وزادت الصلة بين مصر - وادي النيل وبلاد بونت في عهد الأسرة السادسة إلى حد كبير، وفي إحدى مقابر أسوان يذكر أحد الموظفين أنه ذهب مع سيده إحدى عشرة مرة إلى تلك البلاد.

وفي عهد الأسرة الحادية عشرة (حوالي عام 2100 ق.م) بلغ من اهتمام الملوك بالتجارة مع بونت أن الملك "منتوحوتب الرابع" أرسل مدير خزانته واسمه "حننو" لإحضار البخور. فذهب ومعه ثلاثة آلاف رجل عن طريق وادي الحمامات والبحر الأحمر ونجح نجاحاً عظيماً في مهمته. وتكررت الحملات في الأسرة الثانية عشرة وما بعدها. ونرى في قصة الملاح الغريق (يرجع تاريخها إلى الأسرة الثالثة عشرة) صدى لما يلاقيه البحارة المصريون من مصاعب ومتاعب عند سفرهم إلى بلاد بونت.

وأشهر رحلات المصريين إلى تلك البلاد هي الرحلة التي أمرت بها الملكة "حتشبسوت" في الأسرة الثامنة عشرة (حوالي 1490 ق.م) تحت قيادة الوزير "نحسي" ونقشت مناظرها على جدران معبد الدير البحري في طيبة. أعدت "حتشبسوت" سفناً كبيرة لهذه الرحلة غادرت طيبة في النيل، وربما وصلت إلى البحر الأحمر عن طريق القناة التي كانت مستخدمة في ذلك العهد مخترقة وادي الطميلات. ثم عادت إلى مصر ـ وادي النيل محملة بخيرات بونت من بخور وعطور وأخشاب وحيوانات، كما أحضرت إحدى وثلاثين شجرة لزرعها في حديقة معبد أمون بالدير البحري. واهتم المصريون بتدوين تفاصيل هذه الرحلة، فنرى استقبال مندوب الملكة لزعماء بونت والهدايا التي قدمها إليهم، كما رسموا أيضاً القرية الساحلية التي رسوا عندها. وعنوا عناية خاصة برسم جميع أنواع الأسماك التي رأوها في البحر الأحمر.

لم يتفق العلماء على تحديد موقع بلاد "بونت" فترددوا بين أن تكون ساحل أفريقيا الشرقي وبالذات ما يسمى الآن "الصومال"، وبين بلاد العرب، وكل ما قاله العالم "غاردنر" في تعريف "بونت" هذه أنها "الشريط الساحلي جنوب البحر الأحمر" (Eg.Gr., P.565) أي شريط ؟ الغربي أم الشرقي ؟ لا جواب[1] المسألة لم تحسم بعد، ولكي نحدد موقع "بونت" يجب أن نعيد قراءة النقوش المصرية ذات العلاقة، وكذلك عبر الاستعانة بعلمي الآثار واللغة:

* إن مناظر أهل بونت في معبد ساحورع في الأسرة الخامسة، ومناظرهم على جدران الدير البحري وبعض مقابر طيبة في الأسرة الثامنة عشرة تبين أنهم من جنس يشبه كثيراً جنس سكان وادي النيل، ويتفق معهم في أكثر الملامح والملبس.

* جميع ما ذكره المصريون كخيرات بونت يمكن الحصول عليها من الشاطئ الآسيوي وأكثره محلي، وبعضه يأتي إليها بوساطة التجارة.

* إن خير أنواع البخور واللبان لا تنبت في الشاطئ الإفريقي بل في بلاد الشحر والمكلا وظفار وجزيرة سوقطرة، وكلها على الشاطئ الجنوبي لجزيرة العرب.

* فحص الأخصائيون رسوم الأشجار المرسومة على جدار معبد الدير البحري ووجدوا أنها من نوعين، أحدهما ذو أوراق كثيفة من نوع Boswellia Carteri ويقول الأستاذ "شُف" (Schoff) أنه من نوع أشجار ظفار ولا يمكن أن ينبت في الشاطئ الأفريقي. أما النوع الآخر فهو قليل الأوراق بل يكاد يكون عارياً منها، ويشبه أشجار اللبان التي تنبت في بلاد الصومال[2].

---

(1) (خشيم) د. على فهمي، آلهة مصر العربية، المجلد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص، 281.

(2) (فخري) د. أحمد، دراسات في تاريخ الشرق القديم، ط 4، مكتبة الأنجلو المصرية، 1984، ص (138 ـ 139).

1) إن العلماء أنفسهم قرروا أن النقوش المصرية تسجل وقوع بلاد " بونت " في "طء ـ نتر". أي في بلاد الرب، وهي كما قال "د. أبو العيون بركات " صفة ملازمة لاسم اليمن جنوب الجزيرة العربية في النقوش المصرية الفرعونية، وأن سبب تلك الصفة الخاصة باليمن ربما يعود إلى أنها أرض البخور واللبان المقدس الذي كان يرتبط بالعقائد والتقرب إلى الآلهة ويتم إحضاره من اليمن[1].

فإذا وضعنا في ذهننا جميع هذه الحقائق، وأردنا أن نحدد مكان بلاد بونت، لوجدنا أن "بلاد بونت" هي بلاد اليمن الجنوبية"[2].

وفي عملية البحث عن موقع "بلاد بونت/ الفونت"، يستعين الباحث "زياد منى" باللغة العربية. فباستشارة القواميس المتخصصة نعرف أن العرب عرفوا (أفلت) و(فليت) كاسمي علم. كما أن "الفلت" و"اللفت" هو الموت. معنى ذلك أن الاسم المصري القديم " فونت" يشير إلى إقليم "حضرموت" في جنوبي جزيرة العرب. حيث يعني الاسم العربي "بلاد الموت" أو "حاضرة الموت". وحيث أن البخور كان ينظر له قديماً على أنه غذاء الآلهة، فمن الطبيعي أنه كان ينمو في بلاد الرب، أي في جزيرة العرب[3].

وهنالك نقطة أخرى جديرة بالاعتبار. ففي المناظر التي تسجل صلة المصريين بأهل "بونت"، مثل رحلة حتشبسوت. ومناظر الجزية في بعض المقابر، نرى بعض الأهالي يرتدون ملابسهم التقليدية، ونرى فيها شبهاً كبيراً بين الإزار الذي كان البونتيون القدماء يلفونه حول وسطهم، وبين ذلك الإزارا نفسه الذي مازال يستخدمه حتى يومنا هذا بعض رجال القبائل في جنوبي اليمن، وعلى الأخص في مناطق الساحل الجنوبي[4].

---

(1) (بركات) د. أبو العيون، بونت بين المصادر المصرية واليمنية القديمة، مجلة اليمن الجديد، العدد2، السنة الخامسة عشر، فبراير 1986.

(2) دراسات في تاريخ الشرق القديم، مصدر سبق ذكره، ص 139.

(3) (منى) د. زياد، جغرافية التوراة: مصر وبنو إسرائيل في عسير، ط1، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1994، ص 64.

(4) دراسات في تاريخ الشرق القديم، مصدر سبق ذكره، ص 139.

وتذكر "سوزان راتييه" أن أهل البلد الوطنيين البـونتيين مـن الجـنس الحامي الذين تبدو بشرتهم مصبوغة باللون الأحمر، وربما كانوا هـم أسـلاف الفينيقيين[1]، والذين تمتد حركتهم من الناحيـة الزمنيـة إلى مراحـل مـا قبـل التاريخ، حيث كان موطنهم الأصلي في جنوب الجزيـرة العربيـة وفي منطقـة اليمن تحديداً، ولنفس الأسباب التي دفعت بـالهجرات العروبيـة إلى مواقـع أخرى، هاجر الفينيقيون إلى منطقة الخليج العـربي واسـتوطنوا في / وقـرب جزيرة الديلم "البحرين حالياً". ويعتقـد العـالم "راكـوزين" أن الفينيقيـين. الذين سكنوا الساحل الشامي كانوا قد قدموا من البحـرين وقـد تفرقـوا إلى قبائل وتوزعوا في أقسام عديدة من سورية، وأطلق على أحد فـروعهم اسـم بـنط أو بونـا (PUNT/ PUNE) ودعـاهم الإغريـق بـالفينيقيين. والبونيـون "الفينيقيون" كانوا شعباً تجارياً وقد هاجروا إلى الأمـاكن التـي تزدهـر فيهـا التجارة.كما سكنوا شمال أفريقيا ومنهم القرطاجيون. على أن أهـم فـرع لهـم سكن في بلاد اليمن وحـول مـضيق بـاب المنـدب ثـم انتقـل إلى الـسواحل الأفريقية الشرقية واستوطن بلاد الصومال وسيطر على البحر الهندي والبحر الأحمر، ويعتقد المؤرخون بأن "البونيين" قبيلة مـن الكنعـانيين [الفينيقيـين] استوطنت بلاد سورية منذ أقدم الأزمان وما زالوا[2].

إذن "البونيون" ما هم إلا الهجرة العربيـة التـي يرجـع أصـلها إلى مدينـة "بَون" في اليمن، والتي امتدت إلى الجزائـر وتـونس في صـدر التـاريخ، وإلـيهم يرجع بناء مدينة "بون" في الجزائر، المعروفة اليوم بمدينة "عنابة"، وإن تـسميتها باسم "بون" ما هو إلا إشارة إلى أصـل سـكانها وأن هجـرتهم مـن الـيمن، مـع بنائهم عده مدن أخرى تحت هذا الاسم في أماكن أخرى من العالم.

(1) (راتييه) سوزان،حتشبسوت الملكة الفرعونية، ترجمـة: فاطمـة عبـد الله محمـود، الهيئـة المـصرية العامة للكتاب، 1998، ص 95.

(2) (الخضّور) د. جمال الدين، عودة التاريخ ـ الانتربولوجية المعرفيـة العربيـة / دراسـة في الأناسـة المعرفية العربية التاريخية- اللغوية ووحدتها- حتى الألف الثاني قبل الميلاد، الجزء الأول، الفصل الثالث، دراسات من منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1997. (موقع على الإنترنت).

إن رأيي هذا يلقي دعماً من قبل العـالم اليمنـي "الهمـداني" الـذي ذكـر في سفره الرائع ـ صفة جزيرة العرب ـ أن "البون" (بونـت بإهمـال التـاء) في عـداد حدود قبيلة حاشد اليمنية الأصلية، وذكر عشرات القرى فيها وقد وصفها بأنها: "من أوسع قيعان نجد اليمن......". ويعلق على ذلك محقق الكتاب"محمـد بـن علي الأكوع الحوالي" قائلاً: البون: بفتح الباء الموحدة أخـره نـون، وهـو بونـان: البون الأعلى والبون الصغير. وقد يقال البون الكبـير والبـون الـصغير، وهـو في شمال صنعاء بمرحلة[1].

(1) (الهمداني) الحسن أبن أحمد أبن يعقوب،صفة جزيرة العـرب، تحقيـق:محمـد بـن عـلى الأكـوع الحوالي، ط1، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1990، ص 220.

الفصل الثامن عشر

أفريقيا اليمنية

هنا لابد من التذكير بحقيقةٍ مؤكدة مفادها أن الامتداد العربي في القارة الأفريقية هو أوسع في جغرافيته الطبيعية والديموغرافية مما هو عليه في آسيا. "فيذهب البعض إلى أن الهيكل المنضدي المصدوع الذي يمثل سواحل اليمن والحجاز ـ يظهر بشكل متشابه في سواحل أفريقيا فيما وراء البحر الأحمر، مما حدا بالجغرافيين إلى اعتبار شبه الجزيرة العربية جزءاً من القارة الأفريقية يفصله عنها شبه انحراف".

كما يذهب البعض الآخر، إلى أن البحر الأحمر في عهود جيولوجية غابرة كان عبارة عن بحيرة مغلقة تتوضع بين القارتين الإفريقية والآسيوية. أما الدراسات الحديثة لدى بعض المفكرين الأفريقيين في غرب أفريقيا فترى أن القبائل العربية عبرت مضيق باب المندب من اليمن إلى شرق أفريقيا وعبرت القارة على امتداد خطوط العرض حتى استقرت في بلاد اليوربا، غربي نيجيريا، وفي السودان الغربي، وأوغلت جنوباً عن طريق بحر العرب والمحيط الهندي إلى زنجبار وشواطئ كينيا وتانجانيقا، ومن هناك توغلت على خطوط العرض حتى عرفت جبال القمر وهضبة البحيرات، وأكثر من هذا وصلت إلى تقسيم المياه بين نهري النيل والكونغو[1].

---

(1) (الخضّور) د. جمال الدين، عودة التاريخ، الأنتربولوجية المعرفية العربية / دراسة في الإناسة المعرفية العربية التاريخية- اللغوية ووحدتها- حتى الألف الثاني قبل الميلاد، الجزء الأول، الفصل الثالث، دراسات من منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1997 (موقع على الإنترنت).

وترى "مس كيتن تومسون" (Miss Caton Thompson) أن انفصال جنوب غربي بلاد العرب عن إفريقيا الشرقية قد حدث في حقبة البليستوسين، أي قبل مليون عام على أقل تقدير، وإنها تعتقد أن آلات الظران (حجر الصوان) التي عثرت عليها في حضرموت تشبه كثيراً آلات الظران التي عثر عليها الباحثون في شرق إفريقيا. وفي رأيها أنه كانت توجد في شرقي إفريقيا ثقافة مركزية تفرعت منها ثقافات متعددة ليس في إفريقيا وحدها بل في آسيا أيضاً. وتدلل "مس تومسون" على نظريتها في انفصال إفريقيا عن آسيا بأنه لا يوجد بين أدوات الظران التي عثر عليها في جنوبي بلاد العرب بعض الأدوات المعروفة من العصور الحجرية القديمة (باليوليتية)، والتي كانت منتشرة في تلك الأيام على طول إفريقيا الشرقية من الشمال إلى الجنوب.

ولم يقبل "د. حزين" هذه النظرية، وهو يرى أنه إذا كان لابد لنا من البحث عن أي الجهتين، شرقي إفريقيا أو جنوبي بلاد العرب، أقدم ثقافة فإنه يميل إلى اعتبار بلاد العرب هي الأقدم، وأن الثقافة قد انتقلت منها في العصور الحجرية القديمة إلى شرق إفريقيا[1].

إن الأخذ بهذه المقولة يبدو سليماً من الناحية العلمية، خصوصاً إذا أدركنا طبيعة الحركية الديمغرافية مع الظروف والشروط البيئية والطبيعية. وذلك لأن اليمن وعدن كانتا في تلك العصور الحجرية القديمة مأهولتين بالسكان، وأن قسماً من هؤلاء السكان قد هاجر إلى عُمان ومناطق الخليج العربي، كما هاجر قسم آخر ـ عن طريق مأرب ونجران ـ إلى شبه جزيرة سيناء، وإلى فلسطين والأردن، بينما ذهب فريق ثالث عن طريق باب المندب إلى ـ الصومال وكينيا وتنجانيقا[2].

---

(1) (فخري) د. أحمد، دراسات في تاريخ الشرق القديم، ط4، مكتبة الأنجلو المصرية، دمشق، 1984، ص (123-124).

(2) (علي) د. جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، دار العلم للملايين ـ بيروت، مكتبة النهضة ـ بغداد، 1976، ص 532.

هذا وقد استمرت هذه الهجرات إلى السواحل الإفريقية، حتى في العصور التاريخية، ومن ثم رأينا اليمنيين يهاجرون إلى أفريقية، وبمرور الزمن أخذ اليمنيون يستقرون هناك ثم سرعان ما لعبوا دوراً خطيراً في إرساء قواعد حضارة وثقافة تنبثق من صميم الحضارة اليمنية، وهكذا بدأ اليمنيون يتجهون نحو أفريقية منذ وقت مبكر، على دفعات متعددة، وفي أوقات مختلفة. فإذا كنا قد ناقشنا عروبة الشطر الشمالي من وادي النيل إلى مصر في الفصل السابق، فعلينا هنا مناقشة الشطر الجنوبي لوادي النيل، وهو ما أطلق عليه إثيوبيا.

إثيوبيا، إن كلمة إثيوبيا - التي تسمى بها بلاد الحبشة اليوم، والتي كانت تطلق في أحيان كثيرة على الشطر الجنوبي لوادي النيل - يونانية ومعناها الوجة المحترق. وقد أطلقها اليونانيون في القديم على سكان المناطق الواقعة في جنوب القطر المصري، لأن وجوههم كانت سوداء كالمحترقة من شدة الحرارة. وكانت تعني بنوع خاص المناطق التي تبتدئ من الشلال الثاني في وادي حلفا إلى الجنوب. وكان المصريون إلى هذا يطلقون أحياناً اسم كوش وبلاد كوش والكوشيين على أهل هذه المناطق، وخاصة على بلاد النوبة والسودان؛ وكانت التسميتان تترادفان أحياناً كثيرة[1].

إن هناك إجماعاً بين الدارسين على هجرة هؤلاء من جنوب جزيرة العرب إلى الساحل الإفريقي من البحر الأحمر في وقت ما خلال القرن العاشر قبل الميلاد على أبعد تقدير. ونحن لا نعرف أسماء هذه القبائل التي هاجرت في هذا التاريخ المبكر، ولكننا نعرف أن أهم هذه الهجرات التي تمت في مراحل لاحقة كانت تضم قبيلة حبشت والأجاعز. وإذا كان الأمر واضحاً بالنسبة للقبيلة الأولى (ح ب ش ت) التي ترد كثيراً في النقوش الجنوبية المتأخرة، وصارت تطلق على الساحل الإفريقي من البحر الأحمر[2] فتسمية (الحبشة) نسبة إلى قبيلة

---

(1) (حسن) د. سليم، مصر القديمة، الجزء الثالث عشر، مكتبة الأسرة، مصر، 2001، ص 494.

(2) (الشيبه) د. عبد الله حسن، دراسات في تاريخ اليمن القديم، ط1، مكتبة الوعي الثوري للطباعة والنشر والتوزيع، تعز، 2000، ص 170.

(حبشت) الذين كانوا في الأصـل جماعـات عربيـة يمنيـة تعـيش عـلى الـساحل الجنوبي للجزيرة العربية شرق حضرموت، ثم هـاجرت غربـاً، وعـبرت مـضيق باب المندب، واستوطنت المناطق المقابلة لليمن عـلى سـاحل البحـر الأحمـر مـن القارة الإفريقية[1].

أما قبيلة الأجاعز، فإن الباحثين يختلفون حولها، بـل حـول الاسـم نفـسه الذي أطلق فيما بعد أيضاً على اللغة الحبشية، إذ تسمى باللغة الجعزيـة، ويـرجح اليوم بعض الدارسين، أن هذا الاسم كان يطلق على قبيلة كانت تـسكن المنطقـة المحيطة بعدن الحالية، والتي يسميها "بلينيوس" (Plinus Secundus) في كتابه ـ التاريخ الطبيعي ـ (Cesania (Historia Naturalis[2].

ويشير "أحمد حسين شرف الدين" إلى أن: من أقدم المهاجرين إلى الحبـشة قبيلة الأجاعز التـي هـاجرت في القـرن الخـامس قبـل المـيلاد ولا تـزال لغـتهم المعروفة بالجُعزية معروفة إلى الآن. وهي لغة سامية [جزرية بمفهومنا]، وقلمهـا هو المسند المعروف مع تحريف بعـض الحـروف، ويوجـد الكثـير مـن الكلـمات الحميرية في لغة الـسكان حاليـاً بـالرغم مـن طغيـان اللغـة التيقريـة والأمهريـة والقراجية والهررية عليها[3].

والمتفحّص لتسمية الأماكن والأنهار والتضاريس منذ فجر التاريخ وحتى الآن، يدركُ أن الحبشة كانت العتبة التي وطأتها أقـدام العـرب في انتقـالهم الـلا متقطع باتجاه القسم العربي مـن أفريقيـا، فيكتـشف أن أسـماء تلـك الأمـاكن في الجانب الإفريقي من أصل يمني مثل: سبأ، سَحرت، هَوزن، سراة، مأرب.

والرأي الراجح أن كوشيي التوراة كانوا من شعوب جزيرة العرب الذين هاجروا في وقت ما إلى السواحل الغربية للبحر الأحمر عبر مضيق بـاب المنـدب،

---

(1) (سالم) د. السيد عبد العزيز، تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسـكندرية، 1973، ص 59

(2) دراسات في تاريخ اليمن القديم، مصدر سبق ذكره، ص 170.

(3) (شرف الـدين) أحمـد حـسين، الـيمن عـبر التـاريخ، ط1، مطبعـة الـسنة المحمديـة، القـاهرة، 1963، ص 71.

وأقاموا دولتهم فيما عرف تالياً بالحبشة، ومن المعروف أن الأخيرين قاموا بمحاولات غزو مستمرة لجزيرة العرب محاولين ضم وطنهم الأصلي إلى بلادهم الجديدة.

ففي عام 1681 أعرب "هيبوب لودولف" عن وجهة نظره بأن حضارات الحبشة يمكن إرجاعها إلى مهاجرين قدموا من اليمن، استناداً إلى التشابه بين لغة البلدين ووجود عناصر مشتركة في دياناتهما وعاداتهما القديمة، والتشابه في الملامح والهيئة، وأشار "لودولف" على وجه الخصوص إلى أقوال الجغرافيين القدامى. فقد أورد أحدهم "ستيفانوس البيزنطي" فقرة من العربية (Arabic) من تأليف "أورانيوس" عرَّف فيها الأحباش بأنهم من أصل عربي قدموا من إقليم يقع وراء سبأ وحضرموت. وأعرب "لودولف" عن اعتقاده بأن اسمهم لابد أن يُخفي اسم الأجداد العرب للأحباش. إلاَّ أنه لم يتمكن من تحديد الموضع الذي قدموا منه من اليمن، ويبدو أنه حسبهم قدموا من تهامة على ساحل اليمن. كما أنه لم يتوصل إلى تحديد هجرتهم من اليمن واكتفى بالقول إنها هجرة قديمة منذ ما قبل ميلاد المسيح.

وقد أخذت الأصول العربية للثقافة الحبشية طابع الحقيقة المسلَّم بها بعد أن قام النمساوي "د. هـ. ملر" سنة 1893 بنشر قطع من سبعة نقوش كتبت بحرف جنوب الجزيرة العربية "المسند" عُثر عليها في بلدة يحا Yaha على بعد خمسين كيلو متراً شرقي أكسوم على الطريق المؤدية إلى ميناء أوولیس "عدولي" القديم.

وفي عام 1962 نشر الباحث الفرنسي "دروز" (Drewes) دراسة تحليلية للنصوص الحبشية في كتاب صدر في ليدن بعنوان "نقوش من الحبشة القديمة". ومن أهم النقاط التي أثارها، تلك المتعلقة بهوية الشعب الذي أدخل ثقافة جنوب الجزيرة العربية إلى الحبشة، وبالتالي أصبح مقبولاً بأن حبشت كانت في الأصل قبيلة من جنوب الجزيرة العربية عبرت في وقت مبكر - قبل القرن الخامس قبل الميلاد بزمن طويل- البحر الأحمر، واستقرت بادئ الأمر على

ساحل أرتيريا "سهل سمهر" وتسربت تدريجياً إلى أقاليم المرتفعات في الـداخل الحبشي حول يحا وأكسوم.

أما المستشرق الإيطالي "كـونتي روسـيني" فـيرى أن شـعب الحبـشة قـدم إلى أفريقيا من ساحل اليمن أو عسير، مما يسهل لقربه عملية العبـور إلى سـاحل أرتيريـا. وهو يرى أن أحد المواطن الرئيسية لحبـشت كـان بمقاطعـة سـحرمّان القديمـة، وفي هذه المنطقة يوجد جبلان يحمل أحدهما اسـم "حـبش" ويحمـل الجبـل الآخـر اسـم "جيش" ويقعان على وجه التحديد على مقربة من لحيّة حوالي سبعين كيلومتراً شـمال غربي الحديدة، ما بين وادي بيش ووادي سردود. كما يـرى "روسـيني" أن مقـاطعتي سحرت وهوزين في إقليم تيجري شمال الحبشة تقابلان سحرتان وهوزن في اليمن.

ويفترض "روسيني" أن بعض هؤلاء الحبشت كان قد هاجر قبـل القـرن السادس قبل الميلاد إلى الحبشة، حيث قامت على يديه أولاً حضارة مركزها يحـا، ثم حضارة أكسوم، ولكن بعضهم بقي في موطنه الأصلي وظل يحتفظ بعلاقـات تجارية وسياسية مع النازحين[1].

وفي ذلك يقول المستـشرق "ديتلـف نيلـسن": "لـيس الـساميون [الجزريـون بمفهومنا] الذين خلفوا لنا في بلاد الحبشة آثاراً وآداباً هم الذين مـازالوا حتـى اليـوم يقيمون في بلادهم العنصر الأصلي الذي يتكون منه السكان الأصليون فيها، بـل هـم فيما يُعتقد أولئك الذين هاجروا إليها من بلاد العرب، وذلك لأن لغـتهم عبـارة عـن لهجة عربية جنوبية، وما تزال إلى اليوم قريبة من العربية، بـالرغم مـن وجـود بعـض العناصر الحامية فيها، أما اللغة، أما الخط، أما الثقافة فسبئية منذ البدايـة، وذلـك لأن المهاجرين من بلاد العرب الجنوبية نزحوا إلى البلاد فـيما يظهـر في قـرون بعيـدة قبـل الميلاد، وأسسوا هنالك مستعمرات ووضعوا الأساس لدولة الحبشة التـي أخـضعت فيما بعد في القرن السادس الميلادي بلاد العرب الجنوبية لسلطانها"[2].

---

(1) (الدبش) أحمد، موسى وفرعون في جزيرة العرب، ط1، دار خطوات للنشر والتوزيـع، دمـشق، 2004، ص (66-67).

(2) (نيلسن) د. ديتلف، الديانة العربية القديمة ـ الفصل الخامس من كتاب التاريخ العـربي القـديم، ترجمة واستكمال: د. فؤاد حسنين، مكتبة النهضة المصرية، 1958، ص 31.

وقد جاء في كتاب (تاريخ السودان القديم) للدكتور "حسن كمال" إن المصريين لم ينسوا في وقت من الأوقات بلاد السودان التي كانت طريقهم إلى مصر من بلاد العرب الجنوبية التي ظلت معمورة بأقوام من جنسهم المتحد معهم في العادات والتقاليد واللغة. ومما قاله هذا المؤلف أن سكان بلاد السودان والحبشة خليط من العناصر. غير أن الأبرز والأغلب هو العنصر السامي الآتي من جنوب بلاد العرب أي العنصر العربي حسب اصطلاحنا. وكل ما هنالك أنه كان يطرأ على البلاد قبل طروء العرب، وبعده، عناصر زنجية كانت تمتزج بالقادمين من جزيرة العرب فكان من ذلك السحنة الإثيوبية الخاصة.

وفي السودان والحبشة اليوم، وهما معظم ما كان يسمى إثيوبيا، مئات من المدن والقرى والأنهار والجبال والأقاليم ما تزال أسماؤها تحمل اللمحة العربية القديمة السابقة للإسلام والعروبة الصريحة يمكن أن تكون دليلاً حياً على ذلك[1].

ويرى "كارل بيترز" أن جالية عربية كانت تعيش في المنطقة الواقعة بين نهري الزمبيزي واللمبوبو، منذ الألف الثاني قبل الميلاد، وأن المعبد الكبير في زمببوية بني عام 1100 ق.م، وأن السبئيين كانوا أصحاب السيادة في ذلك الوقت، على أن الأمر، إنما يزداد وضوحاً منذ القرن السادس قبل الميلاد، حيث نزحت جالية سبئية إلى منطقة تعزية في أرتيريا ـ وكذلك إلى هضبة الحبشة ـ مكونة حكومة محلية هناك، ولعل هجرة الأوسانيين إلى السواحل الأفريقية، إنما كانت في الفترة نفسها، حيث اتخذوا من عزانيا مقراً لهم، أضف إلى ذلك كله تلك الهجرة السبئية التي حدثت في القرن الخامس قبل الميلاد[2].

---

(1) (دروزة) محمد عزة، تاريخ الجنس العربي، الجزء الثاني، الموجات العربية إلى وادي النيل ومآثرها فيه قبل طور العروبة الصريحة، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1959، ص 339.

(2)(مهران) د. محمد بيومي، دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بلا تاريخ، ص 198.

أما كيف بلغت الجزرية شمال أفريقية؟ فلنا في ذلك وقفة كشبيهتها التي وقفناها مع الساحل الإفريقي من البحر الأحمر وحتى القرن الإفريقي، يسكن الشمال الإفريقي شعب قويُّ البنية صعب المِراس، عُرف عند المؤرخين القُدامى والمُحْدثين باسم البربر، وهذه التسمية يرويها المؤرخون العرب عندما يتحدثون عنه، وقد اختلف الباحثون في أُصول الشعوب اختلافاً كبيراً في تعْيين الأَصل الذي اشتُقَّ منه هذا الشعب، فمنهم من رده إلى أصل حامي، فهو عندهم كالمصريين القدماء، ومنهم من رده إلى أصل سامي أو يافثي، وجاء الأوربيون حديثاً فزادوا البحث تشعُّباً واضطراباً، سيما المُغرضين منهم، أولئك الذين لم يكونوا يبحثون عن الحقيقة لذاتها، وإنما كانوا يَرمون إلى تشكيك المستضعفين في أنسابهم، ومحْو الاعتزاز بالآباء والأجداد من نفوسهم، إخماداً لِجذوةِ حَمِيتِهم وحَماستهم، وترويضهم على الاستكانة والهوان.

والدارسون المنصفون للشعب البربري لم يوجد بينهم واحد يُنكر أن يكون لبعض البربر مُنتمى سامي [جزري بمفهومنا]، بل أكد العديد منهم أن أكثرية القبائل البربرية منحدرة من الحميريين سكان اليمن. فقد روي عن مؤرخي العرب وعديد من مؤرخي البربر المتعربين من غزو الحميريين لبلاد المغرب في أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد وتخْليفهم بها عند رجوعهم جماعات منهم وفيرة العدد همْ أصل بعض قبائله، ولْنشرْ إلى أحد مؤرخي اليمن، وهو محمد بن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني أشار إلى ذلك في كتابه الحافل المسمى بالإكليل، فإنه لما ذكر قبيلة لمتونة التي منها الأُسرة الملكية المرابطية بالمغرب قال إنها فخذ من صنهاجة، وإن صنهاجة من ولد عبد شمس بن وائل بن حِمْير، وإن الملك أفريقيش بن أبرهة لما ملك حمير خرج غازياً نحو بلاد المغرب وأرض أفريقية، فلما توغل بالمغرب بنى مدينة أفريقية، وهي مشتقة من اسمه، وخلف بها من قبائل حمير وزعمائها صنهاجة ليردُّوا البربر على شاكلتهم ويأخذوا خراجهم ويُدبروا أمرهم. ويقال إن أفريقيش هو الذي سمَّى سكان المغرب بربراً، فإنه لما غزاه بقومه الحِمْيريين

وسمع رطانة سكانه قال ما أكثر بربرتهم، فسموا بربراً، والبربرة في اللغة اللَّغَطُ واختلاط أصوات غير مفهومه[1].

ويرى العلاّمة "ابن خلدون" أن البربر يصلون أنسابهم بأنساب العرب من أهالي اليمن. ولا أستطيع أن أنقل كل ما ذكره العلاَّمة "ابن خلدون" في أنساب البربر، ولكن أنقل ما جاء في الجزء الثاني من تاريخه، قال: "أول التابعة باتفاق المؤرخين الحارث الرائش... ثم ملك بعده ذو المنار... وسمي ذا المنار لأنه رفع المنار ليهتدى به، ثم ملك بعده ابنه أفريقش، وهو الذي ذهب بقبائل العرب إلى أفريقية وبه سميت، وساق البربر إليها من أرض كنعان مر بها عندما غلبهم يوشع وقتلهم، فاحتمل أفريقش الغل منهم وساقهم إلى أفريقية فأنزلهم بها، وقتل ملكها جرجير، ويقال إنه الذي سمى البربر بهذا الاسم لأنه لما افتتح المغرب وسمع رطانتهم قال: ما أكثر بربرتهم، فسُمّوا البربر، والبربرة في لغة العرب هي اختلاط أصوات غير مفهومة، ومنه بربرة الأسد. ولما رجع [أفريقش] من غزو المغرب ترك هنالك من قبائل حمير صنهاجة وكتامة، فهم إلى الآن بها وليسوا من نسب البربر، قاله الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والسهيلي وجميع النسابين"[2].

ومن ثم، فالحديث عن شمال أفريقي جزري لا يبدأ مع دخول الفينيقيين في أوائل الألف الأول قبل الميلاد، وإنما يعود إلى أزمنة أقدم بكثير، وهذا، بدوره، يجعلنا ننظر إلى الشعب الذي أطلق عليه لفظ بربري، على أنه ينتمي إلى الشعوب الجزرية.

ويشير "عبد الوهاب بن منصور" (عضو أكاديمية المملكة المغربية) في دراسته القيمة ـ دلالة المعمار اليمني على عروبة قبائل بربرية ـ إلى أن العلماء

---

(1) (بن منصور) عبد الوهاب، دلالة المعمار اليمني على عروبة قبائل بربرية، مجلة دراسات يمنية، العدد الثامن والثلاثون مجلة فصلية تصدر عن مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، أكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر، 1989، ص (115-116).

(2)(ابن خلدون) عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون، المجلد السادس، الجزء الثاني، مطبعة بولاق، مصر،بلا تاريخ، ص 51.

المحدثين عندما أخضعوا أصل البربر أو أصولهم للمقاييس العلمية الخاصة بهم كلون البشرة ونوع الشعر وشكل الجمجمة وبنية الجسم، مضافة إليها اللغة والموسيقا والمعمار والعادات والمعتقدات وجدوا بيْن بعض قبائل البربر وقبائل العرب في اليمن وحضرموت شبهاً كبيراً مالوا معه إلى تصديق ما يَرويه كثير من نسابة العرب والبربر ومؤرخيهم عن عُروبة الأرومة البربرية، فشكل الإنسان في بعض القبائل البربرية شديد الشبه بشكل الإنسان العربي في اليمن وحضرموت، كما أن الشبه قوي بين اللهجات البربرية وبين اللغة العربية من حيث الاشتقاق وتصريف الكلمات ووجود حروف الحلْق مجتمعة، وهي لا تجتمع إلا في اللغات السامية [الجزرية]، ويشتد التشابه على الخصوص بين اللهجات البربرية وبين لغة المهرة في غرب سلطنة عُمان.

ومثل هذا التشابه يوجد أيضاً في الموسيقا، فالرنَّات والألحان في موسيقا الجنوب العربي وأغانيه، وكذلك التصفيق الرتيب المُصاحب بالأيدي، تُشبه كلها الرنّات والألحان في موسيقا وأغاني القبائل البربرية بالجنوب المغربي، وكذلك طريقه الأداء والإنشاد، وقد درس كل ذلك العالم الألماني كارل ولهم لخمان (1793-1851م) دراسة مستفيضة، والموسيقي النمساوي فون هورن جوستل (1877-1935 م)، وتفطن له الرحالة الألماني هانز هولفريتز وأشار إليه بإسهاب في كتابه المُعنون باليمن من الباب الخلْفي.

ولكن الذي لفت نظر الباحثين والدارسين المُعاصرين الذين يعتمدون على الأدلة العلمية والمقاييس العقلية واستدلوا به على عروبة بعض قبائل البربر في شمال أفريقيا هو تشابه المعمار اليمني والمعمار البربري وتطابقهما، فقد قارنوا بين المباني العالية الموجودة في جنوب الجزيرة العربية وبين المباني العالية في قلب الحضارة البربرية بأعالي جبال الأطلس فلم يجدوا بينهما فرقاً، فالمباني في الجهتين معاً تحمل المظاهر المعمارية والسِّمات الهندسية نفسها، كالنتوءات والأنابيب الخشبية لصرف مياه الأمطار والكوات والثقوب، حتى إنك لو سكنت برهة من الزمان قلعة من قلاع جبال تعز وصعدة أو صرحاً شامخاً من صروحها ثم

انتقلت فجأة إلى قلعة من قلاع أمزميز وتلوات بجبال الأطلس الكبير بالمملكة المغربية لتخيَّلْت أنك لا تزال في مسكنك الأول، الشيء الذي يؤكد الاعتقاد بصحة ما يُردده كثير من مؤرخي العرب والبربر ونسابيهم من انحدار البربر أو بعض من قبائلهم من أرحام يمنية[1].

وفي ذلك يقول "د. طيب تيزنيي" في موسوعته ـ مشروع رؤية جديدة للفكر العربي منذ بداياته حتى المرحلة المعاصرة، الجزء الثاني، الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى ـ ما يلي:"هكذا، إذن، نجد أنفسنا أمام فكرة أوليه محورية: أن البربر ذوو جذور ترتد إلى مصادر سامية [جزرية بمفهومنا]، بالمعنى اللغوي على الأقل. وهذا يوصلنا إلى وجه أخر من المسألة، ذلك هو أن صلة شمال أفريقية بالعالم السامي [الجزري بمفهومنا] لا تبدأ مع نزوح الفينيقيين إلى هناك وتأسيسهم مستوطنات خاصة بهم (قرطاجة خصوصاً) في القرن السابع قبل الميلاد، كما يعلن جميع المؤرخين والباحثين. أن تلك الصلة تغدو، ضمن ذلك المنظور. أكثر قدماً. بل إنها تبدو بنوعية أخرى تتحدد بكون البربر أنفسهم ساميين [جزريين بمفهومنا]، أو ذوي جذور سامية [جزرية بمفهومنا][2].

(1) دلالة المعمار اليمني على عروبة قبائل بربرية، مصدر سبق ذكره، ص 118.

(2) (تيزينيي) د. طيب، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي منذ بداياته حتى المرحلة المعاصرة، الجزء الثاني، الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى، ط1، دار دمشق، دمشق، 1982، ص 67.

الفصل التاسع عشر

بحثاً عن أوربا العربية

لقد وضعت نظريات الكتاب الفينيقيين في كل مكان، فقد اعتُبر النـوارج (Les Nouraghes) في سردينيـا فينيقيـين. والبربـر في أفريقيـا الـشمالية كـانوا فينيقيين، وجزيرة مالطا فينيقية. والأمازون كان بلد الـ(بونت / Pount)، وجزر الأنتيل كانت كلها أسماء فينيقية، ومدينة تـور (Tours) كانـت مرتبطـة بـروابط غامضة مع مدينة صور، كما أن الـ (بيغوديين / Les Bigoudens) كان يُتوقـع أن يكونوا شرقيين، والبعض يرى أن البنادقة كانت لهم روابط قربى مع الفينيقيين.

في استعراض أسباب التوسع الفينيقي تطالعنا أسطورتان هما: اختطاف جوبيتر لأوربا، ومغامرات قدموس، ذلك البنّاء النشيط الذي بنى مـدناً عـلى سـواحل البحـر المتوسط.فقبل التعرض لأسباب التوسع الفينيقي. **نتساءل من أين جاء اسم أوربا!؟**

سؤال طرحه المؤرخ "هيرودوتس" على نفـسه، وأجـاب عليـه بقـدر مـا وصلته علوم عصره الجغرافية بقوله: "وأما أوربا، فلا يعرف أحد هل يحـيط بهـا البحر. ولا يظهر أيضاً أنهم عرفوا من أين أخذت اسمها ولا من سـمَّاها بـه؛ إلا أن نقول أنها سميت باسم أوربا الصورية. والمحقق أن أوربا كانت آسيوية، وأنها لم تأت قط إلى هذه البلاد التي يسميها الأغارقة الآن أوربا. ولكنها مـضت فقـط من فينيقية إلى كريت ومن كريت إلى ليكيا"[1].

---

(1) هيرودوتس، تاريخ هيرودوتس الشهير، ترجمة عن طبعة لارشي الفرنـسي: حبيـب أفنـدي بـسترس، مجلدين، مطبعة القديس جاورجيوس، بيروت، 1886 ـ 1887، ص 278. [نسخة مصور]

تقول القصة – الأسطورة إنه في إحدى ليالي الربيع المقمرة. والأرض موشاة بأجمل الزهور يفوح عبيرها في أجواء سورية الساحرة. كانت الأميرة السورية أوربا بنت آجينور ملك صور ترقد في سريرها. لكن كابوساً أزعجها وأقلق نومها. إنها لم تحلم بإله أحبها، بل بامرأتين [قارتين] تتنازعان ملكيتها. رأت القارتين في هيئة امرأتين: آسيا، تقول إني أملكها لأني أنا ولدتها، والأخرى تقول ـ ولا نعرف اسمها ـ إنها ستملكها، لأن الرب زيوس سيهبها لها، وقد وعدها بذلك.

أفاقت الصبية الأميرة باكراً مع الفجر. وكثيراً ما حققت الآلهة أحلام الفجر. نادت صديقاتها ولداتها من الأميرات النبيلات. وخرجت الصبايا في نزهة بين المروج ليس بعيداً عن شاطئ البحر. وبقرب مصب أحد الأنهار. كانت كل صبية منهن تحمل سلة لتجمع فيها الزهور. وكانت سلة "أوربا" من قصب الذهب تزخرفها النقوش والصور مصورة لمشاهد من حياة الآلهة. منها صورة الربة "إيو" وقد مسختها غيرة "هيرا" إلى بقرة. ويقترب منها زيوس. ويمد يده المقدسة ليعيدها امرأة كأجمل ما تكون النساء. وكم كانت جميلة سلة أوربا الذهبية. ولم يكن أجمل منها إلا تلك الأزهار التي ملأتها وفاح عبيرها: كان منها النرجس والخزامى والبنفسج وزهور البرية الحمراء. كانت الصبايا يتنقلن كالنحل من زهرة إلى زهرة يملأن السلال، وكل واحدة منهن آية بين البنات، لكن أجملهن جميعاً كانت أوربا، وكأنها عشتار في فتنتها.

في الأعالي كان زيوس يستلقي متكاسلاً يرقب ما يجري على الأرض. وما إن رأى الصبايا على المرجة، ولمح فتنة أوربا، حتى لعبت أفروديت وإيروس لعبتهما. وأطلقا سهماً في قلب زيوس فألهباه بحب أوربا، وكأن هيرا كانت في غفلة عما يفعل زوجها. إنها الربة الزوجة الغيور التي كان من ضحاياها الكثيرات ممن أحبهن زيوس بسرعة. تقمص زيوس شكل ثور قبل أن يظهر نفسه لأوربا. لقد كان الثور الإلهي أجمل من أي ثور، كستنائي اللون، تحيط بقرونه دوائر فضية كالهلال في مطلع الشهر. كما بدا لطيفاً وديعاً، فما تخشاه

الصبايا، بل تجمّعن حوله يداعبنه، ويتشممن منه العطر السماوي الأزكى من عطر الزهور.

اقتربت منه أوربا، وما إن لمسته حتى أطلق خواراً موسيقياً أجمل من عرف قيثار، وانحنى أمامها، فاعتلت ظهره العريض. نادت رفيقاتها، لكن الثور نهض فجأة، وقفز بها نحو البحر، ثم راح يركض فوق الماء والموج ينخفض أمامه. وكأن البحر قد أصبح سهلاً، وخرجت من الأعماق جماعة من آلهة البحر تركب الدلافين وتصوت بالأبواق، يقودهم بوزيدون بنفسه، وهو إله البحر وشقيق زيوس.

خافت أوربا من المخلوقات البحرية العجيبة، ومن عمق المياه تحتها، فتشبثت بأحد قرنيه بيد، وأمسكت رداءها باليد الأخرى، وقد نفخته الريح كأنه الشراع. فكرت أوربا ما عساه يكون هذا الثور، ورجته ألا يتركها تسقط في المياه. فهم زيوس أفكارها، وتكلم الثور وطمأنها قائلاً: "إن فكرك صحيح، فأنا زيوس أعظم الأرباب، وقد دفعني حبي لأصنع ما ترين".

لقد اختطفها وذهب بها إلى جزيرة كريت. إنها جزيرته، والأرض التي خبأته فيها أمه عندما هربته من أبيه كرونوس. وصلا إلى كريت، وقفز الثور إلى اليابسة، والتقى الحراس والأعيان في حفل الزفاف. لقد أنجبت من زيوس أولاداً أشهرهم "مينوس" و"رادامنتوس". وقد اشتهر "مينوس" و"رادامنتوس" بالعدل فأوكل إليهما محاكمة الأموات. لكن اسم أوربا بقي أشهر الأسماء.

عندما اختطف الثور أوربا جمع آجينور أولاده: فينيق، وقدموس، وكيليك، وجاليان، وأمرهم بالبحث عنها في كل مكان، وألا يعودوا من دونها. هام الأشقاء الثلاثة على وجوههم يبحثون في كل مكان دون جدوى، إلى أن أخذ اليأس يدب في قلوبهم، وانقطع لدى بعضهم أمل اللقاء ثانية بشقيقتهم أوربا. فاستقر كيليكس في أرض هي أبعد إلى الشمال فعرفت باسم كيليكيا نسبة إليه، واستقر فينيق في الشمال على الساحل فعرفت البلاد باسم فينيقيا نسبة إليه، أما قدموس فلم ييأس، بل فكر وذهب إلى معبد دلفي واستشار الرب أبولو.

أجاب أبولـو: "لا تجهـد نفـسك بالبحـث عنهـا والالتـزام بـأمر والـدك بالبحث عنها، وبألا تعود من دونها. بل أسـس لنفـسك مدينـة جديـدة. عنـدما تخرج من هنا ستجد عجلة فتتبعها إلى حيث تتوقف العجلة لتستريح، هناك تبني المدينة". هكذا أسس قدموس قلعة قدميا ومدينة ثيبـا (طيبـا) بمـساعدة خمـسة فصائل من عشيرة الآخيين الذين كانوا قد سبقوه إلى هناك من سورية. وسـميت المنطقة المحيطة بها أرض بويوثيا أي أبناء العشيرة[1].

نفهم من ذلك أن حكاية قدموس قد انطلقت من فكرة اختطـاف أوربـا. وقد أكدت المكتشفات الأثرية واقعية هذا البطل. فـ"التنقيبـات الآثاريـة التـي بدأت عام 1963 بينت أن المدينة طيبا قد دمرت في أواخـر القـرن 13 ق.م كـما ألقت ضوءاً على القصة القائلة بأن قدموس قد أتى من سـورية إلى تلـك المنطقـة قبل الإسبارطيين بعدة أجيال. وقد وجدت في طيبا مجموعة من الأختام السورية في الطبقة المحروقة منذ أن هدمت المدينة تعود إلى القرن الرابع عشر قبل المـيلاد، ويرجح الباحثون أنها تعود لعائلة قدموس الملكية. كـما نـسب لقـدموس أيـضاً إدخال عبادة أثينا إلى بـلاد اليونـان بعـد أن أقـام مـذبحاً في طيبـا. وأن الكـاهن البيروتي "سانخونياتن" (كما ذكر فيلون الجبيلي)ذكر أن الربة أثينا هـي ابنـه إيـل (ومثل عناة البتول المحاربة كانت أثينا بتـولاً)، وأن الميثولوجيـا الإغريقيـة هـي وحي فينيقي"[2].

وسنشير إلى فكرة أساسية في هذا الصدد وهي: فكـرة تـرويج الأبجديـة التـي ابتكرهـا الفينيقيـون واتخـذها اليونـان. وفي ذلـك يقـول "هـيرودوتس": "والفينيقيون الذين صحبوا قدموس، وكان من جملـتهم الجيفريـون، أدخلـوا في إغريقيا مدة إقامتهم في تلك البلاد عدة معارف، ومن جملتها الحروف التي كانت على رأيي مجهولة سابقاً في تلك البلاد. استعملوها أولاً عـلى طريقـة الفينيقيـين،

---

(1)(داود) د. أحمد، تـاريخ سـوريا القـديم تـصحيح وتحريـر، ط2، دار الكاتـب العـربي، دمـشق، 1997،ص (707-709).

(2) المصدر نفسه، ص 711.

لكن مع مضي الزمن تغيرت تلك الحروف بتغير اللغة، وصارت ذات صور جديدة. وكان اليونان حينئذ أهل البلاد المجاورة، فاتخذوا تلك الحروف لَّما علمهم إياها الفينيقيون، لكنهم غيروا فيها بعض التغيير، وكانوا يعترفون عن طيب خاطر، وكما يقتضي العدل أنهم سموها بالحروف الفينيقية"[1].

لقد اعترف اليونانيون بحقيقة أن بلادهم الأصلية هي فينيقيا. فقد كتب أحد شعراء اليونان عن المفكر والفيلسوف السوري "زينون" مؤسس المدرسة الرواقية في الفلسفة، على قبره في أثينا ما يلي:

"وإذا كانت بلادك الأصلية هي فينيقية

فهل يجب أن يضيرك هذا بشيء؟

ألم يأت قدموس من هناك

الذي أعطى اليونان كتبها وفن كتابتها؟"[2]

وفي قبرص أقر الصوريون [السوريون] سيادتهم في كيتيون، ومنها مدوا سيادتهم إلى إيداليون، وتماسوس، ولايثبوس، ولارناكا، وأحاطت مؤسساتهم بالجزيرة من كل طرف كما يحيط الحزام بالشيء. ولم تقتصر صفة المؤسسات على أن تكون مستودعات للبضائع بل كانت سياسية أيضاً، فإن بعض نقوش القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد تشير إلى قيام ملوك فينيقيين في كيتيون وإيداليون[3].

وعندما اتجه قدموس، رائد الانتشار الثقافي إلى **رودس**، كان يحمل معه بلا ريب الأبجدية الفينيقية وتصاميم المعابد التي كان يروق له تأسيسها في كل مكان تقريباً على طريق رحلته البحرية، وهذا ما يشير إليه نص "ديودور الصقلي" الذي يقول: "في هذا العصر كان دانايوس يبتعد عن مصر برفقه بناته وقد بلغ شاطئ ليندوس. حدث هذا بعد أن رسا قدموس في رودس أثناء بحثه

(1) تاريخ هيرودوتس الشهير، مصدر سبق ذكره، ص 354.

(2) (خليف) د. بشار، دراسات في حضارة المشرق القديم، ط1، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 2003، ص (136-137).

(3) (ج. كونتنو)، الحضارة الفينيقية، ترجمة: د. محمد عبد الهادي شعيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997، ص 104.

عن أوربا بأمر من أبيه آجينور. وهبت عليه أثناء سيره عاصفة هوجاء، فنذر أن يبني بعد انقضائها معبداً في نيبتون. وهكذا شيد هذا المعبد في جزيرة رودس وترك بعض الفينيقيين ليقوموا على خدمته، وقد اختلط هؤلاء مع السكان المحليين وشاركهم في الحياة العامة ومن بينهم اختير رجال الكهنوت. كما قدم قدموس القرابين للآلهة مينرفا (Minerva). وكان بين ما قدمه حوض جميل مصنوع بالأسلوب القديم ويحمل نقشاً كتب بحروف فينيقية يقال إنها جاءت من فينيقية إلى اليونان"[1].

وكذلك نزل الفينيقيون في **جزيرة كريت** وجزر الإسبوارد والكيكلاد [وهي جزر الأرخبيل] على قول "توسيديد"[2].

أنه من المثبت تاريخياً أن جزيرة كريت قد شملتها عمليات استيطان بواسطة اليمنيين [فينيقيون أو معينيون]، وقاموا بتأسيس الحضارة المينوية (Minoans) في كريت، فقد أشارت المصادر والدراسات إلى علاقاتهم باليمن منذ وقت مبكر، إذ يذكر "د. بافقيه"، نقلاً عن المؤرخ الروماني "بليني" (Pliny) أن المعينيين قد انتشروا في أرجاء العالم القديم. وربط بعضهم بين المعينيين والمينويين سكان كريت القدامى، وقالوا برابطة دم بين الفريقين[3].

ويؤكد البحاثة الأثري الفرنسي "هيلير دو بارانتون" (Hilaire de Baranton) في كتابه ـ الإيتروسكيون في غربنا وفي أصولنا الفرنسية ـ (Les Etrusques en Notre Occident et nos Origines Francaises) ما انتهينا إليه، قائلاً: إنَّ "الإيتروسكيين" هم فرع من الفينيقيين السوريين، وإن "الفلسطينيين" هو أحد أسمائهم، وإن معنى "الإيتروسك" في اللغة المصرية القديمة هو "بحارة النيل"، وإن معنى "الفلسطينيين" هو الجنود المحاربون.

(1) (مازيل) جان، تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، ترجمة: د. ربا الخش، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 1998، ص 85.
(2) الحضارة الفينيقية، مصدر سبق ذكره، ص 105.
(3) (بافقيه) محمد عبد القادر، تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1985، ص 28.

وزاد الباحث على ذلك فقال عن هؤلاء الفينيقيين السوريين إنهم يحملون أسماء كثيرة مختلفة، وذلك تبعاً لمهنهم أو لعقائدهم، ثم أخذ يعدد هذه الأسماء ومنها "الفلسطينيون" عملاً بمهنتهم الحربية[1].

وفي عام 1980، كتب باحثٌ آخر هو الأستاذ "مايكل غرانت" (M. Grant) كتاباً عن الإيتروسكيين وكانوا عنده، في خلاصة القول، ينحدرون من أصل كنعاني [فينيقي][2].

ويقدم "ف. لينورماند" (F. Lenormand) في مؤلفه المسمى (أسطورة قدموس والمنشآت الفينيقية في بلاد اليونان) الإيضاحات التالية: "... انطلاقاً من كريت بعد ذلك للوصول إلى مناطق نفوذهم ومراكزهم التجارية، كان أبناء كنعان [الفينيقيون] يتوغلون في بحر إيجة وعلى السواحل اليونانية..."[3].

وفي الجزء الجنوبي من ساحل **دلماسيا** يحتمل أن يكون قدموس قد أسس مدينة ساحلية تدعى (ابيدوروس / Epidauros) وأخرى تدعى (بوتوي / Butoe). إذ تذكر الحكايات الميثولوجية التي تصف قدوم قدموس وزوجته هارمونيا (Harmonia) سواحل إيلليريا (Illyria)، وفي هذا المكان يقال أن قدموس أسس (ابيدوروس / Epidauros) و(بوتوي / Butoe) التي تحققت بسهولة من أنها هي (بودفا / Budva) الحالية.

وتتابع الأسطورة أن قدموس بعد هاتين المدينتين الساحليتين قد حارب أهل إيلليريا، وأن الإيلليريين توجوه ملكاً. وتتابع الأسطورة أن ابنا لقدموس ولد في هذه الأماكن ويدعي إيلليريون (Illyrion) وقد أرضعته أفعى.

استناداً للأسطورة يفترض إذاً أن يكون إيلليريون ابن قدموس الفينيقي هو السلف الأول لشعب السلافيين على ساحل دلماسيا. لكن الحكاية

---

(1) (الدواليبي) د. محمد معروف، دراسات تاريخية عن مهد العرب وحضارتهم الإنسانية، ط 2، دار الكتاب اللبناني، 1983، ص (129 ـ 130).

(2) (خشيم) د. على فهمي، آلهة مصر العربية، المجلد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص 44.

(3) تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، مصدر سبق ذكره، ص 94.

الأسطورية تحاول عدم إبراز الأصل الأجنبي [الفينيقي] لـ(إيلليريون) هذا عندما تقول إن أفعى قامت بإرضاعه، معتبرة بذلك أن الأفعى بمثابة العنصر المحلي [الأهلي] الذي يعطي لـ(إيلليريون) صفة محلية. عدا عن أن الأسطورة تقول أن قدموس وهارموني تحوّلا أخيراً إلى ثعبانين وأن مآثرهما كانت قد انتهت هنا.

ولكن في المياه الصافية للساحل الدلماسي ما بين (سيفي ستيفان / Sevi Stephan) و(بودفا / Budva) بالتحديد توجد جزيرتان صغيرتان توحيان بالخط المتموج للثعبان، وقد يكونان، كما قيل لي الدلائل المرئية والمحسوسة لخلود قدموس [أب الكتابة الفينيقي] وزوجته هارموني[1].

ولم يقف تقدم الفينيقيين عند هذا الحد. فقد نزلوا أيضاً في صقلية واتخذوها محطة ينتفعون بها في أسفارهم الخطيرة إلى أعمدة هرقليس، وقد نزلوا خاصة في بانورموس (بالرمو) وسولئيس (سولونت) وفي موتيا. ومواضع هذه المدن الثلاث الصقلية مواضع اختاروها في عناية بالغة مسترشدين بما يجدون فيها من المنافع. وكانت بانورموس في بطن أحد الخلجان، وسولئيس عند أحد الرؤوس وموتيا على جزيرة في بطن الخليج الواقع شمال رأس ليليبية[2].

لقد أكد ذلك "توكيديدس" (Thukydides) في القرن الخامس قبل الميلاد، إذ نقرأ عنده: "... انتشر بعض الفينيقيين أيضاً في صقلية محتلين تلك البروزات الساحلية التي حصنوها وجزراً صغيرة مواجهة لها، وذلك ليجعلوا من أنفسهم أسياد التجارة التي كانوا يمارسونها مع صقلية. لكنهم عندما رأوا جماعات كبيرة من الإغريق تأتي إلى الجزيرة تخلوا عن قسم كبير من الأماكن التي كانوا قد حلّوا فيها وتجمعوا في أماكن أخرى فسكنوا في (موتيي [موتيا]/ Motya)، و(بانورم [بانورموس] / Panorme) و(سولويس [سولئيس] / Soloeis) إلى جوار (إليمس / Elymes) وتحالفوا مع سكان هذه المواقع اعتقاداً

(1) **تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، مصدر سبق ذكره، ص 96.**
(2) **الحضارة الفينيقية، مصدر سبق ذكره، ص 106.**

منهم أن هذه الجهة هي أقرب ما يكون بين صقلية وقرطاجة. أولئك هم الغرباء الذين سكنوا صقلية وأقاموا منشآت فيها....". وقد أيد هذه المعلومات "ديودور الصقلي"[1].

أما **مالطة** وجولوس أو (جوزه / Gozzo) فهي جزر واقعة في عرض البحر صالحة للأساطيل لتكون مرافئ ارتفاق عند المرور من شرقي البحر الأبيض إلى غربه.ويقول "ديودور" إن الفينيقيين استقروا بهاتين الجزيرتين وكذلك نزلوا في جنوب سردينيا وفي جزيرة أفيسا. واتخذوها كمحطات لهم في طريقهم إلى مؤسساتهم الأسبانية[2].

وهذا يدفعنا إلى مناقشة موضوع ساخن يستقطب انتباه كثير من الكتاب والباحثين، وهو **إلى أي جنس ينتمي المالطيون!؟** فقد كان البعض يظنون أن الفينيقيين هم أول من استعمر الجزيرة بمعنى أنها كانت غير آهلة بالسكان قبلهم، لكن وجود معابد تعود إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد يؤكد وجود حضارة في هذه الجزيرة سابقة على الوجود الفينيقي فيها لأن صلة هؤلاء بغرب البحر المتوسط لم تبدأ قبل عهد الأسرة الثامنة عشرة في مصر، أو هي لم تبدأ على أرجح الفروض مأهولة عندما جاءها الفينيقيون وكان سكانها هم خلفاء بناة المعابد المشهورة الذين يغلب على الظن أنهم جاؤوها أصلاً من مكان ما في أفريقيا أو آسيا. والرأي الغالب أنهم مهاجرون من شبه جزيرة العرب مروراً بصقلية، إلى هذا الرأي يذهب "ت. زاميت" في كتابه (مالطا الجزر وتاريخها) ويبني رأيه على أساس النظرية الشائعة التي تقول إن حوض البحر المتوسط قد شهد هجرات متتابعة من شبة جزيرة العرب في بداية العصر النيوليتي، وأنه من هذه الهجرات البشرية تكون ما يسمى بجنس البحر المتوسط الذي ينتمي إليه المالطيون في رأيه، ويدعم رأيه مستشهداً بأسماء الأماكن في مالطا على أساس حقيقة أن أسماء الأماكن تشكل المفردات الأولى التي تستخدمها الجماعة، كما أنها

(1) تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، مصدر سبق ذكره، ص (101-102).

(2) الحضارة الفينيقية، مصدر سبق ذكره، ص 106.

أقل المفردات اللغوية عرضة للتغيير، وأنه لما كانت أسماء الأماكن في مالطا سامية [بمفهومنا جزرية] في معظمها فإن هذا ينهض دليلاً على أن سكان مالطا الأوائل كانوا ساميين، ولما كان قد ثبت أن أقدم سكان مالطا هم بناة المعابد، ولما كان قد ثبت أن المعابد سابقة على الوجود الفينيقي فإنه ينتج أمران: أولهما أن سكان مالطا الذين سبقوا الفينيقيين كانوا ساميين مثلهم، وثانيهما أن اللغة السامية التي كان يتكلمها هؤلاء السكان كانت المبرر لسهولة انتشار اللغة الفينيقية[1].

ويرى "بكستون" أن المالطيين ينتمون في مجملهم إلى الفينيقيين، وأن الدماء الجديدة التي اختلطت بدماء المالطيين في أحقاب تاريخية مختلفة لم يكن لها كبير أثر على السمات الرئيسية الغالبة[2].

ألم يذكر "ديودور الصقلي" الذي زار مالطا بعد مئة عام من احتلال الرومان لها، إنها ما يزال يسكنها الفينيقيون؟!![3].

تابع الفينيقيون غزوهم السلمي للبحار متقدمين أكثر فأكثر باتجاه غروب الشمس. من البحر التيراني [غربي ايطاليا] انطلقوا نحو الغرب منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وكانوا أول شعب متحضر في العالم وصل في ذلك الزمن حتى المحيط الأطلسي.

وأسس الفينيقيون في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، **(قادش)** [تقع على ساحل أسبانيا الغربي والتي عرفت بالأسبانية بلفظ (Cadiz) وبالفرنسية بلفظ (Cadix)]. التي تميزت عن أقدم نقاط الارتكاز التجارية الفينيقية من خلال كونها لا تقع ضمن البحر المتوسط المحلي بل على الضفة الأخرى "لأعمدة هرقل" المخفية أي في ممر جبل طارق على ساحل الأطلسي. إن اختيار موقع هذه المدينة الكولونيالية الفينيقية هو لغز وجواب في آن واحد. فعندما قرَّر الفينيقيون

---

(1) (سليمان) د. أحمد طلعت، **مالطا: عرض موجز للتاريخ واللغة**، Mediterranean publishing co. ltd ، **مالطا**، 1980، ص (15-16).

(2) **مالطا: عرض موجز للتاريخ واللغة، مصدر سبق ذكره، ص** 19.

(3)**مالطا: عرض موجز للتاريخ واللغة، مصدر سبق ذكره، ص** 22.

خوض مغامرة ممر جبل طارق الخطر فلا بد أن يكون المشروع يستحق المجازفة بالنسبة للتجَّار الأذكياء. كانوا يتوقَّعون من هذا "الاستثمار" الخطر بالتأكيد مكسباً تجارياً. ولم يكن هناك بدٌّ من خوض مغامرة "قادش" وبحساب دقيق. فعلى الشاطئ الآخر من أعمدة هرقل، وعلى الشاطئ الآخر للأطلسي تنتظرهم إمكانيات كسب وفيرة.

وعلى الرغم من توفر مجالات العمل وإمكانيات الكسب للفينيقيين في البحر المتوسط المضمون فقد تجرؤوا على التوجه نحو الأطلسي.

تحديات البحر وآفاق الربح دعت الشعب البحري على ما يبدو لكي يعير تجهيز السفن تجهيزاً ممتازاً اهتمامه الأقصى. وهذا ما تؤكده "قادش".

لقد برهن الفينيقيون من خلال تأسيسهم لهذه المدينة المستعمرة ليس فقط عن رحلاتهم المنتظمة الأطلسية بل عن استعدادهم للمجازفة[1].

جزر الكناري: "إن الفينيقيين، أولئك البحارة القدماء المجدّين، كانوا أول من اكتشف جزر الكناري. وقد سموها: أليزوت. وهو اسم من أصل فينيقي. وأقاموا فيها أحد المراكز التجارية العديدة التي كانوا يحصلون منها على المنتجات الضرورية لتجارتهم" (Juan Del Rio Ayala)[2].

لقد أسفرت تنقيبات أثرية أسبانية في جزر الكناري التي تقع قبالة ساحل المغرب وموريتانية بالمحيط الأطلسي عن العثور على مومياءات يعود زمنها إلى حقبة استقرار البربر بالمغرب. وتلك الجهات ومنها جزر الكناري، حيث كما قال الأستاذ "علي طاهر" كان الدارسون يعتقدون أن سكان جزر الكناري من قبيلة (مشتي عربي) البربرية في الجزائر. ثم يقول: إنهم ربما كانوا بالفعل وفدوا إلى جزر الكناري من الجزائر، ولكنها كانت بالنسبة لهم مجرد محطة انتقالية لرحلتهم التي بدأت باليمن. وهو ما دلت وتدل عليه المومياءات اليمنية السبائية التي تم

---

(1) (زودهوف) هاينكه، معذرة كولومبوس لست أول من اكتشف أمريكا، تعريب:د. حسين عمران، مكتبة العبيكان،الرياض،2001، ص (35-36).

(2) تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، مصدر سبق ذكره، ص 227.

العثور عليها في ناووس جبل الغراس باليمن، وأسفر فحص عينات منها في المختبر الفيزيائي بهولندا عن نتائج، قال عنها مدير المختبر الهولندي، إنها نتائج تدعو إلى الدهشة وتبوح بمعلومات كثيرة. منها أن إحدى المومياءات تعود زمنها إلى ما بين 1265 قبل الميلاد ـ 980 قبل الميلاد، ويعود زمن المومياء الخامسة إلى ما بين 960 قبل الميلاد ـ 930 قبل الميلاد. وأن ما يثير الاهتمام أيضاً تشابه طرق التحنيط في المومياءات اليمنية ومومياءات جزر الكناري، فالمومياءات الكنارية موضوعة على طريقة القرفصاء في شبه حقائب جلدية كما هو الحال في المومياءات اليمنية، وكذلك تتميز المومياءات اليمنية ومومياءات جزر الكناري بأن الفراغ البطني ليس محشواً بنشارة الأخشاب مثل المومياءات المصرية الفرعونية، وإنما محشواً بالأعشاب ذات الرائحة الطيبة والقادرة على امتصاص السوائل ـ وهي أعشاب نبات الراء ـ وكل هذا يدل بأن فن التحنيط اليمني هو الذي اتبع في جزر الكناري..... وأن سكان جزر الكناري ربما كانوا بالفعل جاؤوا إلى جزر الكناري من الجزائر، ولكنها كانت بالنسبة لهم مجرد محطة انتقالية لرحلتهم التي بدأت من اليمن[1].

الفينيقيون وإنجلترا

هل هناك أدلة، على مجيء الفينيقيين إلى بريطانيا العظمى!؟ نعم. لقد كان "كامدن" أول من بلور دور الفينيقيين في بريطانيا القديمة. ومع إحياء التعليم التقليدي في القرن السادس عشر في أوربا، فقد اتبع الباحثون الإنجليز "كامدن" في الكشف عن تجارة القصدير عند القدماء، واكتشفوا ـ مما أسعدهم ـ أن من خلال وسائلهم يمكنهم دفع جذور بريطانيا قديماً بما يوازي بلاد الإغريق وطروادة وأرض الكتاب المقدس. وقد تحمس أحد باحثي القرن السابع عشر "آليت سافر" (Aylett Sammes)، لهذه النظرية بشدة إلى الحد الذي جعله

(1)(الفرح) محمد حسين، تبابعة اليمن السبعين عظماء الأمة العربية في عصور سبأ وحمير، ط1، دار الثقافة العربية للنشر والترجمة والتوزيع، الشارقة، 2002، ص (145-146).

يؤلف كتاباً أسماه ـ تاريخ البريطانيين القدماء مستمداً من الفينيقيين ـ أثبت فيه أن أغلب لغة البريطانيين القدماء وعاداتهم ومعبوداتهم ومناصبهم وتشريعاتهم، كلها مستمدة بوضوح من الفينيقيين.

فالآثار الحجرية الضخمة المحيرة عند شاهد "ستونهنج وأفبري" (Stonehenge And Avebury)، والتي لا يعرف أحد كيف أُقيمت بواسطة عبدة الشمس البدائيين في بريطانيا، لها علاقة أكيدة باستخدام الكنعانيين [الفينيقيين] للحجارة المقدسة في عبادة آلهتهم المحلية. وقد اعتقد "د. بورلاس" وهو من رواد علماء آثار الكورنيين، وهو يحفر بين ركام وروابي ما قبل التاريخ في موطنه كورنوال، أن المسلات البدائية الموجودة في بريطانيا قد أقامها زوار فينيقيون في العصور القديمة على شرف معبوداتهم القومية. حيث إن الشعوب الكنعانية [الفينيقية] مولعة بتقديس وتشريف الأحجار البدائية. لقد كتب ذلك مبكراً في عام 1769 ق.م. لقد اعتقد "بورلاس" ومن تبعه من الباحثين، أن الفينيقيين اكتشفوا بريطانيا عام 1400 ق.م[1].

وتوجد لدينا بالواقع نصوص صريحة على مجيء الفينيقيين إلى بريطانيا للكتاب القدماء.

يؤكد "سترابون" بقوله (في الجزء III ص 176): "كان فينيقيو قادش يتبادلون مع الـ(Cassiterrides). ونعني عموماً بتسمية (Cassiterrides) مجموعة الجزر الجنوبية الغربية من إنكلترا، وبتعبير آخر مجموعة جزر (سيللي / Scilly) التي تسمى بالعامية الفرنسية (Sorlingues). وأما تسمية (Cassiterrides) نفسها فقد اشتقت مباشرة من الكلمة التي تعنى "ركاز أو فلزّات القصدير". وما زال المختصون بعلم المعادن في أيامنا هذه يطلقون اسم (Cassiterrides) على كتل الفلز الحاوية على القصدير".

---

(1) (توخمان) باربارا، الكتاب المقدس والسيف: انجلترا وفلسطين من العصر البرونزي إلى بلفور، الجزء الأول، تعريب: د. منى عثمان ومحمد طه، ط1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004، ص (36-37).

أما الشاعر اللاتيني "أفيينوس" (Avienus) الذي تأثر بالرواية المفقودة عن مسافر من مرسيليا من القرن السادس قبل الميلاد، فقد صرح في كتاب الـ(Ora Maritima) أن الترشيشيين والقرطاجيين كانوا يتاجرون باتجاه الشمال على بعد يساوي البعد عن (Ostreymnides). ومن المعروف أن الـ(Ostreymnides) تنطبق على الجزر المختلفة في بريطانيا. وفي (Finistere) وتعني هذه الكلمة باليونانية جزر المحار.

وقبيل العصر المسيحي كان "ديودور الصقلي"، الذي عاصر أوغسطس يلمّ بالموضوع بشكل أفضل إذ يقول (V ص 2): "إن سكان هذه الذروة من بريطانيا التي تسمى (Belerion) جديرون بالتقدير لحسن ضيافتهم، وأيضاً بسبب علاقاتهم مع التجار الغرباء ولطريقة حياتهم المتحضرة. إن هؤلاء السكان يستخرجون القصدير بمهارة فائقة من الأرض التي يحرثونها. والأرض تكون صخرية لكنها تحوي في عروتها الترابية على الركاز الذي يستخرج منها مسحوق نقي بعد ذلك تتم تعبئته في قوالب. ثم يأخذون هذه القوالب إلى جزيرة متصلة ببريطانيا تسمى (Iktis)، ذلك لأن المسافة التي تفصلها عن الساحل تجف من الماء في وقت الجزر الأقصى. وهكذا بأمكانهم أن يحضروا إلى هذا المكان كميات كبيرة من القصدير محملة على عربات نقل صغيرة"[1].

هل اكتشف الفينيقيون أمريكا!؟

ونتساءل ههنا: هل اكتشف الفينيقيون أمريكا!؟ أو بمعنى أخر هل وصل الفينيقيون إلى ما وراء جزر الـ Cassiterides !؟ هل جازفوا بأنفسهم فوق هذا البحر الكبير البارد؟ وهل وصلوا إلى أمريكا الشمالية بالرغم من الظلمات!؟

هذا ما أجاب عنه "جان مازيل" بقوله: "والواقع أن احتمال وصول الفينيقيين لأمريكا لا يمكن استبعاده، فقد وجدت في أماكن مختلفة من

(1) تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، مصدر سبق ذكره، ص (137-138).

أمريكا الجنوبية وخاصة البرازيل، نقوش تبدو فينيقية على الأغلب، وأهم ما يمكن ذكره هو (صخرة ديغتون) وبالقرب من (ريو Rio) يمكننا أن نرى ما يشير إلى الفينيقيين. إن الأسماء التي أطلقت على عدد كبير من جزر الأنتيل قد تكون من أصول سامية [جزرية بمفهومنا]. وفي أماكن مختلفة من الجزر، وخاصة في هايتي، مازال بعض من الطاعنين في السن يتذكرون أساطير غريبة عمن قبلهم، نجد فيها دائماً خرافة الآلهة الكبيرة البيضاء والملتحية، التي أتت من الشرق وظهرت ذات صباح جميل منتصبة فوق السفن في بريق الشمس الساطعة. ومن جهة أخرى، فإن قدوم الفينيقيين إلى أمريكا، والقرطاجيين على الأرجح، قد ورد على شكل حدث لا جدال فيه في الكتاب الشهير المسمى ـ Fair Gods And Stonex Faces ـ للباحث "كونستانس إيروين / Constance Irwin" الذي ظهر سنة 1963. وبعد بضعة أعوام قام باحث أمريكي بتقديم فرضية مثيرة حول الصلات الغريبة التي كانت توجد بين الزخارف المنقوشة على المسلة 5 من آثار المايا (Maya) والقصة الأسطورية القديمة للفينيقيين. فضلاً عن ذلك، وإن البيانات عن الأحجار أو الألواح التي تحمل نقوشاً منسوبة للفينيقيين آخذة في الازدياد يوماً بعد يوم. سواء كان المقصود هو النص المنقوش على حجر بارايبا في البرازيل أم نصوص (Grave Creek) في الولايات المتحدة الأمريكية، فإن المرء يجد نفسه أمام نماذج من الكتابة المشابهة تارة للكتابة الشرقية وتارة أخرى لكتابة قرطاجة، أو حتى لكتابة الأفريقيين البربر وأحياناً لكتابة الفينيقيين القدماء"[1].

ربما عندما أبحر كولومبوس عام 1492 إلى القارة الاميريكة، لم يكن هو أول الواصلين. وعندما وصل أول المستوطنين إلى بلايموث وأكلوا الذرة الصفراء مع الهنود الحمر، يمكن أنهم لم يكونوا أول البيض الذي رآهم الهنود.

---

(1) تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، مصدر سبق ذكره، ص (239-240).

الدليل قد يكون في حجر بعرض نحو متر وبلغة قديمة، وجد في وايموث في الولايات المتحدة. دليل، قد يكون دفع البلاط الأسباني لتمويل حملة كولومبوس لفتح أسواق جديدة في العالم الجديد. وكانت دراسة لمتحف كارنييج للتاريخ في بيتسبورغ في السبعينات أفادت أن الأحرف المحفورة على هذا الحجر تقول: (Cease trespassing. Anyone treading is desecrating a burial place) بما معناه "أوقف التطفل، تدنس مدفنا".

وتضيف الدراسة أن الكلمات بلغة أيبيرية ـ بونية، لغة الإمبراطورية القرطاجية في القرنين الثالث والثاني ق.م. وكان هذا الحجر قد اكتشف مع أحجار أخرى في نهر تونتون بالقرن السابع عشر. باحثون مثل "باري فيل" توصل إلى نظريات عديدة ومنها أن اللغة قد تكون فينيقية، أو لغة الرهبان الايرلنديين وحتى لغة الهنود الحمر في الولايات المتحدة.

ويذكر مصدر الخبر أن من الباحثين في الموضوع ستنسون لورد، مؤرخ وجيولوجي، "جايمس ب" و"يتتال" مؤرخ من المتحف المذكور الذي عمل مع باري فيل مترجم الكتابات على الحجر.

ولا يتفاجأ "مارك ماكمينامين" البروفسور ورئيس معهد الجيولوجيا بكلية (ماونت هولي أوك) بجنوب هادلي، فالبروفسور وجد عملة سكت في قرطاجة وعليها خارطة للبحر المتوسط والعالم الجديد. ويقول: "هذا يعني أن الفينيقيين كان عندهم بعض المعرفة بوجود قارة شمال أميركا"[1].

وتبرهن "هاينكه زودهوف" في كتابها ـ معذرة كولومبوس لست أول من اكتشف أمريكا ـ على اكتشاف الفينيقيين لأمريكة قبل كولومبوس بسلسة من البراهين في مجالات الحياة والعلوم المختلفة. ففي الفن، والثقافة، والعبادة، والفلك، وملامح الوجه، واللغة ثمة متشابهات عبر الأطلسي، لا يمكن تفسيرها من منظور الصدفة الصرفة أو التطور المتشابه[2].

---

(1) **مجلة باتريوت ليدجر، موقع على الانترنيت.**

(2) **لمزيد من التفاصيل يراجع (زودهوف) هاينكه، معذرة كولومبوس لست أول من اكتشف أمريكا، تعريب:د. حسين عمران، مكتبة العبيكان،الرياض،2001.**

وتوجـه الباحثـة "هاينكـه زودهـوف" رسـالة إلى كولومبـوس مفادهـا: "معذرة يا كولومبوس، أنت لم تكن الأول! لم تكن أمريكـة تنتظـرك بكـراً، غـير مكتشفة، بل عرفت شواطئها قبلـك بعـضاً مـن بحـارة العـالم القـديم [يقـصد الفينيقيين][1] فقد عثر في الثقافة الأمريكية القديمة وعلى الأرض الأمريكية آثـار تتيح المجال لاستنتاجات عن زوار من العالم القـديم خـلال الألـف الأولى قبـل ولادة المسيح. ووصل هؤلاء الزوار من أوربا بالتأكيد ليس عـن طريـق البيرنـغ وإنما عبر الأطلسي. وصلوا إلى هناك، حيث نزلت أنت أيها المحترم كولومبوس، عقب رحلتك الاكتشافية المشهورة. إن الآثار التـي تركهـا الـزوار الأوائـل مـن العالم القديم في العالم الجديد لا يمكن تجاهلها. ونريـد أن نبـيِّن هـذه الآثـار لمـن سبقك، وبهذا نؤكد لبحارة العصور القديمة[يقصد الفينيقيين] مكانتهم في كتب التاريخ كأول "مكتشفين لأمريكة". معذرة يا كولومبوس[2].

ويستطرد المؤلف بقوله: سنطرح الفرضية أن بحارة العالم القديم، وبعدها جاء غيرهم، قد وصلوا إلى أمريكة عبر الأطلسي، وبهذا يصبحون هم المكتشفين الحقيقيين لأمريكة. وبمساعدة الآثار التي خلفها من بين آخرين "الفينيقيـون في أمريكة القديمة" سوف يتم إثبات هذا الادعاء[3].

الرحلات الفينيقية الكبرى

حوالي القرن الخامس قبل الميلاد عرف القرطاجيون كأجدادهم الفينيقيين عصراً كبيراً من التوسع، فأخذوا يفكـرون في طريقـة تمكـنهم مـن الوصـول إلى السواحل الأفريقية والأوربية .

فيروي لنا "بلين" أنه في أيام "ازدهـار قـوة قرطاجنـة رحـل هـانون مـن قادس (Gades) وطاف حول أفريقية إلى أن وصل إلى طرف جزيرة العـرب مـن

---

(1)معذرة كولومبوس لست أول من اكتشف أمريكا، مصدر سبق ذكره، ص 7.

(2) المصدر نفسه، ص (17-18).

(3)المصدر السابق نفسه، ص (19-20).

الجنوب، ثم كتب كتاباً وصف فيه هذه الرحلة. وفي الوقت نفسه، أرسل أيضاً هيميلقون (خيملكن) Himilcon لاكتشاف الأجزاء الخارجية من أوربا"[1].

وقرابة عام 520 ق. م قام شخص اسمه "هانون" برحلة لا تزال من أشهر الرحلات في العالم . رحلة استكشافية إلى السواحل الأفريقية، وهى الرحلة المسماة "هانون" سعياً وراء معادن الذهب، وقد ترك لنا "هانون" هذا نصاً منقوشاً على لوحة من النحاس كانت معلقة بمعبد كرونوس أو بعل حمون، يروي فيه رحلته بالتفصيل لكن لم يبق من النص سوى ترجمته إلى اليونانية. وقد أمعن الأستاذ "جزيل" Gsell في تحليل الترجمة اليونانية للرحلة ، وانتهى إلى أن نقش معبد كرونوس يذكر أن الملك هانون، وهو زعيم أهل قرطاجنة، سافر في ستين مركباً ذات خمسين مجدافاً، وأخذ معه جم غفير من الرجال والنساء يبلغ عددهم ثلاثين ألفاً، وواضح أن في الرقم بعض المبالغة، ثم يذكر النقش بعد ذلك قائمة بالمستعمرات المؤسسة على الشاطئ الغربي الأفريقي منذ بدأ الرحلة ومنها تيماتيريون Thymaterion (لعلها تقابل المهدية قرب الرباط). وآخر هذه المستعمرات هي سيرنة Cerne. وتقع المستعمرة الأخيرة من غير شك بين رأس جوبى Juby ورأس بوجادورBojador. وبعد هذا اقتصر عمل " هانون " على اكتشاف السواحل ، ويصعب بعد هذه المسافة تتبع رحلته . ويظهر برغم ذلك أنه بلغ وسط غانا Guinee. وتذكر الرحلة جبلاً اسمه "عربة الآلهة " ولعله ينطبق على قمة الكمرون لأن أهل البلاد لا يزالون يسمون اليوم هذه القمة بهذا الاسم. ويلاحظ أن كثيراً من الكهنة اشتركوا في هذه الحملة[2].

ومن الجدير بالملاحظة أن هذا النص كان في الأصل تقريراً حرره "هانون" وعرضه على مجلس الشيوخ. فمن غير شك أن هذا المجلس قبل أن يأمر بنقشه وتعليقه وإذاعته، حذف منه جميع الإرشادات التي ينبغي أن تبقى مكتومة وأن تُحفظ مع جملة أسرار الدولة، فلا يمكن أن يرشدنا النص مثلاً إلى

(1) الحضارة الفينيقية، مصدر سبق ذكره، ص 350.

(2) المصدر نفسه، ص (352-353).

المكان الذي يستخرج منه التبر أو غير ذلك من الخيرات الثمينة التي تريد أن تختص بها قرطاجنة[1].

بينما كان الملك القرطاجي "هانون " يتعرف إلى السواحل الأفريقية إلى الكمرون سعياً وراء معادن الذهب، كان القائد البونيقي "خيملكن" أو "هيميلقون" يتعرف إلى السواحل الأوربية إلى إيرلندة سعياً وراء القصدير أو الرصاص الأبيض، كما كان يسميه "ديودورس" و"استرابون". فإن هذه الرحلات كانت كلها لفائدة التجارة والصناعة. ولغايات اقتصادية قبل كل شيء.

وإذا كان قد وصلنا وصف رحلة "هانون " فليس لدينا من الوثائق حول رحلة "خيملكن" أو "هيميلقون" سوى نبذ من قصيدة في الجغرافية ألفها الشاعر الروماني "روفوس فستوس أفيانوس" (Rufus Festus Avienus) في بداية القرن الرابع (حوالي سنة 400 ق . م) لتعليم أحد أقاربه ، وعنوان القصيدة (Ora Maritima) أي (حول البحر) يصف الشاعر فيها سواحل البحر الأبيض المتوسط حسبما وجدوه في الرحلة التي قام بها "خيملكن" أو "هيميلقون" من أسبانية إلى بلاد القصدير. يقول "أفيانوس" في أبياته "إن القرطاجي خيملكن، الذي يحكى بأنه جرب بنفسه هذا السفر، يؤكد بأنه لا يمكن إلا بجهد جهيد قطع تلك المسافة في أربعة أشهر، وذلك لعدم وجود أي نسيم يدفع السفينة إلى الأمام، فإن ماء هذا البحر الميت يبدو ساكناً جامداً، وزيادة على ذلك فإن كمية كبيرة من الضريع تصعد من قعر البحر وتصبح شبه سياج يحبس السفينة، ومع ذلك فإن البحر خال من العمق لا تغطي قعره سوى طبقة دقيقة من الماء ، وفي كل وقت ترى حيوانات بحرية تجول هنا وهناك وحيتاناً مخيفة تمر بين السفن التي تزحف ببطء وبتعب شديد".

ونفهم من كلام أفيانوس أن القائد البونيقي وصل إلى جزر أسترميند قرب رأس أسترمنيس . ومن المحتمل أن يكون هذا الرأس هو الطرف الغربي

---

(1) (صقر) أحمد، مدنية المغرب العربي في التاريخ، الجزء الأول، بوسلامة، تونس، بلا تاريخ، ص(130-131).

من الأرموريك أو بريطانية الفرنسية، وأن تكون تلك الجزر هي (أوشانت) والجزر المجاورة لها.

ويقول النص بأن "خيملكن" قضى أربعة أشهر للوصول إلى جزر أسترمنيد. فإن كان هذا صحيحاً فهو قد تعطل كثيراً في سيره، إما لوقوفه في أماكن ساحلية كثيرة وفي نقاط مختلفة، أو بسبب العقبات والعوائق التي اعترضته في طريقه، أو لأنه ربما تاه في البحر وضل عن الطريق، وربما وصل إلى بحر السرجس قرب جزائر البوري التي تبعد 1300 كم تقريباً عن البرتغال. فإن ذلك البحر عبارة عن مروج عائمة وأكداس مكدسة من الضريع الذي ينتمي إلى نوع السرجس الشيء الذي أدهش "خريستوف كولومب" وأبهته حقيقة، وما سمي ذلك المكان ببحر السرجس إلا لكثرة ما فيه من هذا النوع من الضريع.

أما تلك المسافة بين قادس وطرف بريطانية الفرنسية فهي تقطع عادة في مدة لا تتجاوز أسبوعين. وأن افيانوس، نقلاً عن "خيملكن" بدون شك، يجعل في حسابه خمسة أيام للذهاب من أعمدة هيرقليس (مضيق جبل طارق) إلى رأس أريوم أو رأس أرتيغل (Cap Ortegal) ويومين للذهاب إلى رأس الكرمة (Cap du Figuier) الموجود قرب نهر بيداصوة (Bidassoa) وعلى كل فإن الشيء المحقق هو أن "خيملكن" وصل إلى بريطانية الفرنسية ونزل بها.

وإن القصدير الذي تحدث عنه افيانوس كان يصدر منذ مدة بعيدة جداً، من طرف الكورنوال (Cornouaille) والموربيهان (Morbihan) ببريطانية الفرنسية. فكان الأهالي بتلك الجهة يصبونه في شكل سبائك يحملونها في قوارب خفيفة مصنوعة من جلود يخيطونها حول هيكل من قضبان الخيزران، وكان التجار الأجانب يأتون من بعيد إلى تلك الجزر لاقتناء القصدير ويظهر أن استغلال هذه المناجم أخذ ينقص ويتضاءل ابتداء من سنة 500 ق.م بينما كانت عكس ذلك مناجم الكورونوال بإنكلترة تنمو وتزدهر. وهذا الانتقال فيما يتعلق بمراكز إنتاج القصدير هو الذي كان من أهم أسباب رحلة هذا القائد البونيقي

ليطلع بنفسه على مشاكل التموين، ولـذلك نـراه لم يمكـث طـويلاً بالأرمويكـة الفرنسية بل قصد إنكلترة وايرلنـدة أو الجزيـرة المقدسـة كـما كـانوا يـسمونها في الماضي، ووصل إلى جزائر القصدير (Iles Cassiterides) أو جزائر الصورلنغ أو سيلي (Iles des Sorlingues ou Scilly).

وقد ذاع الأب "دافيـاس" (O. Davies) أخـيراً أثـراً عجيبـاً يوجـد الآن بسان جهنستون (St Johnstown) على مصب نهر الفويل [نهـر يوجـد في شـمال ايرلندة] وهو حجر بيضوي الشكل عليه خطوط منقوشة في شكل رأس إنـسان تجعل هذا الحجر شبيهاً كـل الـشبه "بالبيتيـل" (Betyle) القرطـاجي المعـروف والموجود بالمتحف العلوي ببارود، وهو بدون شك حجر نذري حبسه خيملكن أو واحد ممن أتوا بعده إلى ذلك المكان، ولا يمكـن أن يرجـع عهـده إلى مـا قبـل القرن الخامس ق.م[1].

أما وصول "خيملكن" إلى كورنوال في إنكلـترا في بحثـه عـن القـصدير فقـد أكده بعض الثقاة.ويورد المؤرخ اليوناني وعالم الجغرافية "أسترابون" حديثاً لـه دلالـة كبيرة حول مثـل هـذه البعثـة التجاريـة: "بيـنما كانـت سـفينة فينيقيـة في طريقهـا إلى بريطانية لاحظت أن سفينة رومانية تقتفي إثرها لكي تتجسس عـلى الطريـق الـسري الذي يسلكه الفينيقيون إلى جزر القصدير. وعليه أبحر الفينيقيون عن قصد في طريـق بحرية تحفها المخاطر. والسفينة الرومانية خلفهم. وغرقـت كلتـا الـسفينتين. لم يكـن الثمن هذا باهظاً بالنسبة للفينيقيين. كانوا مستعدين للتضحية بإحدى سـفنهم مجـدداً من أجل الحفاظ على السرية، لأن معرفة الطريق البحرية إلى أهـدافهم التجاريـة كـان يمثل رأسمالهم الذي عرفوا كيف يحصلون على الربح منها[2].

وهناك من العلماء من ألقوا الشك منذ العصور القديمة على حقيقـة هـذه الرحلات. فهناك من يعتقد أنها رحلة خرافية. ومنذ ذلك الوقت اختلف العلماء على سلامة الوصف الذي وصلنا عن هذه الرحلة. ويبدو أن صحة هذه الحملـة

---

(1) **مدنية المغرب العربي في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص (134-137).**

(2) **معذرة كولومبوس لست أول من اكتشف أمريكا، مصدر سبق ذكره، ص 30.**

فوق الشك من حيث خطوطها العامة على أساس وجود مستعمرات فينيقية في غربي أفريقية.

وهناك رحلة بحرية فينيقية أعجب من هذه كثيراً ، ويقص علينا شيخ المؤرخين "هيرودوتس" نبأ هذه الرحلة، وفيها يروى أن الفرعون "نخاو" (609 ـ 593 ق.م) من السلالة السادسة والعشرين بعث حوالي عام 600 ق.م اثنين من الفينيقيين للدوران حول أفريقيا، وقد قاموا بهذا العمل بإشارة من ما يلي: "ولما توقف الملك نخاو عن حفر الترعة التي كان المراد منها إيصال مياه النيل إلى الخليج العربي ، أرسل جماعة من الفينيقيين في المراكب ، وأمرهم أن يدخلوا في رجوعهم في البحر الشمالي مارين بأعمدة هرقليس (مضيق جبل طارق) . وبهذه الكيفية رجعوا إلى مصر .... ركب الفينيقيون بحر إريتريا وسافروا في البحر الجنوبي . فلما دخل الخريف نزلوا في المكان من ليبيا (وحسب هيرودوتس فإن ليبيا كانت تطلق كاسم على أفريقية الحالية) الذي وجدوا فيه، وزرعوا القمح وانتظروا الحصاد.وبعد الاستغلال ركبوا البحر. فسافروا هكذا سنتين. وفي السنة الثالثة اجتازوا أعمدة هرقليس ورجعوا إلى مصر، وأخبروا أن الشمس كانت عن يمينهم"[1].

لم يكن بمقدور "هيرودوتس" كإنسان يعيش في النصف الشمالي من الكرة الأرضية أن يتصور بأن الشمس تقف في نصف الكرة الجنوبي، أي في رأس إفريقية الجنوبي، شمال (كبد السماء) السَّمْت، وأنه عند الإبحار باتجاه مسار الشرق ـ الغربي تبدو الشمس فعلاً من موقع قيادة السفينة كما لو أنها يجب أن تسطع غرباً.

بينما هذه النقطة بالذات تدل على صدق أنباء الرحلة لأن ذلك حدث عندما دارت السفن حول رأس الرجاء الصالح، فعندما تتجه السفن إلى الغرب حول رأس الرجاء الصالح فأن شمس نصف الكرة الجنوبية تكون عن يمينها.

ويعتبر هذا العمل (الدوران حول أفريقية) أعظم عمل بحري حققه الفينيقيون قبل البرتغاليين بأكثر من ألفي سنة.

---

(1) **تاريخ هيرودوتس الشهير، مصدر سبق ذكره، ص 276.**

الخلاصة والنتائج

لقد أثبتنا في هذا البحث العديد من القناعات التي توصلت لها ونلخصها في النقاط الآتية:

• لقد قمنا بسرد ما عثر عليه حتى الآن من أساطير الطوفان في منطقتنا العريقة، ومقارنتها بالرواية التوراتية للطوفان، فنمت عن تشابه فيما بينهما.

• تبين لنا أن كتاب سفر التكوين وكتاب ملحمة كلكامش على حد سواء قد نهلا من أصل مشترك واحد لقصة الطوفان. وهذا يعني أن أصلاً واحداً كان موجوداً قبل التدوين الأول لـ (ملحمة كلكامش) الذي سبق عصر تدوين قصة الطوفان التوراتية. فقد كانت أساطير الجزيرة العربية هي المعين الغزير الذي أخذت منه هذه القصة.

• أثبتنا بما لا يدع مجالاً للشك، أن التفسيرات التي ذهبت إلى وجود آثار لطوفان هائل في العراق كلها غير دقيقة ولا يمكن الاعتقاد بها أو الاقتناع بها لافتقارها إلى الأدلة.

• توصلنا إلى حقيقة مفادها أن الطوفان لم يغط اليابسة كلياً، فالقرآن الكريم يقدم لنا كارثة (الطوفان) على أساس أنها عقاب أنزله الله سبحانه وتعالى بشكل خاص على الكافرين من قوم نوح. وهذا الأساس المهم يشكل الفارق الأساسي بين رواية التوراة ورواية القرآن عن الطوفان.

• تأكد لنا أن الموطن الرئيسي لنوح وقومه، هو جزيرة العرب، فجميع أسماء الأصنام التي عبدها قوم نوح، هي معبودات عربية شاعت عبادتها في شبه الجزيرة العربية. وقد أكدت ذلك الرّقُمُ الحجريةُ والكتابات التاريخية، والشعر الجاهلي.

• توصلنا إلى أن الجبل الذي استقرت أو رست عليه سفينة نوح. كان في جزيرة العرب.فجميع مسمياته هي اسم لمكان واحد، وجميع هذه المسميات عربية.

• في عملية قراءة التوراة، في ضوء تاريخ جزيرة العرب، أثبتنا أن قصة برج بابل إن حدثت فعلاً، فقد كان حدوثها في جغرافية الأراضي اليمنية، فالمَرْوية التوراتية عن "تمزق" اللغة الواحدة، تَحَلُّلها وتَفَسُّحها؛ تشبه إلى حد بعيد، مَرْوية عربية عتيقة عن انهيار سدّ مأرب، نجم عنه انهيار في مبنى الوحدة التي جمعت القبائل في أرض اليمن؛ وبدلاً من "البرج" أنشأ سارد النّص العربي (وحدة) للجماعة من حول (السدّ).

• أثبتنا أن تسمية (السامية) إنما هي تسمية حديثة وضعها "أوجست لودفيج شلوتسر" (August Ludwig Schloester) في القرن الثامن عشر. استناداً إلى قائمة الأنساب التي تذكرها التوراة في الإصحاح العاشر من سفر التكوين. وأن هذه التسمية لا تستند إلى واقع تاريخي أو أسس علمية عنصرية صحيحة أو وجهة نظر لغوية. وأن انحدار ما يسمى بالساميين من صلب رجل هو سام مجرد أسطورة لا وجود تاريخياً لها.

• لقد ناقشنا موضوع تسمية السامية تفصيلاً، وقمنا بتخطئة التسمية، وهكذا فقد أصبح من الضروري إيجاد تسمية بديلة عن تسمية السامية والساميين. إن أكثر النظريات التي قيلت بشأن الموطن الأول لهذه الأقوام قبولاً هي النظرية التي تقول بأن شبة الجزيرة العربية هي ذلك الموطن. فإذا كانت جزيرة العرب موطن هذه الأقوام المسماة خطأً بالسامية!؟ فلماذا لم تسمَّ هذه الأقوام بالجزرية نسباً إلى جزيرة العرب!؟ إن التسمية الصحيحة التي يتجنبها مؤرخو الغرب عامة، والسادة حراس وأصحاب الفكر الآسن العربي خاصة. للدلالة على الشعوب المسماة خطأً بالسامية، هي الشعوب الجزرية، وذلك لأنها أصدق في التعبير عن الطبيعة الحقيقية لهذه الشعوب.

• إن جزيرة العرب بما بقي من آثارها، وبما يشهد به الكثير من مؤرخي العالم، كانت محوراً حضارياً حيوياً في العالم القديم. فانطلاقاً من دراسات علمية

قام بها عدد من علماء الآثار والتاريخ (ثبت) أن الحضارة الإنسانية الأم نشأت في جزيرة العرب، وفي جنوبها على التخصيص، وأن معظم السكان الذين استقروا في وادي النيل وعلى ضفاف الرافدين وفي بلاد الشام، أي شمال الجزيرة العربية حتى جبال أرارات من بلاد الأناضول، إنما هم هجرات كبرى صادرة عن شبة جزيرة العرب، خرجوا منها في موجات متعددة فيما قبل التاريخ وبعده.

• إنني على قناعة تامة، أن اليمن هي المهد الأول أو الوطن الأول للشعوب المسماة خطأ بالسامية، ولكثرة الموجات البشرية التي خرجت من اليمن قال أحد علماء الألمان "سايس" أن "اليمن معمل البشرية السامية".

• إن ما افترضه علماء الغرب الجاهل، وأيدهم في ذلك مؤرخونا الأفاضل من حراس وأصحاب الفكر الآسن من الأكاديميين العرب حول أن السومريين غرباء عن المنطقة، حتى أصبح أصل السومريين مسألة عويصة حتى إن المعنيين بحضارة العراق القديم صاروا يسمونها بـ"المشكلة السومرية" هو افتراض غير صحيح. وإننا نرى في الخصائص المميزة للحضارة السومرية، التي بدأت في النضج منذ العصر الشبيه بالكتابي، نتيجة وامتداداً طبيعيين لمدنيات أدوار عصور ما قبل التاريخ السابق، مثل دور العبيد في الجنوب، وأدوار حلف وحسونة في الشمال. فهؤلاء الذين نسميهم بالسومريين، من جنس البحر المتوسط، الذين يمتازون بالجمجمة المستطيلة (Dolicho - Ciphalic)، كسكان الجزيرة العربية بأسرها، الذين تطلق عليهم التسمية الحديثة: العرب.

• إن من السذاجة والغباء أيضاً أن ننظر إلى سكان مصر ـ وادي النيل على أنهم منفصلون عن شعوب شرقنا القديم. لأن ذلك يضعنا أمام تاريخ شعب متعدد متباين. ينظر إليه على أنه تاريخ فرعوني أولاً، وقبطي ثانياً، وعربي ثالثاً. وهذا غير صحيح وتزوير للحقائق التاريخية، لأن ذلك لم يكن انتقالاً من نوعية شعبية أتنولوجية وأتنوغرافية ولغوية إلى نوعية أخرى.

• لقد توصلنا إلى أن أصل المصريين القدماء من بلاد العرب الجنوبية، نزلوا إلى شواطئ إثيوبيا، ثم تقدموا نحو الشمال حتى دخلوا مصر .

• إن البحث عن أصول فينيقيي الشرق يتعلق بعلم الآثار بمقدار ما يتعلق بالأسطورة. هذا الشعب المقدام، الذي لم يكن في يوم من الأيام إلا جزءاً من الشعب العربي اليمني الذي ملأ أرضه الممتدة من الخليج شرقاً إلى المتوسط غرباً بإنجازات حضارية واحدة.

• لقد أخذ اليمنيون يستقرون في أفريقية ثم سرعان ما لعبوا دوراً خطيراً في إرساء قواعد حضارة وثقافة تنبثق من صميم الحضارة اليمنية، فالمتفحّص لتسمية الأماكن والأنهار والتضاريس منذ فجر التاريخ حتى الآن، يدركُ أن الحبشة كانت العتبة التي وطأتها أقدام العرب في انتقالهم اللا متقطع باتجاه القسم العربي من أفريقيا، فيكتشف أن أسماء تلك الأماكن في الجانب الإفريقي من أصل يمني. فالرأي الراجح أن سكان إثيوبيا من شعوب جزيرة العرب الذين هاجروا في وقت ما إلى السواحل الغربية للبحر الأحمر عبر مضيق باب المندب، وأقاموا دولتهم فيما عرف تالياً بالحبشة.

• قلنا إن الحديث عن شمال أفريقي جزري لا يبدأ مع دخول الفينيقيين في أوائل الألف الأول قبل الميلاد، وإنما يعود إلى أزمنة أقدم بكثير، وهذا، بدوره، يجعلنا ننظر إلى الشعب الذي أطلق عليه لفظ بربري، على أنه ينتمي إلى الشعوب الجزرية. فأكثرية القبائل البربرية منحدرة من الحميريين سكان اليمن. فالعلماء المحدثون عندما أخضعوا أصل البربر أو أصولهم للمقايس العلمية الخاصة بهم كلون البشرة ونوع الشعر وشكل الجمجمة وبنية الجسم، مضافة إليها اللغة والموسيقا والمعمار والعادات والمعتقدات، وجدوا بيْن بعض قبائل البربر وقبائل العرب في اليمن وحضرموت شبهاً كبيراً مالوا معه إلى تصديق ما يَرويه كثير من نسابة العرب والبربر ومؤرخيهم عن عُروبة الأرومة البربرية.

• لقد دعيت المنطقة (أوربا) نسبة إلى الملكة العربية الفينيقية أوربا الصورية. فقد كان الفينيقيون الحميريون يبنون ويؤسسون أينما ذهبوا. فانتشرت مستوطناتهم في كل مكان تطأه أقدامهم. لقد أثبتنا أن أغلب لغة البريطانيين

القدماء وعاداتهم ومعبوداتهم ومناصبهم وتشريعاتهم، كلها مستمدة بوضوح من الفينيقيين. لقد بينا أن المكتشفين الحقيقيين لأمريكة هم الفينيقيون.

• لقد رأيت أن لا أعطي هذا الفصل اسم (الخاتمة)، لأني آمل أن يكون إسهامي هذا مقدمة لأبحاث جديدة قد أقوم بها، أو ينجزها غيري من البحاثة العرب في هذا المجال.

• إنه من المؤلم حقاً أن يعلن قادتنا ومثقفونا ومفكرونا وفقهاؤنا المتسولون، أننا ساميون. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ألا يُعد مثل هذا التصريح التاريخي دليلاً على الجهل في المعلومات التاريخية. إنني على يقين أن أياً من هؤلاء الجهلة سوف يدهش، لا شك، حينما يعرف أن سام مجرد أسطورة لا وجود لها.

• ويحق لنا أن نتساءل: هل اقترب اليوم الذي يُسقط فيه جميع الباحثين والدارسين استخدام مصطلح (السامية) من جميع أبحاثهم ودراساتهم، ويعودوا إلى تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية!؟

المراجع والمصادر

1. (ابن خلدون) عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون، المجلد السادس، الجزء الثاني، مطبعة بولاق، مصر، بلا تاريخ
2. (ابن خلدون) عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت، بلا تاريخ.
3. (ابن المجاور) جمال الدين ابن أبي الفتح يوسف بن يعقوب ابن محمد،صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تأريخ المستبصر، تحقيق: اوسكر لوففرين، ط2، منشورات المدينة، بيروت، 1986 .
4. (ابن المنظور) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري، لسان العرب، الجزء الأول، الجزء الثالث، الجزء الخامس، الجزء الثامن، ط 1، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.
5. (ابن كثير) أبو الفداء إسماعيل، قصص الأنبياء، تحقيق: أبي عمار مراد بن عبد الله، ط 2، دار الدعوة الإسلامية، شبرا الخيمة، 2000.
6. (ابن كثير) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، الجزء الثاني، دار الفكر، بيروت، 1401 هـ.
7. (ابن هشام) أبي محمد عبد الملك، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، الجزء الأول، المجلد الأول، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،1981.
8. (أمين) د. أحمد، فجر الإسلام، مكتبة الأسرة، مصر،2001.
9. (الأحمد) د. سامي سعيد، تاريخ الخليج العربي من أقدم الأزمنة حتى التحرير العربي، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، مطبعة جامعة البصرة، 1985 .

10. (الألوسي البغدادي) السيد محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، الجزء الثاني، عني بشرحه وتصحيحه وضبطه، محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا تاريخ.
11. (البكري الأندلسي) أبو عبيد عبد بن عبد العزيز،معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، الجزء الأول، ط3، عالم الكتب، بيروت، 1403 هـ.
12. (الجثام) فضل عبد الله، الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى: سبر في التاريخ القديم، ط1، منشورات علاء الدين، دمشق، 1999.
13. (الجوراني) وداد، الرحلة إلى الفردوس والجحيم في أساطير العراق القديم، دار الشئون الثقافية، بغداد، 1998.
14. (الحجري اليماني) محمد بن أحمد ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، المجلد الأول، الجزء الأول، تحقيق وتصحيح ومراجعة: إسماعيل بن علي الأكوع، ط3، مكتبة الإرشاد، صنعاء،2004.
15. (الحموي) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، الجزء الثاني، الجزء الخامس، دار صادر، بيروت، 1977.
16. (الحميري) نشوان بن سعيد، منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلام، ط2، مصورة، دار الفكر، دمشق، 1981.
17. (الخضّور) د. جمال الدين، عودة التاريخ، عودة التاريخ – الأنتربولوجية المعرفية العربية / دراسة في الإناسة المعرفية العربية التاريخية- اللغوية ووحدتها- حتى الألف الثاني قبل الميلاد، الجزء الأول، الفصل الثالث، دراسات من منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1997. (موقع على الإنترنت).
18. (الحوت) محمود سليم، الميثولوجيا عند العرب، ط2، دار النهار للنشر، بيروت، 1979.
19. (الدبش) أحمد، سومر بين الجغرافيا والتاريخ، العصور الجديدة، العدد الثامن والتاسع عشر، السنة الثانية، فبراير / مارس 2001 .

20. (الدبش) أحمد، موسى وفرعون في جزيرة العرب، ط1، دار خطوات للنشر والتوزيع، دمشق، 2004.
21. (الدبش) أحمد، كنعان وملوك بني إسرائيل في جزيرة العرب، ط1، دار خطوات للنشر والتوزيع، دمشق، 2006
22. (الدواليبي) د. محمد معروف، دراسات تاريخية عن مهد العرب وحضارتهم الإنسانية، ط 2، دار الكتاب اللبناني، 1983.
23. (الرازي) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1995 .
24. (الربيعي) فاضل، الشيطان والعرش، رحلة النبي سليمان إلى اليمن، ط 1، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1996.
25. (الربيعي) فاضل، شقيقات قريش: الأنساب والزواج والطعام في الموروث العربي، ط1، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 2002.
26. (الرفاعي) أنور، الإنسان العربي والحضارة، دار الفكر، دمشق، بلا تاريخ.
27. (السعد) جودت، أوهام التاريخ اليهودي، ط1، منشورات الأهلية، عمان، 1998.
28. (السقا) د. أحمد حجازي، نقد التوراة: أسفار موسى الخمسة (السامرية / العبرانية / اليونانية)،ط1، مكتبة النافذة، مصر، 2005.
29. (السواح) فراس، مغامرة العقل الأولى: دراسة في الأسطورة سورية وبلاد الرافدين، ط11، دار علاء الدين، دمشق، 1996.
30. (الشمس) د. ماجد عبد الله، في أصل العرب ومواطنهم، ط1، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، 2004.
31. (الشوك) علي، الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة، دار لام، لندن،1987 .
32. (الشيبة) د. عبد الله حسن، دراسات في تاريخ اليمن القديم، ط1، مكتبة الوعي الثوري للطباعة والنشر والتوزيع، تعز، 2000 .
33. (الصليبي) د. كمال، خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، ط 2، دار الساقي، لندن، 1991

34. (الطبري) محمد بن جرير أبو جعفر، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الجزء الثاني، الجزء الثاني عشر، الجزء التاسع والعشرون، دار الفكر، بيروت، 1405 هـ.
35. (الطبري) محمد بن جرير أبو جعفر، تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك، الجزء الأول، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،1407هـ.
36. (العلي) د. صالح أحمد، محاضرات في تاريخ العرب، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، بلا تاريخ.
37. (الفرح) د.محمد حسين، تبابعة اليمن السبعون عظماء الأمة العربية في عصور سبأ وحمير، ط1، دار الثقافة العربية للنشر والترجمة والتوزيع، الشارقة، 2002.
38. (الكلبي) أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب، الأصنام، تحقيق: أحمد ذكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1956.
39. (اللواساني) شابور، تفنيد النظرية القومية الآرية والسامية والتركية، ترجمة: عبد الرحمن العلوي، ط 1، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2005.
40. (الملاح) د. هاشم يحيى، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1994.
41. (المقحفي) إبراهيم أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، الجزء الأول، الجزء الثاني، دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع ـ صنعاء والمؤسسة الجامعية للدراسات للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت، 2002.
42. (المقدسي)محمد بن أحمد المعروف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بريل، 1909.
43. (الكيلاني) د. رعد شمس الدين، الأنبياء في العراق دراسة مقارنة بين القرآن والتوراة والآثار،ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2001.
44. (الناضوري) د. رشيد، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، مرحلة التكوين والتشكيل الحضاري والسياسي من العصر الحجري الحديث حتى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، دار مكتبة الجامعة العربية، بيروت، 1968.

45. (النعيمي) د. أحمد إسماعيل، الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، ط1، سينا للنشر، القاهرة،1995.
46. (الهمداني) الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، ط1، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1990.
47. (بافقيه) محمد عبد القادر، تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،1985.
48. (باقر) د. طه، من تراثنا اللغوي القديم: ما يسمى بالعربية بالدخيل، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1980.
49. (باقر) د. طه، ملحمة كلكامش، منشورات وزارة الإعلام، بغداد، 1975 .
50. (باوزير) سعيد عوض، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، دار الطباعة الحديثة،القاهرة،1961 .
51. (برو) د. توفيق، تاريخ العرب القديم، ط2، دار الفكر المعاصر، بيروت ـ دمشق، 1996.
52. (بركات) د. أبو العيون، بونت بين المصادر المصرية واليمنية القديمة، مجلة اليمن الجديد، العدد2، السنة الخامسة عشر، فبراير 1986.
53. (بن منصور) عبد الوهاب، دلالة المعمار اليمني على عروبة قبائل بربرية، مجلة دراسات يمنية، العدد الثامن والثلاثون مجلة فصلية تصدر عن مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، أكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر، 1989 .
54. **(بوكاي)** موريس، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة: الشيخ حسن خالد، ط3، المكتب الإسلامي، بيروت ـ دمشق، 1990.
55. (بيير روسي)، مدينة إيزيس ـ التاريخ الحقيقي للعرب، ترجمة: فريد جحا، ط 1، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1996.
56. (توخمان) باربارا، الكتاب المقدس والسيف: إنجلترا وفلسطين من العصر البرونزي إلى بلفور، الجزء الأول، تعريب: د. منى عثمان ومحمد طه، ط1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004.
57. (توينبي) أرنولد، تاريخ البشرية، الجزء الأول، ترجمة: نقولا زيادة، الأهلية للنشر، عمان، 1982.

58. (تيزيني) د. طيب، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي منذ بداياته حتى المرحلة المعاصرة، الجزء الثاني، الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى، ط1، دار دمشق، دمشق، 1982.
59. (ج. كونتو)، الحضارة الفينيقية، ترجمة: د. محمد عبد الهادي شعيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1997.
60. (حتى) د.فيليب وآخرون، تاريخ العرب، دار الكشاف، بيروت، 1949.
61. (حتى) د.فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ترجمة: د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، 1958.
62. (حسن) د. سليم، مصر القديمة، الجزء الثالث عشر، مكتبة الأسرة، مصر، 2001 .
63. (حوراني) يوسف، لبنان في قديم تاريخه، دار النهار، 1992.
64. (خشيم) د. علي فهمي، آلهة مصر العربية، المجلد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.
65. (خليف) د. بشار، دراسات في حضارة المشرق القديم، ط1، مركز الإنماء الحضاري، حلب،2003.
66. (دانزول) ألبيرتو، اليهودية والغيرية غير اليهود في منظار اليهودية، ترجمة: د. ماري شهرستان، ط1، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، دمشق، 2004.
67. (داود) أحمد داود، العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود، ط1، دار المستقبل، دمشق، 1991.
68. (داود) د. أحمد، تاريخ سوريا القديم تصحيح وتحرير، ط2، دار الكاتب العربي، دمشق،1997.
69. (دروزة) محمد عزة، تاريخ العرب قبل العروبة الصريحة في جزيرة العرب، بيروت، بلا تاريخ.
70. (دروزة) محمد عزة، تاريخ الجنس العربي، الجزء الثاني، الموجات العربية إلى وادي النيل مآثرها فيه قبل طور العروبة الصريحة، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1959.

71. (ديب) فرج الله صالح ، كذبة السامية وحقيقة الفينيقية، ط1، دار نوفل، بيروت،1998.
72. (ديورانت) ول، قصة الحضارة: نشأة الحضارة ـ الشرق الأدنى، ترجمة: د. زكي نجيب محمود ومحمد بدران، المجلد الأول، 1/ 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001.
73. (راتييه) سوزان،حتشبسوت الملكة الفرعونية، ترجمة: فاطمة عبد الله محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998
74. (رشيد) د. فوزي، الفكر عبر التاريخ، ط1، الأهالي سينا النشر، القاهرة،1995 .
75. (زودهوف) هاينكه، معذرة كولومبوس لست أول من اكتشف أمريكا، تعريب:د. حسين عمران، مكتبة العبيكان،الرياض،2001
76. (سالم) د. السيد عبد العزيز، تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1973.
77. (ساكز) د. هاري، عظمة بابل: موجز حضارة وادي دجلة والفرات القديمة، ترجمة وتعليق: د. عامر سليمان ، دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد، 1979.
78. (سكيف) علي، الحلقة المفقودة في سلسلة الحضارات القديمة للجزيرة العربية، ط1، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، دمشق، 2002.
79. (سليمان) د. أحمد طلعت، مالطا: عرض موجز للتاريخ واللغة، Mediterranean publishing co. ltd، مالطا، 1980.
80. (سليمان) د. توفيق، نقد النظرية السامية، الجزء الأول، أسطورة النظرية السامية ولادتها وتطويرها–حقيقتها في التوراة – أسباب وضعها، ط1، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، 1982.
81. (سوسة) د. أحمد، حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1980 .
82. (شرف الدين) أحمد حسين، اليمن عبر التاريخ، ط1، مطبعة السنة المحمدية، 1963 .

83. (صالح) د. عبد العزيز، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر والعراق، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، بلا تاريخ.
84. (صالح) د. عبد العزيز، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر القديمة، ط4، مكتبة الأنجلو المصرية، 1990 .
85. (صقر) أحمد، مدنية المغرب العربي في التاريخ، الجزء الأول، بوسلامة، تونس، بلا تاريخ.
86. (ظاظا) د. حسن، اللسان والإنسان: مدخل إلى معرفة اللغة، دار الفكر العربي،القاهرة،1971 .
87. (عبد المالك) بطرس ورفقاه،قاموس الكتاب المقدس، مكتبة المشعل، بيروت، 1981 .
88. (عبد الوهاب) لطفي، العرب في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بدون تاريخ.
89. (عزيز) د.كارم محمود، أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم، ط1،دار الحصاد للنشر والتوزيع والطباعة، دمشق، 1999.
90. (علي) د. جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، الجزء الثاني، الجزء السادس، ط 2، دار العلم للملايين ـ بيروت، مكتبة النهضة ـ بغداد، 1977.
91. (علي) د. فاضل عبد الواحد، الأكديون: دورهم في المنطقة، مجلة كلية الآداب، العدد 24،بغداد، 1979.
92. (علي) د. فاضل عبد الواحد، الطوفان في المراجع السماوية، ط1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، 1999.
93. (علي) د. فاضل عبد الواحد، سومر أسطورة وملحمة، ط1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1999.
94. (عنان) زيد بن علي، تاريخ حضارة اليمن القديم، الجزء الأول، ط 1، دار الأفاق العربية، القاهرة، 2003.
95. (فخري) د. أحمد، دراسات في تاريخ الشرق القديم، ط4، مكتبة الأنجلو المصرية، دمشق، 1984.

96. (فرانكفورت) هنري، فجر الحضارة في الشرق الأدنى القديم، ترجمة: ميخائيل خوري، مكتبة الحياة، بيروت، 1965.
97. (فريزر) جيمس، الفولكلور في العهد القديم، الجزء الأول، ترجمة: د. نبيلة إبراهيم، ط2،دار المعارف، القاهرة، 1982.
98. (قطب) سيد، في ظلال القرآن، الجزء الخامس، دار الشرق، بيروت، 1985
99. (كريمر) صموئيل نوح، من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، مكتبة المثني، بغداد، بلا تاريخ.
100. (كييرا) إدوارد، كتبوا على الطين: رقم الطين البابلية تتحدث اليوم، ترجمة:د. محمود حسين الأمين، مكتبة المتنبي، بغداد، 1964.
101. (لويد) سيتون، آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتى الغزو الفارسي، ترجمة: محمد طلب، ط1، دار دمشق، دمشق، 1993.
102. (ليوتاكسل)، التوراة: كتاب مقدس أم جمع من الأساطير؟، ترجمة: د. حسان ميخائيل إسحاق، ط1،الجندي للطباعة والنشر، 1994.
103. (ماكيفيدي) كولين، أطلس التاريخ الأفريقي، ترجمة: مختار السويفي، القاهرة، 1987.
104. (مازيل) جان، تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، ترجمة: ربا الخش، ط1، دار الحوار النشر والتوزيع، اللاذقية، 1998.
105. مجلة باتريوت ليدجر، موقع على الإنترنيت.
106. (مقار) شفيق، قراءة سياسية للتوراة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، بلا تاريخ.
107. (موسكاتي) سبتينو، الحضارات السامية القديمة، ترجمة: د. السيد يعقوب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1997.
108. (موسى) محمد العزب، وحدة تاريخ مصر، ط2، المركز العربي للصحافة - أهلا، القاهرة، 1980.
109. (منى) د. زياد، جغرافية التوراة: مصر وبنو إسرائيل في عسير، ط1، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1994 .
110. (مهران) د. محمد بيومي، دراسات في تاريخ العرب، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بلا تاريخ.

111. (نادفي) سيد مظفر الدين، التاريخ الجغرافي للقرآن، ترجمة: د. عبد الشافي غنيم عبـد القـادر، سلـسلة الألـف كتـاب (67)، لجنـة البيـان العـربي، مصر، 1956.
112. (نامى) د. خليل يحي، العرب قبل الإسـلام: تـاريخهم ـ لغـاتهم ـ آلهـتهم، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية (98)، بلا تاريخ.
113. (نبيل) غادة، طوفان نوح هل هـو أسـطورة!؟، العـصور الجديـدة، العـصور الجديدة للنشر والتوزيع، العدد الخامس ـ يناير 2000، القاهرة.
114. (نسطور) ميخائيل، كنعان ـ فينيقيا ـ أرجـوان، ترجمـة: فاضـل جتكـر، ط 1، دراسات قدمس (6)، دار قدمس للطباعة والنشر، دمشق، 2001.
115. (نيلسن) د. ديتلف، الديانـة العربيـة القديمـة ـ الفـصل الخـامس مـن كتـاب التاريخ العربي القديم، ترجمة واستكمال: د. فؤاد حسنين، مكتبة النهضة المصرية،1958.
116. (هاشمي) د. على، آثار الخليج العـربي والجزيـرة العربيـة، بـلا دار نـشر، ولا مكان نشر،2000.
117. (هووك) صموئيل هنـري، منعطـف المخيلـة البـشرية: بحـث في الأسـاطير، ترجمـــة: صـــبحي الحديـــدي، ط3، دار الحـــوار للنـــشر والتوزيـــع، اللاذقية،2004.
118. (هيرودوتس)، تاريخ هيرودوتس الشهير، ترجمة عن طبعـة لارشي الفرنـسي: حبيب أفندي بسترس، مجلدين، مطبعة القديس جاورجيوس، بـيروت، 1886 ـ 1887.[نسخة مصورة]

الفهرس

التعريف بالمؤلف

أحمد الدبش

- باحث فلسطيني في التاريخ القديم، مقيم بالقاهرة.
- من مواليد القاهرة 1976.
- حاصل على ليسانس حقوق ـ جامعة عين شمس عام 1998.
- أثارت أبحاثه في تفكيك التوراة عديداً من النقاشات.
- له العديد من المقالات في نقد ما يسمي بالسلطة الفلسطينية، والفساد المستشري في أروقتها في الأعوام 2002و 2003. وقد أثارت مقالاته هذه جدلاً موسعاً في حينه.

له مؤلفات:-

- موسى وفرعون في جزيرة العرب، دار خطوات، دمشق، 2004.
- كنعان وملوك بني إسرائيل في جزيرة العرب، دار خطوات، دمشق، 2006.

للتواصل مع المؤلف:-

جوال: 0020101082996

e-mail: el_dabash@hotmail.com